

في عيد الخمسين

مجمع اللغة العربية



# مع الجنت

ابراهيم مذكور



مكتبة مصر العربية



مجمع اللغة العربية  
في عيده الخمسيني

مع الخالد

ابراهيم مدكور

رئيس المجمع

الشهادة  
الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية  
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م



## وفاء وتقدير

عشت في زمرة الخالدين ما يزيد على ثلث قرن ، ودنوت معهم من عيد المجمع الذهبي ، ونعمت بصحبة عدد غير قليل من الرعيل الأول ، جماعة المؤسسين ، أمثال علي الحارم (١٩٤٩) ، وفارس نمر (١٩٥١) ، وأحمد العوامري (١٩٥٤) ، ومحمد الخضر حسين (١٩٥٨) ومنصور فهمي (١٩٥٩) وإبراهيم حمروش (١٩٦٠) بين المصريين ، ومحمد كرد علي (١٩٥٣) وعبد القادر المغربي (١٩٥٦) وحسن حسني عبد الوهاب (١٩٦٩) بين الأعضاء العرب ، وليثاق (١٩٥٨) ، وجب (١٩٦١) ، وماسنيون (١٩٦١) بين المستعربين .

وزاملت عن قرب شيوخ الرعيل الثاني ، وفي مقدمتهم : مصطفى عبد الرازق (١٩٤٧) وأحمد أمين (١٩٥٤) ، وأحمد لطفى السيد (١٩٦٣) ، وعباس العقاد (١٩٦٤) ، وطه حسين (١٩٧٣) وكنت واحدا من عشرة اختيروا عام (١٩٤٦) لعضوية المجمع في الفوج الثالث ، وقد لقوا ربهم ، وكان آخرهم رحيلا زكى المهندس (١٩٧٦) . وفي عام ١٩٦٠ ضم إلى المجمع فوجان آخران أحدهما مصرى والآخر عربى . هذا إلى جانب الانتخابات السنوية لملأ الأماكن الشاغرة وقد بلغ من حظوا بعضوية المجمع حتى الآن نحو مائة وثلاثين عضوا .

وهم ولا شك من صفوة الصفوة ، جمعوا بين العلم والتجربة ، وسداد الرأى والحكمة ، لا ينطقون عن هوى ، ولا يصدرون إلا عن بيئة : هدفهم الأول النهوض والإصلاح ، وخدمة اللغة لكى تفي بمتطلبات العصر ، وتسد حاجات العلم والتكنولوجيا . فيهم من يميل إلى المحافظة وفيهم من ينشد التجديد ، وفي هذا ما يحول دون الجمود أو الطفرة ، وما أشبه ذلك بصمام الأمان .

وقد رلى أن أجمع زمنا بين العمل المجمعى والعمل السياسى ، وكم كان الهون شاسعا والفرق كبيرا . وكنت أجد في الجلسات الجمعية ما يروح عن النفس ، ويعود بها الى القيم الحققة والمبادئ الصحيحة . ومن حسن حظ الجمعيين أنهم سموا برسالتهم عن التعصب والحزبية ، ولم يخلطوها بالميل والتيارات السياسية .

وراعنى منهم الحرص والدأب ، برغم الشيخوخة وتقدم السن ، وربما كان الشيوخ أشد حرصا وأكثر مواظبة ممن هم دونهم سنا . سعدوا بالمجمع وسعد المجمع بهم ، فأعطوا فى سخاء ، وأسهموا فى خير ما مطمع أو مغنم ، لا يقعدون عن عملهم إلا لعذر طارئ أو مرض قاهر . وهم أسمي-

من أن يحاسبوا على حضور أو غياب ، لأنهم بجهودهم متبرعون ، وفي عملهم عبادة مخلصون . ولقد ساءهم يوما أن خطر ببال بعض أجهزة الرقابة العليا أن تطبق عليهم نظام الحضور والغياب ولست في حاجة أن أقول إن هذه الفكرة ماتت في حينها ، وأصبحت في خبر كان .

يؤمنون إيماناً جازماً بأن الحقيقة بنت البحث ، وأن من عرف حجة على من لم يعرف . أخذوا أنفسهم بالتأني والرويّة ، لا يتعجلون في قرار ، ولا يترددون في أن يعاودوا النظر إن دعا الأمر . لا يقنعون بخبرتهم الخاصة ، بل يستعينون ما استطاعوا بالخبراء المتخصصين . ولا يعرض موضوع على مجلسهم إلا بعد أن يستوفي بحثاً في لجان خاصة ، وقد تعددت هذه اللجان وتنوعت ، بحيث وصلت إلى درجة عالية من التخصص الدقيق .

والعمل الجماعي بطيء الخطأ وطويل النفس ، فيه تحليل وتعليل ، ولا يخلو من مناقضة ومناقشة ويتطلب صبراً وجلداً ، ومتابعة ومثابرة ، ولا يقوى عليه إلا أولوا العزم من شيوخ عركهم الدهر ، وصقلتهم التجربة . وقد يبقى الموضوع الواحد في اللجنة المختصة أسابيع وشهوراً قبل أن تقول فيه كلمتها الأخيرة ، ولا سبيل لأن تستعجل القرارات مادام الاعتراض قائماً ، ومادامت الحجة غير مقبولة . ولأمر ما كان الخالدون في أغلبهم من الشيوخ والمسنين الذين يحرصون على أن يقولوا خيراً ، وإلا التزموا بالصمت والحكمة .

عشت معهم في جو الكلمة الحلوة ، والتعبير الدقيق . وفي وسع المرء أن يقول كل ما يريد إن أحسن الأداء ، وأحكم التصوير . ومن أولى بهذا من المجمعين الذين من دأبهم أن يزنوا الكلم وأن يتفادوا مواطن الظنون والريب . ومن ذا الذي يعيش مع مجمعي مثل لطفي السيد أو عبد الحميد بدوي ، ولا يروى قبل أن ينطق ، ولا يتخير لفظه قبل أن يتكلم ، وعثرات اللسان قد تكون أقسى من عثرات السنان .

• • •

لست في حاجة أن أشير إلى أن درس المجمعين جاد ، وأن بحثهم عميق — واستشرت لديهم مبادئها شأنها ، فهم يرون أن اللغة ظاهرة اجتماعية تسير بسير الزمن ، وتتطور بتطور المجتمع وهي ملك لأهلها ، وفي وسعهم أن يغذوها بغذاء لا ينقطع . واستطاعوا أن ييسروا العربية في ألفاظها وتراكيبها ، في كتابتها وإملائها . وبرهنوا على أنها في مرونتها واستقامتها ليست أقل كفاية من اللغات الحية الكبرى في مواجهة متطلبات العلم والحضارة ، واجهت ذلك في الماضي البعيد

ولا تزال أهلا لمواجهة اليوم . وللمجمعين في ذلك توصيات وقرارات تملأ صحفهم ومحاصر  
جلساتهم ، ويضيفون إليها جديدا كل عام ، ويقبل عليها الباحثون والدارسون ، ويفيدون منها  
ما استطاعوا .

ولست هنا بصدد عرض هذه القرارات وتفصيل القول فيها ، ولها مظانها الخاصة بها . وكل  
ما قصدت إليه أن أسجل شيئا من آيات الوفاء نحو زملاء قطعت معهم رحلة طويلة . فجمعت  
الكلمات التي أسهمت بها في استقبال من استقبلتهم ، وفي توديع من ودعهم . وقسمتها إلى بابين  
ينصب أحدهما على الاستقبال ، والآخر على التوديع . وصدرت هذين البابين بباب أول يدور  
حول المجامع اللغوية بوجه عام ، والمجامع العربية بوجه خاص . وآمل أن أكون قد أديت بعض  
الواجب نحو من لحقوا برهبهم ، ونحو من لا أزال أحظى بزمالتهم ، وليس ثمة مناسبة أولى بهذا  
التسجيل من العيد الخمسيني لمجمع الخالدين :





الباب الأول  
—  
المجامع اللغوية



# البَابُ الْأَوَّلُ

## المجامع اللغوية



## الفصل الأول

### ١ - الجامعات في خدمة اللغة

الجامع الأدبية والعلمية قديمة قدم الحضارة والثقافة ، عرفت في التاريخ القديم والمتوسط ، ونمت نموا ملحوظاً في التاريخ الحديث . ففي التاريخ القديم يمكن أن نشير إلى مدرسة هيلوبوليس ، وأكاديمية أفلاطون ومدرسة الإسكندرية . وفي التاريخ المتوسط ظهرت هيئات علمية متعددة شرقاً وغرباً ، نذكر من بينها في الشرق مدارس الرها ، وحران ، ونصيبين ، ومكة ، والمدينة ، والبصرة ، والكوفة ، وبغداد ، ودمشق ، والقاهرة . وفي الغرب القبروان ، وفاس ، وقرطبة ، وأشبيلية ، وجامعات باريس ، وكولوني ، وأكسفورد ، وكبرج : وفي القرن الثالث عشر تنافست مدن إيطاليا الكبرى في إقامة الأكاديميات والمعاهد العلمية . ثم جاء عصر النهضة فدفع هذا الحركات الفكرية دفعة قوية ، واطرد سيرها في التاريخ الحديث ، فتعددت الأكاديميات والجامعات ، وتنوعت ، وتبодلت بحوثها ومؤلفاتها ، وتردد بينها كبار العلماء .

ولكن الجامعات اللغوية بمعناها الدقيق من صنع التاريخ الحديث ، عرفت لأول مرة في فرنسا ، فظهرت الأكاديمية الفرنسية في أوائل الثلث الثاني من القرن السابع عشر ، وهي دون نزاع أقدم الجامعات اللغوية المعاصرة ، وأنشئت على غرارها أكاديميات وجمعيات علمية مختلفة . وأخصها « الجمعية العلمية الملكية » بإنجلترا التي ظهرت بعدها بنحو ربع قرن ، وتلتها الأكاديميتان الألمانية والروسية ، وإن غلب عليها الطابع العلمي . وفي القرن العشرين تأثر بها العالم العربي تأثراً واضحاً ، فظهرت فيه على التوالي مجامع لغوية أربعة : هي مجمع دمشق (١٩١٩) ومجمع القاهرة (١٩٣٢) ، ومجمع بغداد (١٩٤٧) ، وأخيراً المجمع الأردني (١٩٧٦) .

#### (١) اللغة بين الماضي والحاضر :

وحياة كل لغة في أمرين هامين : ماضٍ له احترامه وقداسته ، وحاضر له حاجاته ومتطلباته : وإذا وقفت اللغة عند الماضي وحده ، كتب عليها الجمود والركود : وإذا شغلت بالحاضر فقط ، فقدت أخص خصائصها من اطراد واستقرار ، وأصبحت لايدة الهوى والصدفة ، وأدت إلى كثير من البلبلة . واللغات الحية هي تلك التي تعتد بالماضي والحاضر معاً ، فتباهى بتراثها ، وتحرص في الوقت نفسه على أن تنميه وتغذيه : تتمتع بالجمود ، وتأتي الطفرة ، وتسلك سبل التجديد كلما دعت إليه حاجة ، دون إفراط أو تفريط .

وتكاد تتلخص رسالة الجامعات اللغوية في الملاءمة بين هذين الجانبين ، والتوفيق بين هذين الطرفين . فتستأق " من الماضي أساسه وأنفسه ، وتتقبل من الحاضر أدق وأحكمه ، ولا بد لها أن تأم بالثروة اللغوية

إماماً دقيقاً ، وتقف على تفاصيلها . وتكشف عما خفي من كنوزها . ولا بد لها أيضاً أن تتابع التطور الحضارى والثقافى ، فتسد حاجته وتواجه متطلباته . ولا سبيل لها أن تعيش بمعزل عن عصرها وببشائها ، وإلا فقدت وظيفتها ، ولم تؤد رسالتها :

وماضى اللغة تراث أدبى من نثر ونظم ، وتراث فكرى من علم ودين وفلسفة . وعلى المحامع أن ترعى هذا التراث وتعهده ، فتوجه النظر إليه ، وتدعو إلى إحيائه . والمهم أن تستخلص منه ما يلائم الحاضر ويتمشى معه ، وعبدًا تحاول إن شاءت أن تحيى الألفاظ الغريبة والمهجورة . وانقضى الزمن الذى كانت تقصر فيه مادة اللغة على المعجمات ، وأصبحنا نؤمن بأنه لا بد لنا أن نتلمس هذه المادة فى كتب الأدب والتاريخ ، والعلم والفلسفة ، وهذه فى الواقع هى اللغة الحية المعبرة . وفى الماضى اللغوى عصور ضعف وعصور قوة ، عصور ازدهار وعصور ركود . وقد طال الحديث قديماً حول عصر الاحتجاج ، أنضيقة أو توسعه ؟ أنقف به عند القرنين الثانى والثالث للهجرة أو تجاوزهما ؟ ولعل من الخير أن لا نقف اليوم عند هذا الخلاف طويلاً ، لأن فى العصور المتأخرة درزاً قد لا تقل عما نراه فى العصور المتقدمة . وبدا يسرنا وسائل الاستشهاد ، وأفسحنا مجال الاقتباس :

وحاضر اللغة ما تعيش فيه من مستحدثات العمران والمدنية ، ومبتكرات العلم والتكنولوجيا ، وما تواجهه من مشاكل الفرد والمجتمع ، وما تضطلع به من أعباء الحرب والسلام ، وما تعبر عنه من شئون المال والسياسة . وحاضر اللغة فى اختصار هو المجتمع فى شتى مظاهره ، وقد عدت بحق ظاهرة اجتماعية ، تسير بسير المجتمع ، وتقف بوقوفه ، وتخضع لقوانين التطور . وتمتاز العربية - بين اللغات العالمية الكبرى - بأنها فى آن واحد قديمة وحديثة . عاصرت من اللغات القديمة اليونانية واللاتينية غرباً ، والسنسكريتية والبهلوية شرقاً ، وعمرت إلى اليوم . وبمرونتها واشتقاقها استطاعت أن تيسر فى الماضى حاجة الحضارة الإسلامية الكبرى ، وما هى ذى اليوم تؤدى وظيفتها لمواجهة متطلبات النهضة العربية الحديثة . وفى حاضرها ما يملأنا ثقة بأنفسنا ، وما يشعزنا بأننا نملك حراً لغتنا ونستطيع أن نتصرف فيها ، كما كان يملكها قديماً أبناء العروبة فى الجاهلية والإسلام ، ويستخدموننا على حسب ما تقضى به حياتهم وظروفهم . وفى وسعنا اليوم أن نضع ألفاظاً جديدة أو نعترب ما تدعو إليه الحاجة من لفظ أجنبي ، وأن نقر ما نستسيغه من أسلوب مبتكر :

#### (ب) العمل المحمى :

والعمل المحمى - كما أشرت - شاق ودقيق ، طويل النفس ويتطلب قسطاً غير قليل من الصبر والجلد . والمحميون ، كغيرهم ، يعيشون بين تيارين متقابلين : تيار محافظ ، وآخر مجدد ، ويكاد حوارهم ونقاشهم يدور حول هذين الاتجاهين . وفى هذا التقابل ما يضمن الاتزان الضرورى لسير محكم متين . وقد تقدر الغلبة لأنصار القديم ، ولكن الزمن فى سيرة يفرض سلطانه على أشد الناس

محافظة : ولعل فكرة المجامع اللغوية ألصقت بالماضي منها بالحاضر ، وأقرب إلى القرن السابع عشر منها إلى القرن العشرين . ولكن قوماً يؤمنون بانختم ويعتزون بها لا يرضون لها الحدود والركود ، ويحرصون دائماً على استعادة مجدها وازدهارها . وفي تاريخ المجامع اللغوية المعاصرة ما يثبت تطورها ، ويبرهن على تلاقى المحافظين والمجددين غالباً على كلمة سواء .

ومن الخطأ أن يظن أن المجامع تستأثر وحدها بخدمة اللغة ، ذلك لأن لكل لغة حياة أطول وأعرض وأقوى وأنشط مما يجري في نطاق مجمع علمي أو لغوي . لها حياتها في البيت والمدرسة ، في الحقل والمصنع ، في السوق والمتجر ، في المكتب والديوان ، في الصحف والمجلات ، في المسرح والسينما . وهنا تحيا وتتطور ، تخلق وتبتكر ، تسير مع الزمن ، وتحاول أن تسد حاجات العصر ومتطلبات الحضارة . وعلى المجامع اللغوية أن تتابع هذا السير وترقب خطاه ، فتلاحظ وتسجل وتقر ما استقام من الألفاظ والتراكيب ، وترفض ما اعوج : توحى ولا تأمر ، توصي ولا تلزم ، ولوحيا أثره ، ولتوجيهها فعله . وربما ود بعض الجمعيين أن يكون من حقهم أن يحرموا ويحللوا ، أن يأمروا وينهوا ، أن يمنحوا في اختصار سلطة فعالة ، وأن تكون قراراتهم ملزمة . إلا أن هذه الوضاية اللغوية كانت ممقوتة منذ قيام المجمع الفرنسي في القرن السابع عشر ، وإذا كان لم يؤخذ بها بالأمس ، فلا محل للتفكير فيها اليوم :

### (ج) مهمة المجامع اللغوية :

١- تكاد تدور مهمتها حول الأبواب الآتية :

- ١- تيسير اللغة متنا وقواعد وكتابة ورسم حروف .
- ٢- تهذيب المعجم اللغوي وصياغته صياغة جديدة في ضوء المنهج العلمي الحديث للتأليف المعجمي :
- ٣- إمداد لغة العلم والحضارة بما تحتاج إليه من مصطلحات وألفاظ .
- ٤- وضع معجمات متخصصة في شتى العلوم والفنون .
- ٥- تشجيع الإنتاج الأدبي :
- ٦- إحياء التراث اللغوي والأدبي :

ولكل مجمع أن يخدم لغته على النحو الذي يترأى له ، فيحيي تراثها ويشيد بأمجادها ، أو يعنى بحاضرها ، ويتتبع مافيه من نتاج أدبي ، ناقدًا له وحافزا عليه . وقد يتجه نحو متنها ومفرداتها ، فينقب عن معاجمها القديمة ، أو ينشئ معاجم جديدة بلغة العصر وروحه . وقد يشغل بالنحو ، الصرف أو بالبيان والبلاغة ، فييسر أمرها ، ويهذب قواعدها ، ويلأثم بينها وبين سنن النشوء والارتقاء ولا تفوته مشكلة الكتابة والإملاء ، فيحاول أن يقلل من صعابهما ، وأن يسلك بهما سبلا أقرب إلى الفهم وأيسر في الاستعمال . ومن المجامع اللغوية ما يضطلع بهذا جميعه ، ويعالجه على نحو أو آخر ، فيفتح على الناس أبوابا في البحث ، ويثير أمورا للدراسة .

( د ) المجمع الموحد :

والأصل أن يكون لكل لغة مجمع واحد يلم الشعب ، ويقرب اللهجات . وقد لوحظ هذا مجمع القاهرة عند إنشائه ، فقامت فكرته منذ البداية على أساس موضوعي ، وأريد به أن يكون مجمع اللغة لا مجمع فريق من الناطقين بها ، واستبعدت منه ، على عكس الأكاديمية الفرنسية ، فكرة السيادة والجنسية . ومثل فيه العرب والمستعربون بقدر ما مثل المصريون . ولكن هذا لم يمنع من قيام مجامع لغوية عربية أخرى ، وانتهى بها الأمر أن أصبحت اليوم أربعة ، ومن يدرى فقد تضاف إليها مجامع أخرى . واقترح يوما على وزراء المعارف العرب إنشاء مجمع لغوي عربي موحد يحل محل المجامع الإقليمية ، وفي ظروف الوحدة بين سوريا ومصر ضم مجمع دمشق إلى مجمع القاهرة تحت عنوان المجمع الموحد ، وكان توحيدا أقرب إلى السياسة منه إلى الناحية الموضوعية والهدف العلمي . وإذا لم يكن بلد من تددت المجامع اللغوية ، فلا أقل من تكوين اتحاد لها ينسق بينها ، وقد أخذ بهذا منذ بضع سنوات .

وسنحاول فيما يلي إعطاء فكرة عن بعض المجامع اللغوية المعاصرة ، وهي :  
الأكاديمية الفرنسية ، ومجمع دمشق ، ومجمع القاهرة ، ومجمع بغداد ، ومجمع عمان ، ونحتم بكلمة عن اتحاد المجامع .

---

## الفصل الثاني

### ٢ - الأكاديمية الفرنسية

أقدم المحامع اللغوية المعاصرة ، وأرسخها قدما ، وأثبتها تقاليد ، وعنها أخذت انجماع اللاحقة . دعت إليها الحاجة ، وأذنت بها نهضة أدبية ولغوية . نبتت فكرتها لدى فريق من الكتاب والأدباء في أوائل القرن السابع عشر ، رأوا أن يلتقوا فيما بينهم ليتدارسوا في شئون أدبهم ولغتهم ، فكانوا يعقدون جلسة كل أسبوع يستعرضون فيها مقالا أو مؤلفا لأحدهم ، ويتناولونه بالنقد والتحليل ويظهر أنهم كانوا يوثرون الحرية والاستقلال في جو لم يخل من الرقابة والتجسس ، فأحاطوا عملهم باستطاعوا بالكتمان ، ومضوا في ذلك نحو ثلاثين عاما . وهذه هي النواة الأولى لفكرة الأكاديمية الفرنسية ، وهي نواة حرة وشبه سرية . ولكن لم تلبث أن عرف أمرها ، وأحس بها ريشيليو الأديب والسياسي ، وحرص على أن يتبناها طمعا في مجد أو زيادة في سلطان .

#### ( ١ ) تكوينها الرسمي :

اتصل ريشيليو بهذه الجماعة عام ١٦٣٤ ، وشملها برعايته ، وفي عام ١٦٣٥ استصدر أمرا ملكيا بإنشاء ماسماه « الأكاديمية الفرنسية » . واعتز بها كل الاعتزاز ، وعدها من أجل آثاره ، ولعله كان يأمل أن يختار لعضويتها ، وإن تظاهر بإعراضه عن ذلك . وبقي يؤيدها ويرعاها طوال حياته ، وسمى « السيد حامى الأكاديمية » وكثيرا ماتدخل في شئونها ، فبارك انتخاب أعضاء ، واعترض طريق آخرين . ويظهر أنه كان لا يرضى عن كورنى ، ودعا الأكاديميين إلى أن ينقدوا « سيد » ، وهي إحدى روائعه ، ولم يأبه رأى العام ينقدهم ، قالوا على أنفسهم بعد هذا ألا ينقدوا مؤلفا إلا بناء على طلب صاحبه ، والتزموا بالألا ينشروا نقدهم إلا بعد مضي ستة أشهر من إنجازه . وإذا كان كورنى لم يدخل الأكاديمية في حياة السيد حاميا ، فإنه فاز بعضويتها بعد موته .

ويوم أن صدر الأمر الملكى بإنشاء الأكاديمية ، أخذ أعضاؤها في وضع لائحتها ، وقضوا في ذلك عاما كاملا ، وجاءت في خمسين مادة ، ولم يطرأ عليها تعديل يذكر فيما بعد . ومع هذا لم يقرها البرلمان إلا بعد عامين ، وكأنما كان يخشى على نفوذه من تلك الجمعية الأدبية الشابة التي كان يرعاها الوزير الأول . وسارت الأكاديمية الهوينى نحو ثلاثين عاما - بعد تكوينها - إلى أن بسط لها لويس الرابع عشر يده ، فتنبأها ، ودفعها دفعة قوية . ولم يكن لها مقر معروف ، فمنحها جناحا خاصا في « اللوفر » ، وهو « الكرياتيد » الذى أصبح مقرها الدائم ، ولم تبرحه إلا يوم أن انتزعه الثورة الفرنسية ، وصادرت أملاكها كلها . ثم استعادته ثانية ، واستقرت فيه إلى اليوم .

فقد بر شئونها وتعقد جلساتها في الساعة الثالثة بعد ظهر الخميس من كل أسبوع : وانتفعت أيضا بقصر « شانتني » الذي وقف في أخريات القرن الماضي على أعضاء مجالس الآداب والعلوم والفنون وأرصدت باسمها مبالغ تمنح منها كل عام جوائز لطوائف شتى من الفرنسيين . وحظيت بعصر ذهبي في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، وأصبحت مطمح آمال كبار الساسة والأدباء ولا تزال حتى اليوم دعامة من دعائم الحياة الأدبية والفكرية في فرنسا ، توفر لها جلال الماضي ومجد الحاضر ، تقاليدها أوضح من أن تناقش ، واستقلالها أسمى من أن يمس .

### (ب) أعضاؤها :

بدأت باثني عشر عضوا ، ثم صدر قانونها فرفعهم إلى أربعين ، وأصبح هذا الرقم مقدسا لا يزيد ولا ينقص ، وسما بأصحابه إلى مرتبة الخلود . ولم ينص على طريقة ثابتة لاختيارهم ، وترك الأمر لتقدير الأكاديميين أنفسهم واختاروا في البداية زميلا لهم أبي أن ينضم إليهم ، وهو « أرنو » أحد « بورر ويال » ، فعز الأمر عليهم ، وقرروا ألا يرشحوا احدا إلا بناء على طلبه . وأصبحت انتخابات الأكاديمية من الأحداث الأدبية الهامة يقدم الراغب طلبه ، ويسعى لدى الأعضاء جميعا ، وقد يستعين بذوى النفوذ والسلطان . وكان للأندية الأدبية والنسائية خاصة ، شأن في ذلك ، حتى قيل : « إن الأكاديمية وليدة أندية السيدات » . ومع هذا كم بقيت بها مقاعد شاغرة ، وكم أعيد انتخاب بعض الطالبين ، ولم يترددوا في أن يتقدموا للتصويت غير مرة ، و« كورني » نفسه لم يحظ بالعضوية إلا في المرة الثالثة . ومضى مرّ عضو « تحت القبة » احتفظ بعضويته إلى النهاية ، ولم يستقل من أعضاء الأكاديمية إلا واحد طوال القرون الماضية ، ولم يفصل إلا ثلاثة لمسلكتهم الشائن . وكان الفوج الأول من الأكاديميين إلى الشباب أقرب ، ومتوسط أعمارهم أدنى مما انتهوا إليه اليوم .

وقد قصرت العضوية على الفرنسيين ، ولم يؤخذ بنظام العضو المراسل . ولم تقف الأكاديمية عند الأدباء واللغويين ، بل انضم إليها العسكريون والسياسيون ، والعلماء والفنيون ، ولرجال الدين فيها نصيب ملحوظ . حظيت بعدد غير قليل من الأعلام ، وإن فاتها بعض من هو بها جدير ، أو أصاب الاقتراع بعض من لا يسمو إلى مستواها . ففي القرن السابع عشر انضم إليها مثلا : راسين ، وكورني ، ولافونتين ، وبلزاك ، ولم يجد مولير سبيله إليها ، مما دفع الأكاديميين أن يقيموا له نصبا كتب عليه « لم ينقص مجده في شيء وإنما نقص مجدنا » . وفي القرن الثامن عشر كان من بين أعضائها فولتير ، ومونتسكيو ، وكوندياك ، وفاتها روسو . وفي القرن التاسع عشر حظيت بلامارتين ، وفيكتور هوجو ، وكلود برنار . وفي القرن العشرين انضم إليها موريالك وفاليري ، وهانوتو ، ولم يبل عضويتها أندريه جيد . ولعل في هذا ما أثار حولها بعض السخط ، فوضعت ملهاة للهكم بها ، ورمى الأكاديميون بأنهم « واضعو ألفاظ ووزانو مقاطع » ، أو أنهم

«جماعة هازلة تحاول أن تظهر بمظهر الجدة». وأبى شاعر فرنسي إلا أن يكتب على قبره : « هنا يرقد من لم يكن شيئا ، ولا عضوا في الأكاديمية ». ولأمر ما لم يحضر كليمنصو ، رغم انتخابه ، جلسة من جلسات الأكاديمية .

وينتخب الأكاديميون ، نيسهم لمدة عام ، ولهم أن يجددوا انتخابه ماشاءوا . أما السكرتير فينتخب مرة لمدى الحياة ، وقد حظيت الأكاديمية بسكرتارين خالدين ، أمثال ميرانو ، دلبير . وانشئت منذ عام ١٦٤٠ حفل الاستقبال المشهور الذى يعقد فى صورة جلسة علنية تلقى فيها خطبتان : إحداهما لزميل قديم يستقبل بها زميله الجديد ، والأخرى للعضو الجديد يتحدث فيها عن سلفه الذى حل محله . وتعد هذه الخطب من الآثار الأدبية الخالدة ، ومن أشهرها خطاب لابروبير وبوفون . والأكاديمية حرة فى اختيار أعضائها ، ولايسع الحكومة إلا أن تقر ما انتهت إليه .

ولم يستطع لويس الرابع عشر ، على جلاله وعظمته ، أن يعارض فى انتخاب لافونتين ، وكل ما حدث أنه أخر قليلا إمضاء قراره . وجرت العادة أن يقدم رئيس الأكاديمية وسكرتيرها العضو الجديد إلى رئيس الدولة ، ومنهم من امتنع عن ذلك ، كما صنع شاتوبريان الذى رفض أن يلتقى نابليون . ولم تتدخل الحكومة فى اختيار أعضاء الأكاديمية إلا مرة واحدة ، وفى عهد الثورة الفرنسية ، ففصلت منهم أحد عشر ، وعينت تسعة . ومكافأة الأكاديميين — فيما عدا السكرتير — رمزية ، وفى هذا ما عزز استقلالهم ، وحماهم من الخضوع والتبعية .

### (ج) أهدافها :

لم يحدد القانون فى وضوح رسالة الأكاديمية ، واكتفى بأن أشار إلى أنها تعنى « ببجعل اللغة رشيقة وافية بأغراض العلوم والفنون » ، ولم تزد اللائحة على ذلك كثيرا ، وإن رسمت بعض وسائل التنفيذ ، ولعل هذا هو الذى دفع فينلون فى أوائل القرن الثامن عشر أن يضع «خطاب الأكاديمية الفرنسية» الذى حدد فيه أهدافها وتتلخص فى : (١) إعداد معجم شامل (٢) وضع أجرومية فرنسية (٣) درس أصول البلاغة والبيان (٤) جمع قواعد العروض وأوزان الشعر (٥) معالجة الإملاء ورسم الحروف .

ولم تعالج الأكاديمية الفرنسية شيئا فى العروض وأوزان الشعر ، ولم تعرض مطلقا للبيان والبلاغة واكتفت فى الإملاء بما ذهب إليه أجد أعضائها من تعديل كتابة بعض الكلمات على حسب نطقها دون استصحاب للأصل اليونانى أو اللاتينى . وكأنها رأت أن هذه الأمور لاتعنيها كثيرا ، لأنها أساسا عمل مدرسى ، والأولى أن يترك شأنها للناس يتصرفون فيها كما يشاءون . أما النحو فظهر لها فيه كتاب « الأجرومية الفرنسية » ، وهو أقرب إلى المحافظة منه إلى التجديد .

وعملها المجمعى الحق هو «معجمها» ، بدأت فيه عام ١٦٣٤ ، ولم تفرغ منه إلا عام ١٦٩٤ . وخوفا من تلاعب النساخ والمحريين ، واتقاء لإخراج أجزاء منه بغير اسم الأكاديمية ، استصدرت قبل ظهوره بعشر سنوات ، أمرا ملكيا بأن لا يطبع معجم آخر سواه . وقد حاولت أن تستوعب فيه ألفاظ اللغة وتعبيراتها المشهورة ، مع البعد عن الغريب وغير المألوف . وتركت المصطلحات العلمية جانبا ، ولم تعرض من الأعلام التاريخية والجغرافية ، إلا لما يرتبط بعبارة مشهورة : فجاء معجما لغويا خالصا ، وقفت به عند حدود ضيقة . ويظهر أنه لم يفهم في البداية على وجهه ، ولم يستين منهجه ، وخلط بالمعاجم المعاصرة . وما إن عرف حتى أقبل عليه القراء ، وأعيد طبعه أربع مرات في القرن الثامن عشر ، وفي الطبعة الرابعة فقط أخذ بقدر من المصطلحات العلمية والفنية ، لأنها جزء من الحياة العامة . وفي الطبعة الخامسة بلغ عددها ٢٠٠٠ مصطلح ، وهي في زيادة مطردة ، وفي القرن التاسع عشر أعيد طبع المعجم مرتين ، وفي عام ١٩٣٢ - ١٩٣٥ ظهرت الطبعة الثامنة - ولم تغير الأكاديمية رأيها في الأعلام ، ولم تجار الاتجاه الموسوعي الذي اتسمت به معاجم القرنين التاسع عشر والعشرين . وفي الأكاديمية جهاز دائم ولجنة خاصة تتابع العمل في هذا المعجم بانتظام .

وللأكاديمية نشاط بارز في جانبين آخرين : أولهما حفلات الاستقبال التي تعد من الأحداث الأدبية ، وفي خطبها درس وبحث ، وأدب وبلاغة . وثانيها ما توزعه من عشرات الجوائز كل عام ، وليست مقصورة على الأدب واللغة ، بل امتدت الى النواحي الاجتماعية ، كالتشجيع على الفضيلة ، ومواساة الأسر البائسة . ولم يكن غريبا أن يقال عنها في عيدها السنوى الثالث أنها « مؤسسة اجتماعية بقدر ما هي هيئة أدبية لغوية » .

\* \* \*

هذه هي الأكاديمية الفرنسية ، وقد حظيت بمنزلة لم يحظ بها كثير من الهيئات الأدبية والعلمية محمت الفرنسية من التدهور والابتذال ، وعدت محكمة الأدب العليا فأكسبته حرمة وقدسية ، وسمت بالأدب الفرنسى إلى مستوى الآداب العالمية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولكنها رُميت بالبطء والحمود والمحافظة ، وقد أهداها كولبير ساعة كبيرة محل تندر وفكاهة ، فعدت تنبها للأكاديمية إلى حث الخطأ وسرعة الإنجاز . وعيب عليها أيضا نزعتها نحو أرسقراطية فكرية وأدبية تسمو على المجتمع ولا تعد بمطالباته وحاجاته العاجلة . غير أن الزمن لم يلبث أن فرض عليها سلطانه ، وبدأت بعد الحربين العالميتين الأخيرتين أقرب إلى التجديد والتطور . وأخذ عليها أخيرا قلة إنتاجها في عمرها الطويل ، ولا يشك في أن قيام هيئات أدبية وعلمية فرنسية متلاحقة قد حمل منها بعض أعبائها ،

## الفصل الثالث

### ٣ - مجمع دمشق

يحق لهذا المجمع أن يباهى بأنه أبو الجامعات العربية المعاصرة ، ولد عام ١٩١٩ ، وسار على الدرب يشق الطريق ، ويدلل الصعاب ، شأن كل كائن في بدء نشأته ، حقا إن فكرة المجمع اللغوية عرفت بمصر في عهد سابق ، وظهر فيها « مجمع البكري » في أخريات القرن الماضي ، وقلاه مجمع دار الكتب عام ١٩١٦ ، ولكن هذين المجمعين لم تقدر لهما حياة طويلة ، وماتا في مهدهما تقريبا . وقد دعت إلى مجمع دمشق ظروف قاهرة ومحنة ألمت بالعربية إبان الحكم العثماني الذي عمر طويلا . فقصر تعليم العربية في الشام على خاصة الخاصة ، وفي مقدمتهم رجال الدين من المسلمين واكتفى فيها بقدر ضئيل من قواعد النحو والصرف . وزاحمتها اللغتان التركية والفارسية ، وقامت أعمال الدواوين أساسا على التركية ، وقل من يحسن العربية قراءة وكتابة بين موظفي الدولة . وسرت ألفاظ تركية كثيرة إلى الدارجة ، ولا تزال تحتفظ بقدر منها . وما إن استقلت البلاد حتى أخذت تسلك سبل نهضتها ، وتحجى معالم قوميتها ، وفي مقدمتها تعلم العربية ونشرها . وأعان على ذلك جماعة من القادة والمصلحين الذين أتيحت لهم فرصة التمكن من الثقافة العربية وعلومها في مصر وفي الجامعة الأميركية والكلية اليسوعية ببيروت . وسنقف قليلا عند نشأة هذا المجمع وتكوينه ، ثم ننتقل إلى رسالته وإنجازاته .

#### (١) نشأته وتكوينه :

لم ينشأ مجمع دمشق دفعة واحدة ، بل مهدت له « لجنة الترجمة والتأليف » التي تأسست عام ١٩١٨ ، ثم « ديوان المعارف » الذي أنشئ في بدء العام التالي ، ولم يلبث هذا الديوان أن حوّل إلى مجمع علمي في يونيو عام ١٩١٩ . وقد تكون هذا المجمع في البداية من ثمانية أعضاء فقط ، ثم نما على مر الزمن ، وارتفع عدد أعضائه إلى العشرين . وتوالى على عضويته العاملة حتى اليوم ما يزيد على ٦٠ عضوا ، وإلى جانبهم نحو ٢٠٠ عضو من المراسلين . ونكتفي بأن نشير من بينهم إلى بعض من لقوا ربهم من الأعضاء العاملين ، وفي مقدمتهم كرد علي (١٩٥٣) المؤسس الأول وعبد القادر المغربي (١٩٥٦) الذي كان من مؤسسي مجمع دمشق والقاهرة ، وخليل مردم (١٩٥٩) الرئيس الثاني لمجمع دمشق ، وعز الدين التنوخي (١٩٦٦) نائب الرئيس ، والأمير مصطفى الشهابي (١٩٦٨) الرئيس الثالث ، تغمدهم الله جميعا برحمته ، وجزاهم خير الجزاء عما قدموا لأمتهم ولغتهم .

عقد مجمع دمشق أولى جلساته في قصر الحكومة بساحة المرجة ، ثم انتقل إلى المدرسة العادلية الكبرى بعد إنشائه بشهرين ، ولم يبرحها حتى اليوم ، وبنيت له أخيراً دار حديثة خاصة . وفي بدء حياته حرص على أن يعقد جلستين كل أسبوع ، ولم يلبث هذا النشاط أن اعترضته بعض المعوقات ، فصرف خمسة من الأعضاء عن عملهم ، لضائقة مالية فيما قيل ، ولما مضى على قيام المجمع عام كامل : ثم ردوا ثانية ، وعاد النشاط مرة أخرى في أواخر عام ١٩٢١ . ولم يسلم مجمع دمشق من الحملات البرلمانية ، ولعل أعنفها تلك التي أثارها مجلس النواب السوري ، وطالب فيها بإلغاء المجمع العلمي ، واستطاع فارس الخوري بحججه الدامغة أن يدفع هذا العدوان . وفي عام ١٩٦٠ أريد بمجمعي دمشق والقاهرة أن يكونا فرعين لمجمع موحد ، ونحن من أعضاء هذا التوحيد باسم اللغة وحماتها ونشرها ، ولئن كانت السياسة قد فصلتهما ، فلنا نأمل أن يجي يوم نرى فيه المجمع اللغوية العربية كلها مجتمعة في صعيد واحد ، ولو مرة كل عام .

#### (ب) رسالته وإنجازاته :

حددت رسالة مجمع دمشق على النحو التالي :

١ - النظر في اللغة العربية وأوضاعها العصرية ، ونشر آدابها وإحياء مخطوطاتها ، وتعريب ما ينقصها من كتب العلوم والصناعات والفنون عن اللغات الأوربية ، وتأليف ما يحتاج إليه من الكتب المختلفة المواضيع على نمط جديد .

٢ - جمع الكتب المخطوطة والمطبوعة ، وتأسيس دار كتب عامة .

٣ - جمع الآثار القديمة العربية وغير العربية وتأسيس متحف لها .

٤ - إصدار مجلة خاصة بالمجمع ينشر فيها أفكاره وأعماله ، وتربطه بالمؤسسات المساهلة .  
رسالة واسعة الأطراف ، متعددة الجوانب ، ولعلها جاءت على هذا النحو ، لأن المجمع كان الوريث الوحيد لديوان المعارف ، ولا أدل على هذا من أن قدرا من هذه الأعباء قد رفع فيما بعد عن كاهل المجمع ، وسنعرض لكل واحد منها في اختصار .

١ - قد سلك مجمع دمشق في خدمة اللغة مسلكا لم تجاره فيه كثير من المجمع اللغوية الأخرى ، فحاول إصلاح لغة الدراوين التي كانت قد طغت عليها التركية ، وطلب إلى دوائر الحكومة أن تقفه على ما يحتاج إليه من ألفاظ وعبارات ، وأرسلت إليه قوائم شتى حرص على مراجعتها مع مندوب الدائرة المختصة ، فعدل ألفاظا ومصطلحات ، وأصلح تعابير واستعمالات ، وطلب إلى رؤساء الدراوين ورجال الصحافة أن يستعملوا مقترحاته ، فيقربوها إلى الناس ، ويزيدوهم بها إلغا . وعنى باللغة ، في معاهد التعليم ، فحاول أن يطورها ، وأن يجعلها ملائمة للعصر وحاجاته إن في المدرسة الثانوية أو في الجامعة ، وراقب لغة الكتب المدرسية ، فلم يكن يسمح بتدريس كتاب إلا إذا وافق عليه ، ووضع مشروع كلية الآداب لنشر اللغة الفصحى والآداب العربية ، ولم

يتردد في أن يسهم في إعداد طلاب هذه الكلية ، بتزويدهم ببعض الدروس التمهيدية في علوم الأدب واللغة .

ورأى تفشى الأغلاط اللغوية والنحوية في الصحف والمطبوعات ، فأراد تداركها ، واستحدث ما سماه « عثرات الأقلام » . وتلك سنة أخرى تذكرنا بما أخذ به بعض اللغويين المعاصرين في النصف الأول من هذا القرن ، أمثال ، أحمد العوامري في القاهرة ، والدكتور مصطفى جواد في بغداد . فكان يجمع الأغلاط الشائعة ، دون ذكر لأسماء من وقعوا فيها ، ثم يحاول تصحيحها بعد تثبيت ومراجعة . وينشر التصحيح في الجرائد المحلية تباعا ، وأفسح المجال للتعليق والرد ، فأثار حركة أدبية ولغوية نافعة . وحرص على أن يسجل تصحيحاته في مجلته ، وتوافر له بذلك نحو ثلاثين مقالة ، فيها درس وبحث ، وتحقيق وتحرير . وقد قادته هذه إلى أن أصبح شبه « دار للفتوى اللغوية » فكانت توجه إليه الأسئلة عن بعض الكلمات الغربية والمصطلحات الفنية ، وما كان يتردد في الإجابة عنها .

ولم يقف في خدمة اللغة والثقافة عند هذا ، بل أبى إلا أن يمتد نشاطه إلى ميادين أخرى . فأعد قاعة للمحاضرات العامة ، دعا إليها الرجال والنساء ، ونظم فيها محاضرات دامت نحو خمسة وعشرين عاما . توقفت حيناً ، ونشطت حيناً آخر . وفي هذه القاعة العامة ألقى بضع مئات من المحاضرات العامة ، اضطلع بها نفر من كبار الباحثين رجالا ونساء ، بين سوريين ، وعرب ومستعربين . فيها أدب ولغة ، أخلاق ودين ، تاريخ وحضارة ، اقتصاد وسياسة ، علم وفلسفة ، وقد نشر قلم كبير منها ، ولا يزال زادا للباحثين والدارسين .

واستن المحم سنة حسنة في تكريم كبار الأدباء والشعراء ، فأقام مهرجانين عظيمين لمرور ألف عام على وفاة المتنبي وأبي العلاء . وقد سارت بهما الأمثال ، وأسهم فيهما عدد غير قليل من الأدباء والشعراء العرب والمستعربين ، ومثلت فيهما البلاد العربية على اختلافها . وإلى جانب هذين المهرجانين الكبيرين أقام عدة حفلات للتأبين أو التكريم ، وكان في تأبينه وتكريمه سمحا لا يتقيد بجنس أو وطن ، بل لعل نصيب غير السوريين منها أعظم من السوريين أنفسهم فأبن طاهر الجزائري ، وأحمد كمال المصري ، ومحمد رشيد رضا ، ومحمود شكرى الألوسى ، ومصطفى لطفى المنفلوطى : وكرم وأبن أحمد بشوقى ، وحافظ إبراهيم ، وكرم الشاعر المصري محمد الطراوى . وامتد هذا التكريم إلى بعض شباب الناشئين من أبناء سوريا ، تشجيعا لهم ، وحثا لغيرهم أن يسيروا على نهجهم ، وقد أصبحوا في مقدمة الشعراء والأدباء ، وأذكر من بينهم زكى المحاسنى وأنور العطار :

٢ - حمل مجمع دمشق رسالة لم يحملها مجمع آخر ، واضطلع بها في صبر وجهد ، ورعاها في حماس ورغبة ، وكأنما أريد به إلى جانب خدمة اللغة ، أن يقوم على نفائس الماضي جميعها

في العلوم والآداب والفنون : فطلب إليه أن يجمع الكتب مخطوطة كانت أو مطبوعة ، وأن يؤسس لها دارا عامة . والكتب الإسلامية ، فباعدا ما يقتنيه الأفراد ، موزعة من قديم بين دور العلم والمساجد والتكايا ، إن في الشام أو في غيرها من البلاد العربية . فكانت معرضة للضياع ، وقد تسرب منها ما تسرب . وفي آخريات القرن الماضي أريد جمعها وتركيزها في مكتبة عامة بالمدرسة الظاهرية ، تحت إشراف لجنة خاصة تابعة لدائرة الأوقاف . وقد غلظت بمكتبات دمشق القرهية وتوافر لها نحو ٢٥٠٠ مجلد :

وما أن أنشئ المجمع العلمي حتى ضمت هذه المكتبة إليه ، وسميت « دار الكتب العربية » محاكاة في الغالب لدار الكتب المصرية ، ووقف عليها بناء الظاهرية . وأخذ المجمع في ترتيب شئونها ، وتزويدها بأنفس المطبوعات والمخطوطات فوضع نظاما لدخولها والاستعارة منها ، وحاول ترتيب كتبها وفهرستها . وبعث البعث شرقا وغربا لجمع الكتب شراء أو استمداء ، وعلى رأسها بعثة إلى القاهرة عام ١٩٢٤ ، وقد عادت ومعها نحو ١٦٠٠ مجلد من الكتب النفيسة واستنسخ أو صور الكتب العربية النادرة من مكتبات أوروبا . وأشرف على دار الكتب نفر من أعضاء المجمع ممن لهم خبرة واسعة في المراجع والكتب العربية . وتولى إدارتها بعض من تخصص في فن المكتبات ، فنهضوا بها نهضة ملحوظة . وأصبحت تشتمل على نحو عشرة آلاف مخطوط وما يزيد على مائة ألف كتاب مطبوع ، وهي دون نزاع مكتبة سوريا الكبرى .

٣ - طلب إلى مجمع دمشق أن يجمع الآثار القديمة ، عربية كانت أو غير عربية ، وأن يفتش لها متحفا خاصا . مهمة ولاشك شاقة ، ولكن المجمع أبى إلا أن يضطلع بها ، وقد بذل في سبيلها ما وسعه ، وجمع لسوريا تراثا يعتد به . وكانت آثار الشام عرضة للسلب والنهب في العهد التركي ، تواردت عليها في النصف الثاني من القرن الماضي بعثات أوربية للحفر والتنقيب فأخذت منها ما أخذت ، ونقل منها للحكام الأتراك إلى الآستانة ما نقلوا . ولم يتنبه إليها إلا في عهد الحكومة العربية ، فأمر بإنشاء متحف لها مقره « العادلية » .

وقد ألحق هذا المتحف بالمجمع العلمي الذي قضى نحو عشرين عاما يرتب أموره ويسهر عليه ، ولم يتردد في أن يستعين ببعض الخبراء ، وكون لجنة لدراسة مشكلة الآثار في سوريا بوجه عام ، وأوفد مدير المتحف الأمير جعفر الحسني أمين المجمع حين ذاك إلى باريس لدراسة نظام المتاحف ، فحمل معه آراء نافعة ، وبعث في المتحف حياة جديدة : وقد جمعت الآثار المبعثرة في أماكن متفرقة ، وبذلت عناية خاصة في حفظها . ونظم أمر الحفر والتنقيب ، وأسهم الانتداب الفرنسي في ذلك بعض الشيء ، وحاول حماية الآثار السورية من السلب والنهب : ولم يلبث المتحف الشاب أن تحول إلى دار آثار زاخرة بمتحفها ونفائسها . وسلم في عام ١٩٣٧ إلى مديرية الآثار العامة ، وأصبح مؤسسة مستقلة ماليا وإداريا :

٤ - ومجلة المجمع من أعماله الخالدة ، بدأ في إخراجها عام ١٩٢١ ، ثم استمر يتعهد بها ويسهر عليها حتى الآن ، توقفت عن الظهور مرتين ، ولكنها استطاعت أن تستعيد نشاطها وقوتها. أريد بها في البداية أن تكون شهرية ، ثم أخرجت كل شهرين ، وأصبحت أخيراً ربع سنوية واستقرت على هذا الوضع ، وبدأت في مظهر وحجم ثابتين تقريباً . لم تقتصر على المجمعين ولا على الكتاب والباحثين السوريين ، بل أفسحت صدرها لغيرهم من العرب والمستعربين ، ووقفت بعض أعدادها على أهداف معينة . وتعد اليوم من المصادر التي يرجع إليها ، فيها أدب ولغة ، تاريخ وآثار ، وفيها تعريف بالمخطوطات ونقد لأشهر المؤلفات ، وبخاصة ما اتصل منها بالإسلام وحضارته .

أما في عالم النشر والتحقيق ، فقد أخرج المجمع نفائس يعتمد بها ، عهد بها إلى محققين أعلام ، أغلبهم من أعضائه . فرووا فيها ، وتنبهوا من أصولها ، وحلوا غامضها . ثم أخرجت في ثوب أنيق جذاب ، فيها أدب ولغة ، علم وفلسفة ، ويدور معظمها حول التاريخ ، وتاريخ دمشق بوجه خاص . فأخرج المجمع ما عثر عليه من أجزاء « نشوار المحاضرة » للتونجي ، و« الدارس في تاريخ المدارس » للنعماني الدمشقي ، و« أمراء دمشق » للصفدي ، و« فضائل الشام ودمشق » للرّبّعي . ويهدي المجمع مطبوعاته إلى الجامعات والجامعات والمعاهد العربية ، والمؤسسات الثقافية المعنية باللغة وآدابها ، ولا ييخل بها على كبار المشتغلين بالأدب واللغة من عرب ومستعربين ، وهم يرقبونها دائماً في شوق ورغبة .

هذا هو مجمع دمشق في ماضيه وحاضره ، وقد مرّ بأيام مزدهرة ، وهو جدير بأن تزدهر أيامه دائماً . هو بلا شك وسيلة ناجعة من وسائل تطوير اللغة والنهوض بها ، وحلقة هامة من حلقات النهضة الثقافية والعلمية ، وعضو له شأنه في أسرة الجامعات اللغوية العربية . وقد انتهينا منذ بضع سنوات إلى تكوين اتحاد للمجامع اللغوية العلمية ، وهدفه الأول أن يربط بينها ، وينسق عملها ، وربما أدى ذلك إلى المجمع الموحد الذي نحلم به منذ زمن . على أن في وسع الجامعات العربية القائمة أن تسير بالعربية في طريق الوحدة العلمية والحضارية .

## الفصل الرابع

### ٤ - مجمع القاهرة

سبقت فكرته وجوده بزمن غير قصير ، فقد شعرنا منذ أوائل القرن التاسع عشر بأن عربية القرن الثامن عشر أصبحت لا تنفي بحاجات النهوض والتقدم ، وحاولنا إقامة نهضة أدبية لغوية إلى جانب النهضة العلمية والاجتماعية . ولرفاعة الطهطاوى ( ١٨٧٣ ) شأن يذكر في النهضة اللغوية : راجع وصحيح ، ترجم وألف ، اشتق ألفاظا عربية أو عرب ألفاظا أعجمية لأداء المعاني الجديدة ، دعا إلى تبسيط النحو العربى وتيسيره على الناشئين : قام بجهود متنوعة تكاد تلخص ماتحاولة المجمع اللغوية ، وتدعو إليه : ثم جاء بعده الأستاذ الإمام محمد عبده ( ١٩٠٥ ) الذى دفع النهضة الأدبية واللغوية دفعة قوية ، فطور أدب المقالة ، وجدد أسلوب التأليف ، وأشار بإنشاء مدرسة دار العلوم ( ١٨٧٢ ) ، لكي تعد المعلم الصالح وتسهم فى تطوير اللغة ، ورأى أن العربية فى حاجة ماسة إلى هيئة شبيهة بالأكاديمية الفرنسية ، تضطلع بوضع المعاجم اللغوية الحديثة ، وتدرس تاريخ اللغة ، وتلعب ما أنشئ من مصطلحات جديدة اشتقاقا أو تعرييا : وذهب إلى أن هذا الإصلاح ، إن أخذ به فى جد ، آتى أكله بعد خمسين سنة ، وأسهم هو فعلا فى العقد الأخير من القرن الماضى فى تكوين «مجمع البكرى» الذى لم تقدر له حياة طويلة :

إلا أن الفكرة لم تمت ، بل ازداد الداعون إليها حماسا وقوة ، وعلجت فى الربع الأول من القرن العشرين فى صور شتى : فعقد حفنى ناصف عام ١٩٠٨ «بنادى دارالعلوم» ندوة خاصة دامت نحو أسبوعين ، وعلجت فيها عدة قضايا ، منها «تعريب الأسماء الأعجمية» ، و«الأسماء العربية المستحدثات الحضارة والمدنية» ، و«العامة والفصحى» . ولم يكدهمضى على هذه الندوة عشر سنوات حتى أخذ لطفى السيد عام ١٩١٦ فى إنشاء ما سمي «مجمع دار الكتب» ، وأريد به أن يكون أهليا على غرار نشأة الأكاديمية الفرنسية : ولم يقصر على المصريين والعرب وحدهم ، بل اقترح أن يضم إليهم عضو فارسى وآخر سوريانى ، وثالث عبرانى : بيد أن هذا المجمع لم يعمر هو الآخر طويلا ، وطغت عليه ثورة سنة ١٩١٩ : وقد حاول استعادة حياته عام ١٩٢٥ ، ولكنه لم يعقد إلا جلسة واحدة :

وفى ضوء هذا نستطيع أن نقرر أنا قضينا نحو أربعين سنة حاولنا فيها تكوين مجمع يقوم على أمر العربية ويرعاها : وبدأت التجربة فى القاهرة على أيدي الأدباء واللغويين أنفسهم ، على نحو ما بدأت فى باريس : وكانت هذه التجارب جادة وصادقة ، وإن لم تعمر طويلا . ولكنها مهدت دون نزاع لقيام المجمع الملكى الذى صدر مرسومه عام ١٩٣٢ ، وربما كان فى الإمكان

أن يصدر قبل ذلك ، لولا الحركات الوطنية وما ترتب عليها من أحداث سياسية : وصلته بتلك التجارب واضحة ، ويمكن أن نشير إلى أن من بين أعضائه من اشترك في المجمع السابقة :

### ( ١ ) تكوينه وأغراضه :

نص مرسوم إنشاء المجمع على أن يتكون من عشرين عضوا عاملا من العلماء المعروفين ببحرهم في اللغة العربية من غير تقييد بجنسية معينة وهذا مبدأ لم يسبق إليه ، لا في المجمع الفرنسي ولا في المجمع التي جاءت على غرارته ، فقد ربط العضوية بمهمة المجمع ورسائله ، وباعد بينها وبين الاعتبارات السياسية والطائفية ، وجاء مجمع اللغة العربية هيئة عالمية لا إقليمية : وفي اختيار أعضائه العاملين الأول احترام هذا المبدأ كل الاحترام ، فكان نصفهم من المصريين ، والنصف الآخر في قسمة عادلة بين العرب والمستعربين : وروعي في اختيارهم جميعا مبدأ الكفاءة وكان من العرب العراقي والسوري واللبناني والتونسي ، ومن المستعربين الألماني والإنجليزي والفرنسي والإيطالي : وإلى جانب العضو العامل يستطيع المجمع أن يمنح ، من غير تقييد بجنسية ، لقب «عضو فخري» للأشخاص الذين قاموا بخدمات جليلة في دراسة اللغة ولحاجاتها . وله أيضا أن يمنح لقب «عضو مراسل» لكل من يرى في معونته فائدة كبرى له ، سواء أكان مصريا أم أجنبيا ، وقد أخذ المجمع بذلك إلى اليوم :

وحدد المرسوم أغراض المجمع ، ووضح سبل تنفيذها ، وبين كيف يسير العمل فيه ، ورسم معالم شخصيته المعنوية . ووضع بذلك الدعائم التي قام عليها المجمع ، والتي لم تنقض فيما بعد بوجه عام ، وبالعكس عززت وأيدت على مر الزمن : وتتأخص أغراضه ، على حسب ما جاء في هذا المرسوم ، في أن يحافظ على سلامة اللغة العربية ، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها ، ملائمة لحاجات الحياة في العصر الحاضر . ووسيلته إلى ذلك أن يبين ما ينبغي استعماله أو تجنبه من الألفاظ والتراكيب ، وأن يبحث كل ما له شأن في تقدم اللغة ، وأن يتتبع تاريخ بعض الكلمات وتغير مدلولاتها ، وأن يحقق النصوص القديمة المتصلة باللغة وفقهاها ، وأن يضع معجما تاريخيا للغة العربية ، وأن يصدر أخيرا مجلة تنشر أبحاثه وقوائم الألفاظ والتراكيب التي يقرها ، وتفسح المجال لمناقشات الجمهور واقتراحاته ، وبقيت هذه الأغراض هدف المجمع باطراد ، ونص عليها في كل ما أدخل على قانونه من تعديل ، في شيء من التوسع والتفصيل : وقد حتمت المجمع منها ما استطاع ، ولا يزال يتابع السير : وسنشير في الحديث عن إنتاجه إلى ثمار هذه الجهود وما تحتمل منها :

### ( ب ) أعضاؤه :

ولا أظن أن هيئة من هيئاتنا العلمية والأدبية الكبرى حظيت بما حظي به مجمع اللغة العربية من أعضاء : لغويين وعلماء ، قادة ومصلحين : وقد قام اختيارهم على التعيين والانتخاب ، عينوا عند الإنشاء ، وعند كل زيادة في عددهم : ووكل إليهم فيما عدا ذلك انتخاب من يرون

ضممه إلى صفوفهم من المصريين ، أو من غير المصريين وتحرى ما أمكن في هذا الاختيار ، سواء أتم عن طريق التعيين أم عن طريق الانتخاب . وحرص المحجميون على أن يعتمد جلسة واحدة فقط كل عام ملء ما تدعو إليه الحاجة من فراغات ، فلم يسرفوا في الانتخاب ، ولم يسمحوا فيه باستثناء ما. وعرفت انتخاباتهم بأنها شاقة ومحدودة العطاء ، ولم يتمكنوا قط من ملء ما لديهم من كراسى شاغرة في جلسة واحدة . ربما توسعوا في الترشيح دون جدوى ، لأن الأغلبية المطلوبة ليست يسيرة الازدياد ، وكثيرا ما رشح الشخص الواحد غير مرة .

تكون المجمع في البداية — كما أشرنا — من عشرين عضوا ، وقد حالت الحرب العالمية الثانية دون أعضائه غير المصريين ، وهم النصف ، من الاشتراك في أعماله ، فلم يتوفر له العدد القانوني اللازم لاتخاذ قرارات صحيحة وألغيت دورة كاملة من دوراته ، هي دورة ١٩٣٩ / ١٩٤٠ . ورؤى في عام ١٩٤٠ ضرورة رفع عدد الأعضاء إلى ثلاثين ، على أن تهبط نسبة الأعضاء غير المصريين إلى الثلث . وفي عام ١٩٤٦ رفع العدد مرة أخرى إلى أربعين ، وهبطت نسبة غير المصريين إلى الربع . ووقفت الزيادة عند هذا العدد ، ولرقم ٤٠ شأن في تاريخ الأكاديمية الفرنسية . وأدع جانباً المجمع الموحد الذي كان ثمرة من ثمار الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا ، لأنه لم يغير في شيء عدد أعضاء مجمع القاهرة ، واكتفى بأن ضم إليهم أعضاء مجمع دمشق ، وعشرين عضواً آخر من البلاد العربية ، ولم يستكمل عدد هؤلاء بحال . واقتصر في هذا المجمع على المصريين والعرب ، ولم يفتح باب العضوية للمستعربين . وقد رؤى العودة إلى ذلك مرة أخرى فيما اقترح أخيراً من تعديل لقانون المجمع .

وتوارد على العضوية العاملة بالمجمع عدد غير قليل من الشيوخ والعلماء الأعلام ، لقي كثير منهم ربه ، وبقى آخرون يحملون الرسالة ، ويؤدون الأمانة . ويطول بنا الحديث إن شئنا أن نقف عندهم جميعاً ، ويكفي أن نشير إلى أن أغلبهم كان من اللغويين والأدباء بين كتاب وشعراء وفيهم أيضاً عدد غير قليل من رجال الشريعة الإسلامية والقانون ، ومنهم صحفيون ، وفلاسفة ، وعلماء في اللغات الشرقية ، وأساتذة في التأريخ والجغرافيا ، وأطباء وشيوخ في العلوم الرياضية والطبيعية . ويطيب لي أن أنوه ببعض الراحلين ، كالخضر حسين ، وحسين والي ، وإبراهيم حمروش ، وفيشر ، والإسكندري ، والعوامري ، وكرد علي ، وعبد القادر المغربي ، وانستاس الكرملي ، وإبراهيم مصطفى ، ومحمد علي النجار ، ومحيي الدين عبد الحميد ، وزكي المهندس بين اللغويين ، وأبو الحسن حسني عبد الوهاب ، وطه حسين ، والعقاد ،

وأحمد أمين ، وأمين الخولي ، ومحمد فريد أبو حديد ، وأحمد حسن الزيت ، وإبراهيم عبد القادر المازني ، وتيمور بين الأدباء ، أو بعلي الحارم ، ورضا الشبيبي ، وحسن الغاياتي ، وعزيز أباظة بين الشعراء ، أو المراغي ، ومصطفى عبد الرازق ، وأحمد إبراهيم ، والفاضل ابن عاشور ، وعبد الرحمن تاج ، وعبد الوهاب خلاف ، ومحمود شلتوت ، وعلى الخفيف . بين رجال الشريعة الإسلامية ، أو بمحمد توفيق رفعت ، ولطفي السيد ، وعبد العزيز فهمي ، وعبد الحميد بدوي ، وعلى بدوي ، وعبد الرزاق السنهوري بين رجال القانون ، أو بعبد الحكيم الرفاعي بين الاقتصاديين ، أو بفارس نمر ، ومحمد حسين هيكل ، وحافظ عوض ، وأنطون الحميل ، وتوفيق دياب ، وعبد القادر حمزة بين الصحفيين ، أو بماسنيون ، ومنصور فهمي ، وعثمان أمين بين المملاسة ، أو بحاجم ناخوم ، وليتمان ، وحامد عبد القادر ، وعبد الوهاب عزام ، ومراد كامل بين أساتذة اللغات الشرقية ، أو بنلليو ، وعبد الحميد المبادي ، وشفيق غربال ، ومحمد عوض بين المؤرخين والجغرافيين ، أو بعلي إبراهيم ، ومحمد شرف ، وأحمد البطاروي ، وعلى شوشة ، وكامل حسين بين الأطباء ، أو بالأمير الشهابي ، ومصطفى نظيف ، وأحمد زكي بين علماء الطبيعة والكيمياء والأحياء . تغمدهم الله جميعا برحمته ، وجزاهم خيرا الجزاء عما قدموا لأمتهم ولغتهم .

وفي المجمع أعضاء مراسلون من أركان الدنيا الأربعة ، من آسيا وأفريقيا ، من أوروبا وأمريكا ، وعددهم في زيادة مطردة . وقد درج المجمع أخيرا على أن يختار كل ثلاث سنوات عددا منهم ممن يرى الاستعانة بهم في تحقيق أغراضه . ولهم جميعا الحق في الاشتراك في مؤتمر المجمع السنوي ، وتوجه إليهم الدعوة بانتظام . وفي وسعهم أن يقدموا ما يعين لهم من بحوث ومقترحات ، وبينهم من غذى المجمع بغذاء ملحوظ ، وحرص على الاشتراك في مؤتمره ما وجد إلى ذلك سبيلا . ويرجى أن يستفاد منهم على وجه أتم وأكمل ، وبخاصة فيما يتصل بالتقريب بين اللهجات الإقليمية واللغات المحلية .

ونخطيء إن زعمنا أن الجمعيين يضطلعون بالعبء وحدهم ، بل يعاونهم أساتذة أجلاء وخبراء متخصصون في اللغة والأدب ، في العلم والفن والتكنولوجيا . وعليهم نعل في متابعة الحركة العلمية والفنية الدائبة ، ونأخذ ما استطعنا بمقترحاتهم في لغة العلم والحضارة . وفي المجمع ما يزيد على عشرين لجنة ، اختصت كل واحدة منها بميدان معين تتعمق فيه ، وتعرض لمشاكله ، وتتنظر في مصطلحاته . ولكل لجنة أن تستعين بمن تشاء من الخبراء ، ويجيبها المجمع دائما إلى ما تطلبه . وخبراء المجمع في الواقع جنود مجهولون ، يعطون في سخاء ، ويحسون بسعادة ، في انضمامهم إلى الأسرة الجمعية ، ويعز علينا أن لا نستطيع دائما أن نفهم حقهم ؟

## ٥٠٠ انتاج

يوشك مجمع القاهرة أن يبلغ الخمسين من عمره ، وقد قفى في البداية زمنا يتاح فيه طريقه ، ويرسم منهج عمله : واعتقد أنه قد اتضحت أمامه السبل اليوم ، واستبانت طرائق العمل ، واستقرت المبادئ والتقاليد : يبدأ عمله أولا على أيدي محرريه ، ويعنى ما وسعه بأختيارهم ، وإعدادهم الإعداد الملائم لهيمته ، ويسوءه أن يحرم من بعضهم بعد أن أعده وهياه ، ويحرص على ألا تنقطع صلته بالقدامى منهم ، حتى بعد أن تقاعدوا وجاوزوا سن المعاش : والعمل اللغوى والعلمى في المجمع ذو طبيعة خاصة ، وأولى به من ألفه ودرب عليه : ومن المحررين إلى اللجان ، وهى في الواقع ، بمن فيها من أعضاء وخبراء ومحررين ، بوثقة الإنتاج الحقيقية في المجمع : ولكل لجنة مطلق الحرية في تنظيم اجتماعاتها ، دون أن تتقيد بزمان أو مكان معين ، تجتمع صباحا أو مساء في مبنى المجمع ، أو في مكان آخر إن لاعمها ذلك ، تعمل صيفا وشتاء إلى جانب مجلس المجمع أو في غيبته ، ولا تنقطع عن عملها إلا في فترة قصيرة من فصل الصيف تاركة لهيئة التحرير أن تعد ما ينبغي لإعداده لاستقبال الموسم التالى ، ومن اللجان إلى المجلس ، وقد درج مجلس المجمع على أن يعقد جلسة يوم الاثنين من كل أسبوع طوال أشهر ثمانية من أول أكتوبر إلى آخر مايو ، وهذه هى الخاصة التقليدية الثابتة ، وكثيرا ما قضت متطلبات العمل بعقد جلسات إضافية أخرى : وأخذ المجلس نفسه بأن لا يبت في أمر لغوى أو علمى إلا بعد أن يستوفى بحثه في لجنة من لجانه الخاصة : ومن المجلس إلى المؤتمر الذى لا يقف عند الأعضاء المصريين ، بل يضم إليهم زملاءهم غير المصريين ، ولا يقتصر على الأعضاء العاملين ، بل يفسح المجال أيضا للأعضاء المراسلين ، وطالت أدوار انعقاده في الماضى ، وامتدت إلى شهر ونصف أو يزيد ، وأصبحنا اليوم لا نستطيع أن نعقده أكثر من أسبوعين : وحاولنا تعويضا عن ذلك أن نضع أعمال اللجان والمجلس تحت أنظار الزملاء غير المصريين على مر السنة : والمجمع حريص على أن يكون هؤلاء الزملاء على بيئة تامة مما يعرض أثناء المؤتمر : ٥٠٠

وقد أتاح هذا التعاون والتنسيق الفرصة لمزيد من الأناة والروية ، والأخذ والرد ، وتبادل الآراء وعرض مختلف وجهات النظر : ولم يزعم المجتمعون يوما أنهم معصومون من الخطأ ، ولم يترددوا في أن يعيدوا النظر فيما سبق لهم أو قرروه ، إن جد ما يقتضى ذلك : وأعان هذا كله على إنتاج متواصل ومتنوع ، وإن دار أساسا حول اللغة فى ماضيها وحاضرها : ويكاد يتلخص هذا الإنتاج في خمسة أبواب : ١ ( ١ ) تيسير اللغة متنا وقواعد وكتابة ورسم حروف ، ( ٢ ) وضع معجمات لغوية متطورة تتمشى مع منهج التأليف المعجمى الحديث ، ( ٣ ) إثراء لغة العلم والحياة العامة بحيث تفي بمتطلبات العلوم والفنون ، وتلائم حاجات الحضارة والتقدم ، ( ٤ ) إحياء التراث القديم في الأدب واللغة ، ( ٥ ) تشجيع الإنتاج الأدبي :

## ٢ - ليسير اللغة :

اللغة ظاهرة اجتماعية ، تسير بسير المجتمع ، وتقف بوقوفه : لها ماض وحاضر ، وحياتها الحقة في أن تلاثم بين هذين الجانبين : فإن طغى ماضها على حاضرها ، عزايها أن تؤدي رسالتها على وجهها وإن تناسى حاضرها ماضها ، فقدت سلطانها وقدرتها وأصبحت مهتدة بالبلبله والاضطراب والكل لغة صعبها ، وتقضى سنة النشوء والارتقاء بتدابل هذه الصعاب والتغلب عليها . وفي مقدمة هذه الصعاب متن اللغة ، وهو مفرداتها التي ينبغي أن تفي بمتطلبات الحياة ، وما أشبه هذه المفردات بنقد متداول يبقى منه ما يبقى في سوق المال والأعمال ، وينقرض منه ما ينقرض ، ومنذ بدء نهضتنا الحديثة استألفت متن العربية نظرنا ، وشعرنا بعدم وفائه بمتطلبات العلم والحضارة : واستوقفنا هذه الصعوبة زمنا ، وفارقت محاذيلز ومجددين . فاستدسنا الأول بالسمع والنقل ، وتعبدوا بالماضي ، ووقفوا عنده ورددوا كلمة ابن فارس المشهورة : ليس لنا اليوم أن نخترع ، ولا أن نقول غير ما قالوا ولا أن نقيس قياسا لم يقيسوه . ورأى الآخرون أن قوانين التطور وسنن الحياة تقضى بأن نخذل العربية بغذاء مستمر ، وأن نخترع فيها ونبتكر ، كما اخترع الأدباء والأجداد : وقرروا في اختصار : أن ما قيس على كلام العرب فهو منه :<sup>١</sup>

واستطاع مجمع القاهرة أن يثبت أن لغتنا ملك لنا ، وفي وسعنا أن نتصرف فيها بقدر حاجتنا مادمننا لا نخرج على الأصول الثابتة ، وهذا مبدأ أساسى استقر عليه العمل في المجمع منذ نشأته الأولى : فأطلق القياس ليشمل ما قيس وما لم يقس من قبل ، وتوسع في الاشتقاق ما أمكن : فأجاز مثلا الاشتقاق من أسماء الأعيان ،<sup>٢</sup> مثل : ذهب من الذهب ، وكبرت من الكبريت وكان هذا من قبل مقصورا على السماع : وتوسع في المصادر الصناعى ، وعده قياسا مطردا ، للدلالة بوجه عام على المذاهب والنظريات العامية والفلسفية ،<sup>٣</sup> فيقال مثلا : المثالية والمادية ، كما قيل قديما القدرية والخبرية : ووضع صيغا قياسية جديدة للدلالة على المرض أو الحرفة أو الآلة : وهالته مشكاة التعريب في البداية ، فلم يحز استعمال بعض الألفاظ الأجنبية إلا عند الضرورة وهذه الضرورة قد تقف ولاشك عقبة في سبيل التعريب وبرغم هذا توسع المجمعون في تفسير هذه الضرورة ، وبدأ التعريب في نظرهم أحيانا حاجة ماسة : فأقروا معربات كثيرة في العلوم والفنون ، وبخاصة في الكيمياء وعلوم الأحياء ، وقبلوا ما اشتق منها من أسماء وأفعال ، فسالموا بالأكسيد ، وأخذوا منه أكسيد النحاس مثلا : وعززهم في ذلك استعمال علمى وحضارى ساد واستقر بين المتخصصين طوال ربع قرن أو يزيد : ولم يقف المجمع عند هذا ، بل وضع للتعريب قيودا وضوابط ، وقعد فيه بعض القواعد ، فرأى أن الأولى أن يعرب ما يدل على أسماء الأعيان وأعلام الجنس ، مثل أكسجين ، وإنزيم ، وأيون ، وإليكترون ، وأن يعرب أيضا ما يدل على تصنيف لأنواع النبات والحيوان ، أو على سلسلة متشابهة في الكيمياء ، أو على

ما ينسب إليه من اسم شخص أو مكان . وباختصار وضع المجمع نواة دستور للتعريب يفيد منه المترجمون والمؤلفون ، ويستعين به الباحثون والدارسون . وبذا استعادت العربية ثقتها بنفسها ، وبدأت تقبل الألفاظ الأجنبية غير هيابة ولا وجلية . وأصبحنا نؤمن بأن من حققنا أن نجتهد في اللغة كما نجتهد في الفقه والتشريع . وفي المجمع لجان علمية ولغوية متعددة ترعى متن اللغة وتغذيه ، وقد أخرجت عدة مؤلفات تشتمل على ما انتهى إليه المجمع من قرارات ومبادئ في الاشتقاق والوضع والتعريب .

واللغة لفظ وتعبير ، مفردات وتراكيب ، ولا يقف تيسيرها عند اللفظ وحده ، بل يمتد إلى الجملة . وقد شغل المجمع تيسير النحو والصرف منذ ثلاث قرن أو يزيد ، وانتهى فيه إلى قرارات تصلح أساسا لنحو وصرف يلائمان شباب المتعلمين ، ويعاونان على نشر تعلم العربية . وتهدف هذه القرارات بخاصة إلى تخليص النحو من فلسفة لا طائل تحتها ولا حاجة إليها ، وتجريد الصرف من فقه لغة لا يعنى الذشاء ، ولا يدركون كنهه . ولم تأخذ التربية والتعليم بهذا التيسير إلا عام ٦١ ، ولفترة قصيرة . وبقيت المشكلة تردد إلى اليوم ، وترفع الأصوات مطالبة بتيسير النحو على طلاب اللغة من عرب وأعاجم ، أسوة بما تم من تيسير في أجرومية بعض اللغات العالمية الكبرى . وقد عاد المجمع إلى هذا الموضوع أخيرا ، وانتهى فيه إلى اقتراحات عملية سهلة ، ملاحظا أن معلمي العربية قد خطوا في سبيل التيسير شوطا ، متأثرين بما ذهب إليه قديما من قرارات . وهو يعتقد أن هؤلاء المعلمين إن آمنوا جميعا بهذا التيسير وعنوا به ، فهم خير من يتولى تطبيقه وتحقيقه .

وفي الكتابة العربية صعوبات لوحظت من قديم ، فللحرف الواحد صور مختلفة بحسب موضعه من الكلمة . والحركات والسكنات منفصلة عن الحرف الذي تنصب عليه ، وإذا ما أهمل الشكل صعبت القراءة . والعربية ، كأخواتها السامية ، لغة إعراب ، وفي إعرابها ما يحدد مدلول اللفظ في الجملة ، وقد قيل : أنقرأ لنفهم ؟ أم نفهم لنقرأ ؟ ولم تغب هذه الصعاب عن مجمع القاهرة ، بل وقف عليها وقفة طويلة في مؤتمر عام ١٩٤٤ ، وطرح من أجلها جائزة خاصة لمن يتقدم بأحسن اقتراح لتيسير الكتابة العربية . وتقدم إليه نحو ٢٠٠ مقترح قضى المختصون زمنا في بحثها ومراجعتها ، ولم يجدوا فيها ما يحقق الغاية . وبرغم هذا لم ير المجمع بدا من متابعة البحث في تيسير الكتابة العربية وقنع بحروف الطباعة ، وهي أساسا بخط النسخ ، والناس يقرءون اليوم أكثر مما يكتبون . وانتهى إلى اختصار صور الطباعة اختصاراً ملحوظا ، فهبط به من ٤٧٠ صورة إلى ١٢٨ شاملة لجميع الحروف والهمزات ، والشكل ، والترقيم ، والفواصل ، وتساوى بهذا مع صندوق الطباعة في الحروف اللاتينية . وقد وضع هذا المشروع موضع التنفيذ منذ ١٥ سنة ، وأقبل عليه صناع الآلات الكاتبة ، وأخذت به بعض الصحف العربية الكبرى . وفيه قطعاً تيسير للطباعة ، وتوفير للوقت والجهد والمال . ولم يبق للكتابة اليدوية إلا خط الرقعة ، وهو أيسر ، وإن قل تجويده ، وكثيرا ما حلت الآلة الكاتبة محل اليد والخط . وترك للفنانين والخطاطين أن يزينوا لوحاتهم

مأشاعوا بالخط الثلث أو الخط الكوفي . وتيسيراً للقراءة على الناشئين ، أوصى المجمع بالتزام الشكل في الكتب المدرسية في مراحل التعليم العام ، وما أحوجنا أن نعهد ذلك في عناية كي يعود الأطفال على النطق السليم .

ويدخل الإملاء ورسم الحروف في صعوبات الكتابة العربية ، وكم عانى صغار التلاميذ من عقدة كتابة الهمزة المتوسطة والمتطرفة ، ورسم الألف اللينة ، هل واوية أو يائية . وقد فصل المجمع في قدر كبير من ذلك ، وما أجدره أن يتم ما بدأ ، وعنى المجمع بكتابة الأعلام الأجنبية ، وقرر أن تكتب على النحو الذى ينطقها به أهلها ، اللهم إلا ما شاع واستقر على نطق معين . وتحقيقاً لهذه الغاية سلم بثلاثة حروف هى الحاف الفارسية ، والهاء والفاء الثقيلتان .

## ٢ - المعجم اللغوى :

العربية غنية غنى ملحوظاً بمعجماتها اللغوية ، ولا يكاد يضارعها في ذلك إلا اللغة الصينية . وقد بدىء في وضع المعجم العربى بمعناه الدقيق في القرن الثانى للهجرة ، وتوالى وضعها على مر الزمن . وربما وضع في القرن الواحد عدة معاجم ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك القرن الرابع للهجرة الذى يعد بحق العصر الذهبى للمعجم العربى . فقد ظهر فيه « الجوهرة » لابن دريد ، و « ديوان الأدب » للفارابى ، و « التهذيب » للأزهري ، و « المحيط » للصاحب بن عباد ، و « المقاييس » لابن فارس ، و « الصحاح » للجوهري ، وهى أهم المعجمات الأولى التى وصلت إلينا ، وعنها تصدر وعليها نعول ، ومنها استمدت المعجمات التالية . ومعجماتنا العربية غزيرة المادة ، وذات قيمة تاريخية أكيدة ، إلا أنها لم تسلم من عيوب مشتركة ، فتخطىء في ضبط الكلمات ، وتسرف في سرد المفردات ، وفي تبويبها عسر ، وفي تعريفاتها غموض ، وفي معلوماتها خلط ، لا سيما إذا عرضت للتاريخ والجغرافيا ، أو للعلم والفلسفة ، ولابد من تطويرها ، وتصحيح أخطائها ، وتدارك نقصها :

وقد تطور فن التأليف المعجمى على مر الزمن ، وجود وأحكم ، وبلغ قمته في القرن التاسع عشر الذى ظهر فيه بعض المعجمات الأوروبية الكبرى ، « كلاروس » فى الفرنسية ، و « أكسفورد » و « وبستر » فى الإنجليزية . ويقوم هذا الفن الآن على دعائم أهمها : عناية فائقة بالوضوح والتبويب ، وأخذ بالمنهج التاريخى ، وحرص على الطابع الموسوعى . والوضوح والترتيب أهم هذه الدعائم ، فشكبت المعاجم بلغة سهلة واضحة ، وتشرح التعاريف بعبارات دقيقة جلية . أما جودة الترتيب والتبويب فهى خير عون لمن يرجع إلى المعجم ويحاول الاستعانة به ، وأسهل سبل التبويب أن ترتب الكلمات على حسب نطقها ، لا على حسب تصريفها . وقد مرتب المعجم العربى بصور معقدة وغامضة ، وآن الألوان لتيسيرها وتهذيبها . والألفاظ والأساليب ، كالأشياء

لها تاريخ يمكن تتبعه ، فيبين كيف تدرج مدلولها وتبدل استعمالها ، ومن هنا نشأت فكرة المعاجم التاريخية ، وعلى رأسها « معجم أكسفورد » . ولا يقف المعجم عند المادة اللغوية ، بل يضيف إليها معلومات في التاريخ والجغرافيا ، والعلم والفلسفة ، وأغلب الظن أن هذا الطابع الموسوعي ثمرة من ثمار دوائر المعارف التي انتشرت منذ القرن الماضي :

نص مرسوم إنشاء المجمع على أن من أهم أغراضه « أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية » وقد أخذ المجميون أنفسهم بذلك ، وكونوا منذ الدورة الأولى من كبار لغويهم العرب والمستعربين « لجنة المعجم » : وبدأت هذه اللجنة فعلا في رسم منهج المعجم ، وتحديد وسائل التنفيذ . وشاءت الأقدار أن يكون بين أعضاء المجمع المستشرق الألماني فيشر ، الذي سبق له أن عنى عناية خاصة بالمعجمات العربية منذ أخريات القرن الماضي ، وكان يعتزم أن يخرج معجما تاريخيا ، على غرار معجم أكسفورد في الغالب . ورحب المجمع بذلك ، وتعاهد معه على إخراج معجمه تحت كنفه في ست سنوات أو سبع . جاءت الحرب العالمية الثانية ، فوقفت حجرة عثرة في سبيل ذلك ، ولم يعمر فيشر بعدها طويلا ، وضاعت جزائره بين مصر وألمانيا ، ولم يبق لدينا منها إلا قدر ضئيل .

واتخذ المجمع في شأن التأليف المعجمي وجهة أخرى ، فشغل أولا « بالمعجم الوسيط » الذي قضى في إعداده نحو عشرين عاما ، وأخرج طبعته الأولى عام ١٩٦٠ . وقد عبر عن اللغة العربية في قديمها وحديثها ، فحتمول على المعاجم القديمة ، وأخذ بما استقر من ألفاظ الحياة العامة المعاصرة ، وأعطى قدرا غير قليل من المصطلحات العلمية الشائعة ، وشدد في هجر الحوشى والغريب ، وأقر كثيرا من الألفاظ المولدة والمعربة الحديثة ، وسلك في التبويب مسلكا سهلا يقوم على الترتيب الهجائي مع حصر كل مادة لغوية في بابها . كتب بلغة العصر وروحه ، أفاد من فن التأليف المعجمي الحديث . ولم تكد تمضي إحدى عشرة سنة على ظهور الطبعة الأولى ، حتى أخرجت الطبعة الثانية عام ١٩٧٢ بعد تهذيب وتنقيح . وبعد المجمع العدة لإخراج الطبعة الثالثة ، سالكا فيها ما سلكه في الطبعة السابقة من الإضافة والتعديل .

وإلى جانب « المعجم الوسيط » حرص المجمع على أن يخرج معجما آخر يستوعب اللغة في مختلف عصورها ، وسماه « المعجم الكبير » تفاديا لما يقتضيه المعجم التاريخي من أعمال تمهيدية لم تستكمل بعد . وهو عمل طويل النفس لا يقاس بالشهور ولا بالسنين ، وقد أخرج المجمع جزأه الأول عام ١٩٧٠ ، وينصب على حرف « الهمة » وحده ، وقدم للمطبعة أخيراً الجزء الثاني الذي لم يتجاوز حرف الباء وهو ، كما قيل ، « خزانة العربية ، وجامع لأشتاتها ، ومعرض لألوان كثيرة من معارفها وثقافتها » . حرص على ذكر الأصول السامية ، لكي يربط العربية بأخراتها ، وبين المعاني الكلية لكل مادة ، مستأنسا بابن فارس في « مقاييسه » ، أو مكملا له . واستشهد بالشعر والنثر في مختلف العصور معتمدا ما أمكن على المصادر الأصلية ، ومرتبيا للشواهد ترتيبا

زمنيا ، واستشهد من الحديث بالكتب الستة ومسند أحمد لا غير وثوسع في المصطلحات العلمية إيرادا وشرحا ، بالقدر الذى يتناسب مع معجم كبير ، ويعرض بهذا طائفة من المعارف الإنسانية فى دقة ووضوح ، ومن أخص خصائص المعجم الحديث طابعه الموسوعى . وكان لابد له أن يقف عند بعض أعلام الأشخاص والأماكن ، وبخاصة لما له صلة بالثقافة والأدب العربى ، وإن حرمت الأكاديمية الفرنسية ذلك على نفسها فى معجمها ، ولا يعد معجمنا مع هذا معجم أعلام بحال . أما الترتيب والتبويب فقد ضبطهما وأحكمهما ، على نحو ما سار عليه « المعجم الوسيط » ، بالرغم من غزارة المادة وكثرة الفروع والمشتقات .

و « معجم ألفاظ القرآن » من أعمال المجمع الخالدة ، وهو أقرب إلى المعاجم اللغوية . أريد به أن يقف عند الدلالة اللغوية وحدها ، فلم يدخل فى تأويلات المفسرين ، ولا خلاصات الفقهاء والمتكلمين . ولم يعرض للأصول الأجنبية ، ولا لما جاء فى الكتب المقدسة ، ولا لتحقيق الأعلام التاريخية والجغرافية ، وبعد كل البعد عن الإسرائيليات والأقاصيص القديمة . يعرض المدلولات اللغوية المختلفة للألفاظ القرآنية ، يشرحها شرحا كافيا ، ويربط كل مدلول بالآيات التى تتصل به ، فهو أشبه ما يكون بمعجم مفهرس ييسر الأمر والفهم على الباحث والدارس ، وقد صادف رواج ملحوظا ، ولا أدل على هذا من أنه أعيد طبعه حتى الآن مرتين ، وإن حرم تماما من وسائل الإعلام والدعاية ، وفى الطريق إلى القراء طبعة ثالثة .

وفى ختام هذه السلسلة نشير إلى « المعجم الوجيز » الذى فرغنا منه أخيرا ، ويتم - كما يبدو - سلسلة التدرج المنطقى للمعجمات اللغوية : وجيز ، ووسيط ، وكبير . وتأمل أن يحقق الهدف الذى صوب إليه المعجم الوسيط من قبل ، وإن كان قد جاوزه وسما عليه ، وأريد به فعلا أن يكون مدرسيا حقا ، يلائم أبناء المدارس الإعدادية والثانوية ، فحددت مادته ، ورتبت فى وضوح ، وشرحت فى يسر . وبذا يستطيع أن يقدم للتلاميذ لغة هيئة لينة ، تكشف عن معنى ما يتداولونه بينهم من ألفاظ وعبارات فى قراءتهم وكتاباتهم وحديثهم . ويخيل إلينا أن تلميذ المدرسة الثانوية لن يستغنى عن هذا المعجم ، فضلا عن القارئ العادى ، ومن يدرى فقد يضم يوما إلى قائمة الكتب المدرسية التى ينبغى أن تتوفر لتلميذ المدرسة الثانوية .

### ٣ - لغة العلم :

لغة خاصة ، وأهلها أحق الناس بها ، لأنهم أقدر على تدقيقها ، والحكم على مدى صدقها فى أداء المعنى الذى وضعت له . اللهم إلا إن كانوا غير متمكنين من علمهم ، أو غير ملمين بالمما دقيقا بلغتهم الوطنية ، أو كانوا مولعين بالمخالفة والتغيير لمجرد التغيير . وقد بليت لغة العلم على مر التاريخ بعيوب ومفارقات ترجع إلى ذلك ، ولكن الزمن يصلح ما أفسد ، ولكم من مصطلحات ماتت ولم يعمر منها إلا ما قبله رأى العام العلمى واطمأن إليه . وقيمة لغة العلم فى استعمالها وأخذ الناس بها ،

وحياة المصطلح في شيوعه وتوحيده ، وإن لم يقبله أهله ، فمن العسير أن يقبله الآخرون ونحيا اللغة العلمية كلها بحياة العلم نفسه . وحيث لا علم لا سبيل إلى التحدث عن لغة علمية .

وحظيت العربية قديما بعلم ، وعلم أصيل ، أخذت وأعطت ، وكان لعلمها شأن في النهضة الأوروبية الحديثة : ولم يبق اليوم محل لإتكار ذلك . ولهذا العلم لغته ومصطلحاته ، وقد عول واضعوها على النقل والاشتقاق ولم يبالوا بأن يكون المصطلح عربيا أصيلا ، أو معربا دخيلا ، وربما آثروا المعرب إن كان أدخل في المعنى وأكمل في الأداء . وما إن حل القرن الرابع الهجري حتى اكتملت لغة العلوم الإسلامية ، واستقرت مصطلحاتها ، وتداولها في العالم الإسلامي جميعه . ويوم أن ركذ البحث العلمي في العالم العربي ، ركذت لغته معه ، ثم جاءت النهضة العربية الحديثة في القرن الماضي ، فحاولت في شيء من التردد والتلكؤ أن تستعيد مجدها ، وأن تحيي علومها . وقد نشطت الحركة العلمية في القرن العشرين ، وأخذت تكون من جديد لغتها ، مستعينة بالدراسات الجامعية ، والجامع اللغوية ، والهيئات العلمية بوجه عام :

وللمجمع القاهرة إسهام ملحوظ في تحرير لغة العلم المعاصرة ، وضبطها ونشرها وتوحيدها ، ولا يباريه في هذا هيئة علمية أخرى . كوّن منذ نشأته لجانا علمية متخصصة ، تعنى بلغة العلم . وتقول كلمتها فيها . وقد رسم لها المنهج وحدد الهدف ، وبالتطبيق المستمر طوال السنين ازداد هذا المنهج دقة ووضوحا . ونمت هذه اللجان على مر الزمن ، وأصبحت اليوم نحو عشرين لجنة ، لكل مادة بلحتها المتخصصة ، وتتكون من أعضاء المجمع وخبرائه ومحرريه . ومن الخطأ أن يظن أن لجان المجمع تنشئ المصطلح العلمي لإنشاء ، وتبتكره ابتكارا ، وبالعكس يقوم عملها أساسا على تسجيل ما شاع منه واستقر ، ولا يصبح المصطلح نهائيا إلا يوم أن يقره مجلس المجمع ومؤتمره . وفي هذه المصطلحات ما يعين دون نزاع على حل مشكلة تعريب التعليم العالي والجامعي الذي أصبح الشغل الشاغل . ولدى المجمع ذخيرة كبيرة من هذه المصطلحات ينشرها في مجموعات متلاحقة عاما بعد عام ، أو في معجمات متخصصة . وقد توفر له حتى الآن اثنان وعشرون مجموعة من مجموعات المصطلحات ، ووضع معجمات متخصصة في الجيولوجيا ، والطبيعة النووية ، والجغرافيا ، والفلسفة . ومن مجموعات مصطلحاته ما يشتمل على نحو عشر آلاف مصطلح ، وفي كل معجم أيضا عدة آلاف ، وقيد البحث الآن معجمات أخرى يرجى أن تأخذ طريقها قريبا إلى النشر . ويسعد المجمع ما يلاحظه من إقبال الباحثين والدارسين على ما يقره من مصطلحات ، ففي ذلك نشر لها ووسيلة ناجعة لتوحيد المصطلح العلمي . ولا نغلو إن قلنا إن معظم ما ظهر من معجمات علمية في ربع القرن الأخير يعول على المصطلح المجمع ، ويشير إلى ذلك أحيانا .

وقد عني المجمع بتوحيد المصطلح العلمي منذ البداية ، فلو حظ في تكوينه أن يشتمل على أعضاء عرب ومستعربين ، إلى جانب أعضائه المصريين ، رغبة في أن يكون القرار جماعياً ، وأن تكون الموافقة تامة : وحرص على أن ينشر ما يقره من مصطلحات في مجلته ، قبل أن يقف عليها مجموعات خاصة : وكان يرحب دائماً بكل ما يوجه إليها من ملاحظات ، ولا يتردد في أن يعيد النظر فيها ، وأن يبيحها ويدرسها : وربما أدى تعدد الخبراء واللجان إلى شيء من الخلاف والفرقة ، ولكن مجلس المجمع ومؤتمره يحرصان على أن يلتقي المختصون عند مصطلح واحد . وأصبح من المبادئ المقررة ألا يؤدي المصطلح الأجنبي إلا بلفظ عربي واحد .

وسعي وراء هذا التوحيد كونه المجمع اللغوية أخيراً اتحاداً لها ، ومن أهم أهدافه توحيد المصطلح العلمي في العالم العربي بأسره : وقد عقد هذا الاتحاد في بعض العواصم العربية لقاءات عرض فيها لطائفة من المصطلحات القانونية والنفسية ، وعالج بعض القضايا اللغوية . وهو حريص الحرص كله على أن يتعاون مع كل الهيئات التي تعنى بتوحيد المصطلح العلمي :

ولمستحدثات الحضارة والحياة العامة لغة خاصة بها وألفاظ تدل عليها ، والفرقة فيها بين الأقطار العربية واضحة ، وما أحوجها إلى الضبط والتجديد ، وما أشبهها بلغة العلم في تجددتها وتنوعها ، وما دام المدلول واحداً ، فمن الأولى أن يتحدد الدال عليه في العالم العربي بأسره ، وقد عني المجمع بألفاظ الحياة العامة منذ عهد مبكر ، فجند جنوداً لجمعها في مظانها ، من السوق والحانوت ، من المصنع والمتجر . ورأى في هذا الجمع مفتاحاً لدرس اللغة الدارجة ، وبينها وبين الفصحى وشائج لا تنكر ، هذا إلى أنه يعين على توحيد المصطلح الحضاري في القرية والمدينة : وكون لألفاظ الحضارة لجنة تعمل منذ سنين . فتتابع لغة السينما والمسرح والإذاعة والتلفزيون ، معولة في ذلك كله على أهل الصنعة وما شاع لديهم من استعمال ، وتوفر لها بذلك مادة جديدة بأن تنشر في معجم خاص : على أن المجمع يترىث ما وسعه في شأن الألفاظ الحياة العامة ، فلا يقبل منها إلا ما استقر استقراراً ملحوظاً ، وشاع شيوعاً ظاهراً . وهو يدرك ما للإلف والعادة من شأن في هذه الألفاظ ، ويقدر ما فيها من فرقة في استعمال البلاد العربية المختلفة ، ويجتهد في التوفيق والتقريب ، ويأخذ دائماً بالاستعمال الغالب ، ويعتقد أن الصحافة والإذاعة المسموعة والمرئية ونشر التعليم ستضيق مسافة الخلاف في هذا الباب لا محالة .

#### ٤ - إحياء التراث :

للحضارة الإسلامية تراث واسع عريض ، فقد امتد الإسلام إلى قارات العالم القديم الثلاث : آسيا ، وأفريقيا ، وأوروبا : وبعث حركة ثقافية نشيطة ودائبة ، كتبت بعدة لغات : عربية ، وعبرية ، وسورانية ، أو فارسية ، وتركية ، وأوردية . ويعيننا بوجه خاص أن نقف عند التراث الثقافي العربي ، وهو دون نزاع أفسح أفقاً ، وأشد أثراً ، وأعظم ثراء . ولا غرابة

فهو ثمرة جهود بلاد كثيرة ، ووليد أربعة عشر قرناً . تعددت ألوانه ، وتنوعت أبوابه ، فيه شريعات ، ولغويات ، وأدب وتاريخ ، وعلم وفلسفة . وتحت كل شعبة من هذه أقسام وفروع ، وضعت فيها كتب مختلفة ، مختصرة ومطولة ، متون وشروح . وهذا التراث باختصار من أغنى أنواع التراث الإنساني . وقد طغى عليه الزمن طغيانه على ثقافات أخرى ، فقضت الحرائق والحروب على قسط كبير منه ، وبخاصة غزو التتار الذي أهلك الحرث والنسل ، ومع هذا احتفظ الزمن لنا منه بنصيب ملحوظ تعمر به المكتبات العامة والخاصة في العالم القديم والحديث . ويتنافس المتنافسون اليوم في إحيائه ، بجمعه وتحقيقه ونشره .

ولم يفت مجمع القاهرة أن يسهم في هذا المضمار ، لاسيما وقد نص مرسوم إنشائه على أن من واجبه أن « ينشر على الطريقة العلمية من النصوص القديمة ما يراه لازماً لأعمال المجمع وفقه اللغة » . وقد التزم بهذا ، وإن عز عليه في البداية تدبير الموارد اللازمة له . فأنشأ في دورته السابعة « لجنة إحياء التراث » التي سارت على الدرب دون تردد ، فأوصت بنشر كتب لغوية وأدبية ، منها : « سر صناعة الإعراب » لابن جني ، و « أنيس الحليس » لابن المعافى ، و « كتاب التهذيب » للأزهري ، وحال نقص الموارد المالية دونها وماتريد ، وأصبح المجمع أشبه ما يكون بهيئة استشارية تقترح النصوص ، تاركة لغيرها التحقيق والنشر . ولكنه استطاع في السنوات العشر الأخيرة أن يحصل على اعتمادات لإحياء التراث ، ووقوفاً عند رسالته الأساسية ، اتجه أولاً نحو كتب اللغة ، وخطا في نشرها خطوات ملحوظة . فأخرج :

( ١ ) « كتاب التكملة والذيل » للصاغاني من رجال القرن السادس الهجري وهو معجم غزير المادة يقع في ستة أجزاء .

( ٢ ) كتاب « ديوان الأدب » للفارابي من رجال القرن الرابع ، وهو دون سابقه حجماً ، ويقع في أربعة أجزاء .

( ٣ ) و « كتاب الجيم » للشيباني من رجال القرن الثاني ، وهو من أقدم المعاجم العربية ويقع في ثلاثة أجزاء .

( ٤ ) « كتاب الأفعال للسرقسطي » من رجال القرن الرابع ، وهو في مقدمة كتب الأفعال في العربية .

وسبق للمجمع أن نشر كتاب « جمالة المبتدى ونفضالة المنتهى » لابي بكر الخوارزمي من رجال القرن السادس ، وقد قام بتحقيقه الزميل الأستاذ عبد الله كنون . وامت في محابة أن أشهر إلى أن كتب التراث هذه لها سوق رائجة في العالم العربي بأسره . وفي وسعنا أن نقول إنه أصبح للمجمع اليوم مكتبة خاصة ، وعامرة بما أخرج من إعداد مجلته ، ومحاضر جلساته ،

ومجموعات مصطلحاته ، هذا إلى ما ألف من معجمات لغوية بين وجيز ، ووسيط ، وكبير ، ومعجم ألفاظ القرآن ، وما أخرج من معجمات علمية متخصصة وقد نفذ قدر من هذه المطبوعات ولن نألو جهداً في إعادة طبع ما تدعو إليه الحاجة .

#### • - تشجيع الانتاج الأدبي :

سبق أن أشرنا إلى أن الجوائز الأدبية باب هام من أبواب نشاط الاكاديمية الفرنسية . ولم يأخذ بها مجمع القاهرة إلا بعد مضي عشر سنوات على إنشائه ، وعول فيها أولاً على أريحية بعض الأفراد وتبرعاتهم ، ثم التزمت بها الدولة ، ورصدت لها في ميزانية المجمع السنوية مبلغاً تراوح بين النقص والزيادة . ولا يزال حتى اليوم رمزياً ، وما أحوجه إلى التعزيز ، لاسيما بعد أن استحدثت الدولة جوائز أخرى أسخى عطاء . وبرغم هذا أقبل على جوائز المجمع اللغويون والأدباء من كُتّاب ، وشعراء ، وقصاصين ، وهم ولا شك يصوبون جميعاً إلى قيمتها المعنوية . وفتح بابها لابناء مصر وغيرهم ، وفاز بها نفر ممن بلغوا القمة فيما بعد ، ويمكن أن نشير منهم بين الكتاب إلى شوقي ضيف ، وسهير القلماوى ، وعائشة عبد الرحمن ، وبين الشعراء إلى محمود حسن إسماعيل ، ومحمود غنيم ، ومحمد الأسمر ، وبين القصاصين إلى نجيب محفوظ ، وسعيد العريان ، وجاذبية صادق .

وقد درج المجمع على أن يعلن كل عام عن موضوع تنصب عليه المنافسة ، وكم تعددت هذه الموضوعات وتنوعت ، ففيها تراث ولغة ، وشعر ونثر ، وقصص وترجمات شخصية . ونشر قدر غير قليل مما حظى بالجائزة ، ولا يزال تحت يد المجمع منها ذخيرة نرجو أن ترى النور قريباً .

ولم يقف المجمع عند الجوائز المادية ، بل استحدث ما سماه التوزيع الأدبي ، سنة أسستها وأخذ بها ، وهي تنصب على الإنتاج لا على المنتج . فتوج لأول مرة شعر خليل مطران ، وتوج بعده قصص تيمور ، وتوج عام ١٩٥١ شعر الكاظمي ، ووقف عند هذا ، ولا أدري لماذا ، ولعل من الخير أن يستعيد سنته ، وبخاصة نحو من أتموا المطاف من شعراء العالم العربي وأدبائه .

هذا هو مجمع القاهرة في عامه التاسع والأربعين ، من تاريخ إنشائه ، ونحن تعد العدة للاحتفال بحيدته الذهبي .

## الفصل الخامس

### ٥ - مجمع بغداد

ثالث المجمع اللغوية العربية لإنشاء ، أخذ عن سابقه ما أخذ ، وإن كان إلى مجمع دمشق أقرب ؛ جواره شكلاً وموضوعاً ، فسمى باسمه ، قصر عضويته العاملة على العراقيين ، واختصر عدد أعضائه في البداية اختصاراً ملحوظاً . وانصب نشاطه على أبواب شبيهة بتلك التي عرفت في مجمع دمشق ، فعنى بالتحقيق والنشر ، وإحياء التراث القديم ، ولم يقف لإحيائه عند جانب معين من جوانب التنافس العربية ، ودعا إلى محاضرات عامة لم تقتصر على أدباء العراق ومفكره ، بل أفسحت صدرها لبعض الأجانب من عرب ومستعربين ، ولم يغفل الترجمة عن بعض اللغات الحية ، فشجع عليها ، وأسهم في نشر بعض الترجمات النافعة ، وربما فاق في هذا المجمعين السابقين ؛ ولا غرابة ، فهو ورث لجنة أنشأتها وزارة المعارف العراقية قبله بعامين وهي « لجنة التأليف والنشر والترجمة » ، وما أشبهها بلجنة أخرى قاهرة بحول الاسم نفسه ، وقد سبقتها بنحو ١٥ عاماً ، ولها شأنها في حياة مصر الفكرية والثقافية في نصف القرن الأخير . ولا يكاد يوجد فروق بين اللجنتين ، اللهم إلا أن العراقية أميرية ، والناهرية قامت على جهود بعض الأدباء والمفكرين ، ولم تخضع قط لسلطان حكومي . ولم تعمّر لجنة المراق طويلاً ، وحل المجمع العلمي محلها ؛

وقد أنشئ هذا المجمع عام ١٩٤٧ ، وبدأ بعشرة أعضاء فقط ، ثم نما عددهم شيئاً فشيئاً على مر الزمن . وعتمد أول جلسة في فجر عام ١٩٤٨ ، ودرج على أن يعتمد جلستين كل شهر . وقام على أمره شيوخ كرام ، أذكر من بينهم ثلاثة كانوا همزة وصل بين مجعتي القاهرة وبغداد وهم المرحوم رضا الشيباني ، والزميلان الفاضلان : الأستاذ محمد بهجة الأثرى والدكتور عبد الرزاق محي الدين — ولم يأخذ المجمع العراقي ، فيما يظهر ، بما استننه مجمع القاهرة من تكوين لجان دائمة لمعالجة المشاكل اللغوية ، ولجنة الأصول ، ولجان المعجمات والمصطلحات العلمية المختلفة . واستطاع أعضاؤه أن يملؤوه دون انقطاع بمحاضراتهم ومحاضراتهم التي كانت الغذاء الأول لمجلتهم . وكان في البداية مجمع المراق الوحيد الذي يعنى أساساً بالعربية ولا يهمل السريانية ولا الكردية ، وعمل أعضاؤه متكاتفين ومتعاونين ، دون تحزب أو تعصب ؛

ولأمر ما أريد في أول السبعينات أن يقسم هذا المجمع إلى فروع شبه مستقلة ، أكبرها المجمع العربي ، وإلى جانبه مجمعان آخران ، هما المجمع الكردي ( ١٩٧٠ ) والمجمع السرياني ( ١٩٧٢ ) ؛ ولكل مجمع نظمه واختصاصاته ، وتكوينه وأعضاؤه ، وإن اجتمعت كلها في مكان واحد . وشاء الفرعان الجديدان أن يثبتا وجودهما ، فدعيا إلى لقاءات ، ونظما بعض المؤتمرات . فأقام المجمع

السرياني مهرجاً باسم القديس أفرام ( ٣٧٩ م ) وحسين بن إسحق ( ٨٧٣ ) ، ولهذا الأخير شأن كبير في تاريخ الحركة العلمية والثقافية في الإسلام ثم روى منذ عامين جمع الشمل مرة أخرى وهم هذه الفروع بعضها إلى بعض في مجمع عراقي موحد تمثل فيه اللغات الثلاث بنسب متفاوتة في عدد الأعضاء فكان للعربية نحو ثلثي الأعضاء ووزع الباقي بين الكردية والسريانية : وصلة العربية بهاتين اللغتين واضحة ، ولا تزالان تعيشان إلى جانبها في العراق ؟

• • •

ونشاط المجمع العلمي العراقي متعدد ومتنوع ، ويكاد يدور حول أبواب ثلاثة : محاضرات ، مصطلحات ، تحقيق ونشر ، وكانت محاضراته خصبة وشاملة ، وجهت الأنظار إليه واجتذبت نحوه جمهوراً خاصاً ، ولا شك في أنها كانت في سني المجمع الأولى أبرز أبواب نشاطه : عرضت للفكر واللغة ، وعالجت بعض قضايا العلم والفلسفة ، وأمدت مجلة "المجمع" بغذاء متواصل ولكنها لم تلبث أن نفدت ، وحل محلها ألوان أخرى من النشاط المجمعى :

وكان لابد للمجمع ببغداد أن يعرض للغة العلم وألفاظ الحضارة ، لأنه حريص على أن يتفهم بالعربية ، وأن يستكمل نقصاً ويسد حاجة : وكانت دور العلم ودواوين الحكومة تلجأ إليه ، سائلة عن مقابل عربي للفظ أجنبي : وقد حاول أن ينتقب في تراثنا اللغوي والحضاري باحثاً عن هذه المقابلات ، وربما عثر على مقابلات لا تلائم العصر ولا تتفق مع روحه ، وقد سبته إلى ذلك مجمع القاهرة ، ولكنه تبين أن هذا وحده لا يفي بما تتطلبه حياة القرن العشرين ، وليس فيه ما ينفع "الغلة" : وفي حياتنا واستعمالنا من ألفاظ وعبارات ما يفرض نفسه ، ولا ضير في أن نأخذ به ونسجله مادام لا يتعارض مع أصل من "أصول اللغة" واجتهد المجمع العراقي ما وسعه في وضع مصطلحات في العلوم الإنسانية كعلم التربية ، والتربية البدنية ، أو في العلوم الطبيعية ، كعلوم المياه ، والكيمياء ، والبترولييات ، والطب والجراحة ، واستعان بمجلته في نشر ما يثمره ، واكتفى في مصطلحاته هذه ، كما كان يصنع مجمع القاهرة قديماً ، بتقديم قوائم لمصطلحات أجنبية ، وبوجه خاص إنجليزية ، مع ما يقابلها من ألفاظ عربية — وقيمة المصطلح في تحديد مدلوله وشرح معناه وفي هذا التعريف ما يؤيده ويقربه من العامة والخاصة على السواء وما أجدر المجمع اللغوية جميعها أن تتبادل مصطلحاتها ، رغبة في توحيد لغة العلم ونشرها : وإن اختلفت حول بعض المصطلحات ، فسيبيلها أن تواجه ذلك في لقاءاتها ومؤتمراتها ، وتلك رسالة اتحاد المجمع الأولى ، وإلا وقعنا في بلبلة ربما عز الخروج منها ، ويستطيع مكتب تنسيق التعريب بالرباط أن يسهم في ذلك إسهماً ملحوظاً إن وثق صلاته بالمجامع اللغوية واتحادها :

ولمجمع بغداد إسهام واضح في مجال إحياء التراث ونشره ، فتخبر طائفة من المؤلفات الطويلة وأمهات الكتب ، واضطلع بإخراجها ، وقد بذل جهدها ملحوظاً في جمع المخطوطات

القيمة من الشرق والغرب ، وبعث البعث للكشف عنها وطلبها ، وفي مكتبته قدر منها يحاول أن ينميه باطراد . ولم يتردد بعض شيوخه في أن يضطلعوا بعبء التحقيق ، وما أشقه ، فتولى الدكتور جواد على أمر كتاب « تاريخ العرب قبل الإسلام » في أجزاءه المتلاحقة . واضطلع الأستاذ محمد بهجة الأثرى بكتاب « خريدة القصر وجريدة العصر » ، وما أطول نفسه في متابعته واستيفاء تحقيقه . وأفسح المجمع العراقي صدره لبعض المترجمات القيمة ، « مقدمة الرياضيات » لهوايته الذي ترجمه محيي الدين يوسف ، « ومنازع الفكر الحديث » الذي ترجمه عباس فضلي ولم يقف عند نشر ما اضطلع أعضاؤه بتحقيقه ، بل ساعد على طبع مؤلفات أخرى قام بها باحثون آخرون ، « كالتزديدية » تأليف صديق الدملاجي ، والعلوم الطبيعية للدكتور نوري جعفر . وأعانه على ذلك أنه استطاع منذ عهد مبكر أن تكون له مطبعة خاصة ، وهذا ما لم يتيسر لمجامع أخرى .

ومجلته أصدق عنوان لعمله وإنتاجه ، سجلت فيها محاضراته ، ونشرت مصطلحاته ، وعرضت بحوثه ودراساته ، وختمت عادة بتقرير سنوي عن أعماله فيها لغة وأدب ، وعلم وفلسفة ، ونقد وتعليق . واكتفى منذ البداية بإخراجها مرة كل عام ، وما أشبهها بالحوليات ، وظهر منها حتى الآن نحو ٣٠ مجلداً .

واستكمالاً لرسالته حاول المجمع العلمي العراقي ما وسعه أن يشجع على البحث والدرس فمنح جوائز للمبرزين والمجتهدين ، وكان بين من حصلوا على جوائزهم نفر ممن يعدون اليوم في مقدمة الباحثين والدارسين العراقيين .

## الفصل السادس

### ٦ - مجمع عمان

مهد له منذ زمن ، بإنشاء « لجنة التعريب والترجمة والنشر » بوزارة التربية والتعليم الأردنية عام ١٩٦١ . ويظهر أن فكرته كانت أسبق من ذلك بنحو ثلث قرن ، فقد فكر فيه عام ١٩٢٤ في الوقت الذي كانت تعد فيه العدة لإنشاء مجمع القاهرة ، وقد أدت « لجنة التعريب » طوال ١٥ عاما ، وظيفة المجمع قبل قيامه ، فأسهمت بجد في الجهود المبذولة لتطوير اللغة والنهوض بها ، وكانت على صلة بالجامع القائمة . واضطلعت بعبء الإعداد لإنشاء المجمع الأردني ، ورسم نظمه واقتراح مشروع قانونه . وفي عام ١٩٧٣ أرسلت منها وفود إلى دمشق ، والقاهرة ، وبغداد ، لدراسة نظم الجامعات القائمة وأساليب العمل فيها . وكان من حظي أن أستقبل وفد القاهرة وأن أضع تحت نظره قانون مجمعنا ولوائحه ، وصورة كاملة لما يجري فيه ، وسعدنا بأن يشترك معنا في جلسة من جلسائنا . وصلة مجمع القاهرة بالأردن قديمة ووثيقة ، فكان بين الرعيل الأول من أعضائه المرحوم قدرى طوقان ، وخلفه زميل كريم أفدنا من درسه وبحثه ، هو الدكتور ناصر الدين الأسد .

وفي عام ١٩٧٦ صدر القانون الخاص بإنشاء مجمع اللغة العربية الأردني ، وكون في البداية من خمسة أعضاء عدوا مؤسسين ، ثم نما العدد شيئا فشيئا على ألا يجاوز العشرين . وعقد المجمع أول جلسة له في الشهر العاشر من العام نفسه . وهو يهدف ، مثل الجامعات الأخرى ، إلى الحفاظ على سلامة اللغة ، والنهوض بها لكي تواكب متطلبات الآداب ، والعلوم ، والفنون الحديثة ، ويحرص على توحيد المصطلح العلمي والفني ، وعلى إحياء التراث العربي والإسلامي . ويضطلع بتشجيع التأليف والترجمة والنشر ، ويدعو إلى ترجمة الروائع الأدبية والكتب العلمية ، ويتولى نشر ما استقامت ترجمته ودعت الحاجة إليه ، ويعقد المؤتمرات اللغوية في الأردن وخارجها .

ولم يبدأ عمله بانتظام إلا في منتصف عام ١٩٧٧ ، وقد رحبت به الجامعات العربية ترحيبا حارا . ولم يتردد في أن ينضم إلى اتحاد الجامعات اللغوية العربية ، وقرر الاتحاد بدوره أن يعقد ندوته المقبلة في كنفه وتحت رعايته . وفي عام ١٩٧٨ عقدت هذه الندوة التي دارت حول : « تعاليم اللغة العربية في ربيع القرن الأخير » . وقد أسهم فيها باحثون كرام من المغرب وتونس ، من السودان

ومصر ، من الأردن ولبنان ، من سوريا والعراق ، من السعودية والكويت : وأمدوها ببحوث  
ممتعة وضافية ، تكشف عن الماضي ، وتعالج الحاضر ، وتعد للمستقبل . وقد انتهت إلى قرارات  
وتوصيات لها وزنها ؛

وعاون المجمع الأردني في هذه الندوة بصدق وسخاء ، ووفر لها وسائل الدرس والبحث  
وظهرت كراستها أخيرا ، وهي تشهد بما كان له فيها من نشاط وجهد . ياكورة قيمة فعلا لمجمع  
شباب ، وهي تؤذن بمستقبل مليء بالآمال : وجدير بنا أن ندع الآن هذا المجمع الشباب يسير في  
طريقه متمنين له السداد والتوفيق ، ومن الملائم ألا نعرض لنشاطه قبل أن يمضي عليه عقد أو  
عقدان من السنين ؛

---

## الفصل السابع

### ٧ - اتحاد الجامعات العربية

فكرة نبئت منذ ربع قرن تقريباً ، فقد أتجه إليها المؤتمر الأول للجامع اللغوية العلمية الذي عقد بدمشق تحت كنف الجامعة العربية ، عام ١٩٥٦ . وأوصى هذا المؤتمر ، فيما أوصى بتأسيس اتحاد لهذه الجامعات ، وأقر مجلس الجامعة هذه التوصية في العام نفسه ، وحدد معالمها ، ورسم سبل تنفيذها : ولكنها بقيت حبرا على ورق زمنا طويلا ، برغم عودة الجمعيين إليها غير مرة ورغبتهم فيها .

ولم تخرج إلى حيز الوجود إلا عام ١٩٧٢ ، حين كوّن هذا الاتحاد ، ووضع نظامه الأساسي وقد تألفت من الجامعات الثلاثة القائمة ، وهي مجمع دمشق ، ومجمع القاهرة ، ومجمع بغداد : واتخذ مدينة القاهرة مقرا له : وفتح بابه لكل مجمع لغوي علمي تنشئه "دولة عربية" ، ويرغب في الانضمام إليه : وحددت أهدافه بوضوح ، وأخصها تنظيم الاتصال بين الجامعات اللغوية العلمية ، وتنسيق جهودها في الأمور المتصلة باللغة العربية وتراثها ، ويهدف أيضا إلى توحيد المصطلحات العلمية والفنية والفاظ الحضارة في العالم العربي بأسره ، وييسر أمر نشرها ، ويدعو إلى استعمالها والإخل بها .

• • •

أوما إن تكون هذا الاتحاد ، حتى أخذ يؤدي رسالته : وحاول أن يقيم في العواصم العربية الكبرى ندوات متلاحقة تعالج مشاكل لغتنا المعاصرة وترسم سبل حلها : وتشترك الجامعات المؤسسة في هذه الندوات وتعد لها ، ويدعى إليها بعض المختصين والمعنيين بأمرها ، وحرصت المنظمة العربية للثقافة والعلوم على متابعتها والإسهام فيها : ودرج الاتحاد على أن يضع لهذه الندوات ورقة عمل تحدد الهدف ، وتبين الغاية .

وأولها ندوة دمشق التي عقدت في ماير عام ١٩٧٢ ، ودارت حول المصطلحات القانونية ، فعرض فيها قدر من مصطلحات القانون المدني والتأمينات ، والتانون الإداري والتجاري والبحري : وأسهم فيها إلى جانب الجمعيين ، مايزيد على عشرين من رجال الفقه والقانون السوريين ، وانضم إليهم عدد من العراق والأردن ، ولبنان ومصر : وقضى هؤلاء جميعا بضعة أيام في درس وبحث صباح مساء ، والتقوا في أغلب ماعرض ، ولم تصل نسبة الخلاف إلى ٥ ٪ منه : وأخذ الاتحاد نفسه بأن يسجل محاضر هذه الجلسات ، وأن يخرج لكل ندوة دراسة توضح الموقف وتنبه بالقرارات ،

وفي العام التالي ( ١٩٧٣ ) اتجه الاتحاد نحو بغداد ، لكن يعقد فيها ندوة حول المصطلحات البترولية . ولم يكن غريبا أن تربط المصطلحات النفطية بالعاصمة العراقية ، فللعراق سبق في مواجهة الكشف عن النفط وتكريره وتصديره ، وهو في مركز وسط بين البلاد البترولية الشرقية كالسعودية ، والكويت ، والإمارات العربية . على أن الاتحاد لم يقف عند هذه البلاد وحدها ، بل وجه الدعوة إلى المعنيين بالنفط في البلاد العربية جميعها شرقا وغربا . وعمرت ندرته بجميع كبير منهم . درسوا وبحثوا ، وأقروا قدرا غير قليل مما عرض عليهم . وقد اشتملت كراسة العمل على نحو ١٠٠٠ مصطلح ، نصفها في الجيولوجيا ، والنصف الآخر في الكيمياء . ولم يدخل عليها تعديل يذكر ، وبجئت كلها في الكراسة النهائية لهذه الندوة .

وعقدت الندوة الثالثة عام ٧٦ بالجزائر ، تقديرا لما بذلته خلال السنوات العشر السابقة من جهود متصلة في سبيل نشر العربية ، وتثبيت أقدامها . ورأى الاتحاد أن يكون موضوع هذه الندوة : « تيسير تعليم اللغة العربية » ، آملا أن يكون في ذلك إسهام فيا يضطلع به التطور الشقيق ، فيفتح آفاقا جديدة ، ويوجهه نحو تطبيقات وتجارب سابقة .

وتقد أشارت الندوة في وضوح إلى ما للبيت من شأن في كسب اللغة وتعلمها ، إلى جانب ما تضطلع به المدرسة . وللقرأة شأن كبير في تنمية الثروة اللغوية ، ودعت الندوة إلى العناية بمكتبة الطفل بوجه عام ، وإمدادها بما يتلائم مع مراحل السن المختلفة ، ونوّهت بمكتبة الفصل خاصة ، وهي سُنّة أخذت بها مدارس مختلفة في الشرق والغرب ، وما أجدرنا أن نعممها ونلتزم بها .

ووقفت الندوة طويلا عند علم النحو ، وما ينبغي أن يقدم منه للناشئين . وقديما ظن خطأ أن الأجرومية هي السبيل الوحيد لتعلم اللغة ، وتتمنّى فيها المختصون إلى حد أنها أصبحت عبئا ثقيلا على الطلاب والدارسين . ونشأت عمدة النحو الذي أصبح شبحا يرهبه التلاميذ . وقد بدأنا منذ أوائل هذا القرن في مطاردة هذا الشبح ، وتيسير تعليم النحو على الناشئين ، وخطونا في ذلك خطوات ملحوظة :

وتمهيدا لهذه الندوة ، رأى الاتحاد أن يوضح هذه المشكلة أمام الجامعات الثلاثة ، وأدلى فيها كُله بدأوه . وحرص أيضا على أن يسهم في حلها القائمون على أمر تعليم اللغة العربية في العالم العربي بأسره ، ولبي الدعوة منهم نفر كريم . وعقدت الندوة ست جلسات ، وعمرت بالدرس والبحث ، وانتهت إلى طائفة من القرارات والتوصيات وفصلت التول في مشكلة النحو ، وقدمت فيها حلولاً لانشك في أنه سيفيد منها الدارسون والمربّون .

وفي عام ١٩٧٦ أنشئ مجمع اللغة العربية الأردني ، ورحبت به الجامعات العربية الثلاثة . وفي عام ١٩٧٧ انضم إلى اتحاد الجامعات اللغوية العلمية ، وقرر الاتحاد أن يعقد ندرته الرابعة في كنفه وتحت رعايته .

وفي عام ١٩٧٨ عقدت هذه الندوة، ودارت حول : « تعليم اللغة العربية في ربيع القرن الأخير » ، وقد أسهم فيها باحثون كرام من المغرب وتونس ، من السودان ومصر ، من الأردن ولبنان ، ومن سوريا والعراق ، من السعودية والكويت . وأمدّوها ببحوث ضافية تكشف عن الماضي ، وتعالج الحاضر وتعد للمستقبل ، وتقدم في اختصار صورة كاملة للجهود التي بذلت في تعليم العربية في ربيع القرن الأخير .

ومن هذه البحوث تغذت ندوتنا ، وفي ضوئها سارت ، فعالجت جوانب تعليم اللغة المختلفة من بيت ومدرسة ، وكتاب ومعلم ، ودرس ومحاضرة ، وصحيفة ومجلة ، ومسرح وسينما ، وإذاعة وتلفزيون . وكشفت عما في هذه الجوانب من نقص ، ورسمت سبل العلاج ، شخّصت الداء ووصفت له الدواء . وانتهت إلى توصيات شاملة ، وليس الأمر في الواقع مجرد اقتراحات وتوصيات ، بل الأمر أمر عمل وتنفيذ ، وهذا مانرجوه من السادة القائمين على أمر التعليم في عالمنا العربي .

وقد تفضل جلالة الملك "الحسين" ، فتوّج هذه الندوة برعايته ، وافتتحها بنفسه ، وأنعم على رؤساء الجامعات الثلاثة الضيوف بوسام الاستقلال من الدرجة الأولى . وكل هذا إسهام وتقدير للجهود المبذولة في خدمة اللغة ، وظهرت كراسة هذه الندوة شاهدة بذلك .

\* \* \*

هذه نماذج من نشاط اتحاد الجامعات العربية ، ولما يبلغ العاشرة من عمره . وقد توقف نشاطه بعض الشيء في العامين الأخيرين ، وما أجدرنا ألا ندع السياسة تعلو على العلم والثقافة وكلنا رجاء أن يتابع الاتحاد سيره ، وأن يستعيد جهوده المثمرة . ورسائله ، ولاشك ، قيمة ونافعة ، ويحرص شيوخنا المجمعون عليها حرصاً أكيداً ، ويرغبون أن يؤدوها دائماً في صدق وأمانة .





الباب الثاني  
—  
الاستقبال



## البَابُ الثَّانِي

### الاستقبال

---



## مقدمة

---

سُنَّة استنيتها الأكاديمية الفرنسية منذ عدة قرون ، وأخذنا بها بعد أن مضى على قيام مجمعنا بضع سنوات ، وأصبحت تقليدا مستقرا نستمسك به ولا نخرج عليه ، سواء أكان المستقبلون أفراداً أم جماعات . فدرج المجمعون على أن يستقبلوا زملاءهم الجدد ، فيعرفون بهم ، ويكشفون عن علمهم وإنتاجهم . وعلى العضو المستقبل أن يتحدث بدوره عن العضو الذى حل محله ، فيحيى ذكره ، وينوه بجهوده وعطاءه داخل المجمع وخارجه .

وفى هذا الاستقبال درس وبحث ، وكشف عن مثل تحتذى ، وقيم إنسانية لها وزنها . وفيه أيضا تاريخ معاصر يسجل عن خبرة حقة ، وصلات مباشرة ، ونزاهة تامة ، وما أحوجنا إلى أمثال هذا التسجيل . وفيه أخيرا توجيه وإرشاد ، وبيان لمشكلات وصعاب قائمة ، لغوية كانت أو ثقافية ، ومحاولات جادة لحلها وتذليلها .

وقد قدر لى فى عشرينى الطويلة للخالدين ، أن أستقبل منهم عددا غير قليل . استقبلتهم جماعات ووحدا ، باسم المجمع أو باسم رئيسه ، وسأقتصر هنا على من كلفنى المجمع باستقبالهم . ومما يؤسف لى أن هذا الاستقبال يكاد يقف عند المجمعين وحدهم ، مع أن جلسته علنية ، وبابها مفتوح للجميع ، ولاتعير وسائل الإعلام هذه الجلسات كل ما تستحق من عناية ، ونأمل أن يكون فى نشرها ما يوجه الأنظار إليها .

---

## الفصل الأول

### ١ - العشرة الطيبة

تكوّن مجمع القاهرة أول ما أنشئ من عشرين عضواً ، ثم أضيفت إليهم عشرة آخرون عام ١٩٤٠ . ولم يكدهم يمضي على ذلك ست سنوات حتى رأى زيادة العدد مرة أخرى ، فرفع عام ١٩٤٦ إلى أربعين عضواً كنت واحداً منهم ، وهم على حسب نص المرسوم الصادر بهم كما يلي :

١ - الدكتور عبد الرزاق أحمد السهوري :

٢ - الدكتور إبراهيم بيومي مذكور .

٣ - الدكتور عبد الوهاب عزام .

٤ - الأستاذ زكي المهندس :

٥ - الدكتور أحمد زكي .

٦ - الشيخ محمود شلتوت :

٧ - الدكتور محمد شرف :

٨ - الدكتور مصطفى نظيف :

٩ - الأستاذ محمد فريد أبو حديد :

١٠ - الشيخ عبد الوهاب خلاف :

وتولى المرحوم أحمد أمين ، باسم المجمع ، استقبالهم ، وقد سماهم « العشرة الطيبة » . وأريد بي أن أتحدث باسمهم ، وأن أرد على كلمته الكريمة ، فقلت :

إن هذه المؤسسة التي يرعاها الجمعيون وليدة حاجة شعر بها العامة ، ولمسها الخاصة ، ومبعث أمل ترجيه مصر والشرق معها ، بل البلاد الإسلامية على اختلافها . وهي سبيل نهوض وتجديد يفتح على الناطقين بالضاد ألواناً من الألفاظ المستساغة والعبارات السليمة ، وييسر لهم وسائل التفاهم في حياتهم العلمية والعملية وهي أيضاً منار هداية يجمع الناس على اصطلاحات مشتركة ، ودوا متفق عليها ، وليس شيء أبعث على الاضطراب والبلبلة في أمة من أن تختلف فيها الألسنة والأقلام ، والمجمع أخيراً رمز خلود وأبدية ، فهو ليس ابن الأمس واليوم فحسب ، بل هو ملك الغد الدائم المستمر . يعمل فيه الجمعيون باسم الحاضر وتحت سلطانه ، ويحرصون أيضاً على أن يلائموا بينه وبين الماضي ، ويحاولون أن يتخذوا منهما عدة للمستقبل :

ولقد قام الخالدون على مجتمعهم هذا ثلاث عشرة سنة أو يزيد ، في رغبة صداقة وعرض أكيد ، آمنوا برسالتهم إيماناً حازماً ، فلم تقعد بهم عن السير هوجاء السياسة ولا أعاصير الحروب ، ولم يصرفهم عنها اعتراض ولا نقد غير نزيه . واستطاعوا في هذه الفترة القصيرة أن يرسموا معالم عملهم ، وأن يحددوا منهجه ، وبدلوا كثيراً من صغابه . وأصبحوا ولهم تقاليد لا نملك إلا أن نأخذ بها ونسير عليها :

ويسعدني أن أشكرهم الشكر كله باسمي واسم زملائي على تلك الكلمات الطيبة التي تفضل بها السيد الرئيس والأستاذ أحمد أمين . كلمات شرفنا بها ، وأسبغت علينا ما نرجو أن نكون أهلاً له . ونقدر حقاً حفاوتهم بنا ، وكرم استقبالهم لنا . وليس شيء أحب إلينا من أن نضع يداً في أيديهم ، وأن نحمل العبء معهم . وسنفيد لا محالة من دروسهم وبحبهم . وقد غرسوا في مجتمعهم معاني كريمة أحرص على أن أنوه بها ، وأخصّصها أمور ثلاثة هي :

عمل في صمت ، وتعاون صادق ، واعتدال وحكمة .

فأما صمتهم فقد ضربوا فيه مثلاً لا يبارى ، وبدا وكأنه نغمة مريحة في موسيقانا اليومية الملأى بالخلبة والضوضاء . يعملون في هدوء ، وينتجون في سكون ، وإنتاجهم الهادئ نسخة وحيدة في جونا الذي أفسدته الدعاية والإعلان . ويملاً هذا الإنتاج محاضر وملفات لم تر النور بعد ، على ما فيها من درس عميق وبحث مستوف ، لم تتوافر لهم وسائل نشرها ، ولم تطب أنفسهم للإعلان عنها . وكأن أجهزة الإعلام لا تراهم ولا تسمع عنهم ، وهي فيما يبدو لا تكاد تغني بهم . ولا يقل هذا من عزمهم في شيء ، ويتابعون في صمت عملهم الهادئ الرصين :

وأما تعاونهم فصديق وأكيد ، مبعثه شعور عميق بالواجب وتفان في أدائه ، واتفاق تام عليه يتعاونون باسم العربية والنهوض بها ، ويتسابقون في إحيائها ورفع شأنها . وكم بهرنا منظرهم في مؤتمرهم وهم جلوس جنباً إلى جنب : المصري إلى جانب العراقي ، والسوري يفسح للفرنسي ، والألماني يؤازر الإنجليزي . صفاء وود ، وتشاور وتفاهم ، لا يباعد بينهم تعدد الوطن ، ولا يفرقهم اختلاف الدين ، وأتت لهذه الاختلافات أن تجد سبيلها إلى تلك القيادات الفكرية والثقافية ، وأولئك العلماء الأعلام . وقد ربطتهم الفصحى برباط وثيق ، يعملون باسمها ، فيعقدون لحانا متعددة ، وتنشعب أبحاثهم ، وتتعارض آراؤهم ثم لا يلبثون أن يلتقوا عند رأى واحد وكلمة سواء . وليس ثمة شيء أعون على عظام الأمور من التعاون الصادق والتضافر الأكيد .

وأما حكمتهم في آرائهم واعتدالهم في قراراتهم فذلك واضح كل الوضوح ، بأبون الطفرة ، ويؤمنون بالتدرج ، لاسيما في أمر ينمس عامة الناس وجماهيرهم ، وليس شيء ألصق بهم من لغتهم : يعرفون للقديم قدره ، ويزنون الحديد بميزانه الصحيح ، ويقفون بين هذا وذاك وسطاً .

فلا يطغى جديد هزيل على قديم حى سليم ، ولا يقف العتيق البالى فى سبيل النهوض والتجديد ، وما ذاك إلا لأنهم يؤمنون فعلا بأن اللغات فى حركة مستمرة وتطور دائم ، وواجبهم يتنسى بأن يتعهدوا العربية لكي تتحرك فى اعتدال وتتطور فى أمان وطمأنينة .

\* \* \*

والفيلولوجيا المقارنة تقرر حقا أن اللغات جميعها تخضع لقانون السير والحركة ، والتغير والتبدل ، شأنها فى ذلك شأن الظواهر الاجتماعية المختلفة ، وتاريخ اللغات خير شاهد على ذلك . فالإيونانية مثلا بدأت ، أول ما بدأت ، فى صورة لهجات متعددة ورطانات متباينة . ثم تصارعت هذه اللهجات فيما بينها ، وتولدت عنها اللغة اليه نانية الغزيرة المادة ، السهلة التراكيب ، الواضحة النطق . وقد بلغت هذه اللهجات أوجها فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد ، وهذا هو العصر الذهبى للأدب الإيونانى . وفيه ظهرت تراجيديا سوفوكلى ، وكوميديا أرسطوفان ، وفلسفة أفلاطون وأرسطو . ثم أخذت الإيونانية تضعف شيئا فشيئا ، وأخذت تغطى عليها اللاتينية ، واقتصر تعلمها فى القرون الوسطى على بعض الخاصة ، كما هو الشأن اليوم . ولم تبعث من مرقداتها إلا فى بلاد اليونان حديثا ، على أن يونانياتهم تختلف عن الإيونانية الكلاسيكية ، وهى يونانية تلاثم عصرها وبيتها .

ولم تصل العربية إلى ما وصلت إليه فى عصر المملكات من غزل امرئ القيس ، وحماس مهلهل وفخر ابن كلثوم ، إلا بعد أن مرت بأدوار ومراحل إعداد وتكوين طويل . ثم جاء الإسلام فهذب حواشيا ، وصقل ألفاظها ، ورقق عباراتها . واستمرت تنمو وتغزر لفظا ومعنى ، وتقوى وتزدهر فى عهد الدولة الأموية والصدر العباسى ، وبلغت الذروة شعرا ونثرا ، خطابة وكتابة ، حوارا وحديثا . ولكن الزمن يهدم ما بنى ، ومنذ القرن السادس الهجرى أخذت اللغة بل الثقافة العربية كلها تنحدر وتتضاءل . فدخل اللغة الغريب والفاصد ، وجمدت ألفاظها ، وتعقدت تراكيبها ، وسرت فى تعبيراتها صنعة بغیضة وعقيدة ، من سمج وحناس ، وترادف وتكرار وركدت الحركات الفكرية يوم أن ركذ القائمون عليها ، ويوم أن يركذ الفكر تركذ اللغة معه . وفى أوائل القرن الماضى بدت بواكير وعى ويقظة فى التفكير والتعبير ، وأخذت العربية تنهض مرة أخرى بنهوض المتخاطبين بها . وأصبحنا فى القرن العشرين نباهى بنثر لا يقل عن نثر الجاحظ ، وشعر يسنو إلى مرتبة شعر البحترى والمتنبى ، وتستأنف العربية حياة جديدة لها خصائصها وميزاتها . والفرنسية لغة الوضوح والدقة وليست فى أصلها إلا ضربا من اللاتينية الدارجة ، وقد اختلطت بعناصر جرمانية ، وتأثرت ببيئة وظروف خاصة ، ثم أخذت تنمو وتتكون على مر الزمن . ومضت القرون العشرة الأولى للميلاد فى مرحلة هذه النشأة . وكان لابد أن ننتظر إلى القرن الحادى عشر لئرى الفرنسية القديمة فى ميزاتها وخصائصها . وكأنا كانت تنمو بنمو الأمة الفرنسية نفسها وعظمة مجدها ، وقد وصلت إلى قممها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، حين ظهر كبار

الفلاسفة والكتاب والشعراء ، أمثال ديكارت وراسين ، وروسو وفولتير . وفي القرن التاسع عشر ظهرت في الفرنسية ألوان جديدة من النظم والنثر ، ومذاهب مستحدثة في الأدب ، كالرومنسية ، والرمزية . ولا تزال تسير في طريقها إلى اليوم ، بين تنوع وتجدد ، وتحول وتغير .

\* \* \*

وضحت أمامنا إذن حركة اللغات في قوتها وضعفها ، في سرعتها وبطئها . ويحق لنا أن نتساءل هل لهذه الحركة أهداف ترمى إليها ، وإن كانت فما هي ؟ يزعم بعض اللغويين أن اللغات في تطورها هدفاً أسمى تنشده ، ومثلاً أعلى تسعى إليه ، وهذا المثل هو غاية الغايات . فلنكل لغة مثلها الأعلى ، وهو الذي ينبغي أن يحاكي ويحتذى ، بل هو اللغة بمعناها الكامل . ويتمحق دائماً في عصور الازدهار وحدها ، فليس ثمة لغة يونانية إلا تلك التي جرت على لسان أفلاطون وأرسطوفان ولا عربية إلا تلك التي عرفت في الجاهلية والإسلام حتى صدر الدولة العباسية ، وهي لغة الاستشهاد كما يقولون . وليس ثمة فرنسية إلا تلك التي أنتجها القرنان السابع عشر والثامن عشر ، وعلى الخلق أن يحاكيوا السلف فيما قالوا به ، ولا يملكون أن يخرجوا عليه . وعلى هذا إن لم يراع العربي ، ابن القرن العشرين ، أوصاف طرفة وتشبيهات بشار بن برد ، فليس بفصيح .

تلك قضية سادت في أخريات القرن الماضي ، وأوائل هذا القرن ، واستمسك بها كثيرون من لغويينا وأدباؤنا . ولكن ظهر اليوم زيفها ، واستبان للناس أنها تخلط بين اللغة والأدب ، واللغة شيء والأدب شيء آخر ، وقد يضعف الأدب ، وتبقى اللغة وسيلة للتعبير والتفاهم . وليس ثمة لغة مثالية يقدها الناس ويستمسكون بها ، ويعدونها الكمال المطلق ، بل بالعكس أكمل اللغات أقدرها على محاكاة العصر والتمشي معه ، وأوفاهما بالتعبير عن حاجات المجتمع ومتطلباته .

\* \* \*

إن اللغات في حركة مستمرة ، ومن العبث أن نعترض طريقها ، أو أن نفرض عليها قوالب جامدة لا تلبث أن تخرج عليها . ولا محل لأن نلزم الناس بلغة مثلى يجب أن يقفوا عندها وحدها واللغة الحية هي تلك التي تصدر عن روح العصر ، وتتمشى مع مطالبه . إنا نعيش في عصر السرعة ، وأصبحنا لا نطبق الكلمات الطنانة الرثانة ، ولا التكرار الملل .

ونعيش في عصر الحرية ، ولا يلائمنا إلا الجلاء والوضوح .

هذا ما نريده للغتنا ، وهذا ما ينبغي أن نأخذ أنفسنا به .

## الفصل الثاني

٢ - محمد كامل حسين (١٩٥٢)

منذ ربع قرن أو يزيد ، كنا نتسابق إلى صحيفة أسبوعية ، لما عرفت به من دقة النقد ، وعمق التحليل . وقد لفت نظري مقالات نشرت في تلك الصحيفة تحت اسم مستعار ، هو « ابن سينا » . وحاولت أن أتعرف « ابن سينا القرن العشرين » فتبينت أنه طبيب شاب ، حصل على دبلوم الطب ، ولما تجاوز الثانية والعشرين من عمره . ثم أمضى سنتي الامتياز في قصر العيني ، وأوفد في بعثة إلى إنجلترا عام ١٩٢٥ ، ومن هناك كان يرسل صحيفتنا الأسبوعية . وقد عالج موضوعات شتى ، من بينها : « مهمة الجامعة المصرية » ، « الصحة العامة لدى الفلاحين » ، « اللغة العربية » ، « الأبحاث العلمية : نقصها ووسائل علاجها » ، إلى غير ذلك من مقالات لم تخل من نقد جري ، وتحليل عميق . ذلكم الكاتب والطبيب الشاب هو الدكتور محمد كامل حسين الذي أسعدني المجمع بأن استقبله اليوم .

أمضى طبيبنا خمس سنوات في إنجلترا جادا محصلا ، ونال ألقابا علمية ممتازة فحصل على زمالة الجراحين الملكية ، وعلى ماجستير جراحة العظام من جامعة ليفربول . وفي سنة ١٩٣٠ عاد إلى مصر ، فتلقفته كليته التي نشأ فيها ، وانضم إلى هيئة التدريس بها ، مدرسا ، فاستاذ مساعد ، ثم استاذ . وقد قضى في هذه الكلية نحو تسع سنوات يشغل كرسى « أستاذ جراحة العظام » ، إلى أن دعى عميدا لجامعة إبراهيم عام ١٩٥٠ . حباة وقفت كلها على العلم والدرس . وفي الواقع قل أن نجد من يقبل على العلم لإقبال كامل حسين ، وقل أن نجد من يحب القراءة حبه . فلا تذهب إلى محاضرة هامة ، في العلم أو في الأدب أو في الفلسفة ، إلا وتراه في مقدمة المستمعين ، ولا يكاد يظهر كتاب قيم ، في العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية ، إلا ويسارع إلى اقتنائه وقراءته . وكم ساءلت نفسي ، حين ألقاه في بعض تلك المحاضرات ، كيف استطاع أن يوفق بين هذا وبين أعبائه المتعددة والمتنوعة . فهو إلى جانب أستاذه ، له عيادته الخاصة ، ومستشفياته ، وجراحانه الدقيقة ، ومرضاؤه الذين يعودهم في بيوتهم . وقف نفسه على العلم والطب ، وتعهده المرضى ، ومجاملة الأصدقاء . وتقاسمته هيئات علمية متعددة ، بين مصرية وأجنبية ، فهو عضو في المجمع المصري ، وفي أكاديمية الجراحة بباريس ، وعضو مراسل في الجمعية البريطانية لجراحة العظام .

هذا هو كامل حسين في نشأته ، وتكوينه ومؤهلاته ، ودرسه ونشاطه ، وله نواح أخرى فسيحة . ولن أحدثكم عن كامل حسين الإنسان ، إشفاقا على حياته وتواضعه ، ولا عن كامل حسين الصديق ، لأنني أخشى أن يمتد حديثي إلى كثيرين من الحاضرين ، ممن يسعدون بصداقته ، ويعتزون بها . وليس لي أن أتحدث عن كامل حسين الطبيب ، فهناك من هو أحرى بذلك مني ،

وأشهد فقط أنه قام بعملية جراحية لابنة صديق عزيز دامت بضع ساعات ، وجاء بالمعجزات ، وحقق ما لم يحققه أحد كبار الأطباء العالمين : وكل ما أريد أن أحدث عنه جانبان : كامل حسين العالم ، وكامل حسين الأديب :

• • •

وكامل حسين عالم حقا ، وبأدق معنى لهذه الصفة ، فهو يؤمن بالتجربة إيمانا لا يقل عن إيمانه بالعقل : يؤمن بالتجربة ، لأنها سبيل كسب المعلومات والكشف عن الحقيقة : ويلاحظ بحق أن ميزة الطب الحديث هي أنه طب التجربة والملاحظة ، في حين أن الطب القديم ، أو بعبارة أدق طب اليونان ، اعتمد على الوصفات الشائعة والقضايا المسلمة : وكان يرى أن الاتصال المباشر بالطبيعة ، عن طريق الملاحظة والتجربة ، يربطنا بها ، ويقفنا على سيرها ، ويمكننا من أن نستنتج ونستنبط ونكشف عن قوانينها ، وينتهي بنا إلى أن نجاريها في نسقها : لهذا كله عني كامل حسين بالتجربة ، ودعا إليها في مناسبات شتى : دعا إليها مبكرا في رسائله التي بعث بها من أوروبا إلى « السياسة الأسبوعية » ، ففي حديثه عن مهمة الجامعة المصرية يعلن عن حاجتنا الماسة إلى العلوم التجريبية والتوسع فيها : وطالب بمعامل أتم وأكمل من تلك التي عرفناها في مدارسنا القديمة ، لأن العمل هو منبت العلم الحديث : وسمعته أخيرا في محاضرة ألقاها على طلبته في كلية الطب ، وفرق فيها بين صناعة الطب وعلم الطب : ولاحظ أن صناعة الطب تقنع بطائفة من المعلومات والحقائق التي تعيش على تشخيص الداء وكشف الدواء ، أما علم الطب فيقوم على التحليل والبحث ، والكشف والاختراع ، والحركة المستمرة المحددة : وهو لا يرضى لأطبائنا أن يكونوا صنعا ، بل يناشدهم أن يحرصوا على أن يكونوا علماء :

ويؤمن كامل حسين بالعقل إيمانا جازما ، لأن التجربة تنصب على الجزئيات ، والعلم ينشد الأنكحام الكلية والمبادئ العامة ، وسيلها العقل وهو يريد ذلك العقل الذي يحلل ويعمل ، وينقد ويناقش ، ويخترع ويبتكر ، لا عقل القرون الوسطى الذي كان ينضغ ويسلم ، ويحاكي ويقلد : وبالعقل السليم الذي يقوم بتفكير مستقيم ، ويحكم في غير هوى ، ويلتزم بالصدق والنزاهة . وهو في ربطه العلم بالعقل ذلك الربط الوثيق ، يدرك في وضوح الصلة بين الطب والفلسفة ، ويأخذ على بعض الأطباء إغفالهم لهذه الصلة : ولا غرابة فهو نفسه فيأسوف بقدر ما هو عالم وطبيب : والعلم عنده عقلية ومنهج ، وفي الفاسفة ما يعين على كسبها كسبا حقيقيا . وإذا كان الطب المصري لم يخط في رأيه خطوات فسيحة في الخمسين سنة الأخيرة ، فما ذاك إلا لأنه لم يعالج منهجيا علما مستقيما :

كامل حسين مولع بالمنهج والدراسة المنهجية ، ويؤثر منهجين واضحين في دراساته ، وهما : المقارنة ، والتحليل : فيقارن الظواهر بعضها ببعض : ويقارن الذكرى بالأخرى : يقارن ليكشف عن مواطن الضعيف والقوة ، ويتبين جوانب الكمال والنقص . وتعتمد دراساته التاريخية

بوجه عام على الموازنة والمقارنة ، فيقارن بين طب قدماء المصريين وطب اليونان ، بين الكيمياء القديمة والكيمياء الحديثة ، بين محنة خلق القرآن لدى المسلمين ، ومحنة تجسد المسيح عند المسيحيين : عول باختصار على المنهج المقارن ، وأفاد منه ما وسعه ، أما التحليل فهو سبيل من سبل الكشف والابتكار ، والغوص على الحقائق ، والتعمق في الدرس . وإذا كانت النهضة الأوروبية قد جاءت بمجديده في رأيه ، فما ذاك الجديد إلا تجربة ببيكون ، وتحليل ديكرت . ولا يقنع عالمنا بتطبيق التحليل على العام وحده ، بل يطبقه على الأدب أيضاً ، ويقدم في ذلك أمثلة رائعة .

\* \* \*

وكامل حسين أديب من طراز خاص ، وأدبه دون نزاع ثمرة قراءته المستفيضة ، وحسه المرهف ، واطلاعه الواسع . وقد اختلط أدبه بالعلم والفلسفة ، بالاجتماع والتاريخ . ويظهر أنه لم يتح له في صباه أن يغترف كثيراً من بحار الأدب ، فقد مرّ بمراحل التعليم العام العادية في المدرسة الابتدائية ، والثانوية ، ومن هذه إلى كلية الطب ، وليس في ذلك كله زاد أدبي يذكر . حقاً إنه حاول أن يقول الشعر في صباه ، على غرار كثير من الشبان ، ولكن لم أقف من شعره على شيء يعتد به ، ووقعت على قصيدة له بعنوان : « لقمان والمريض » ، في نحو مائة بيت ، وليس فيها ما ينوّه به ، وكأني به في عقلية المنطقية والعملية كان أميل إلى النثر منه إلى الشعر .

وأستطيع أن أقرر أن علمه نمت ميوله الأدبية ، لأنه كان يرى أن الحقائق العلمية في مسيس الحاجة إلى تعبير سليم يكشف عنها ، ولغة سهلة تقرّبها إلى الأذهان . والعلم والأدب متصلان ومتعاونان وما أعذب لغة كامل حسين وأسسها . وكان يشعر بأن العربية المعاصرة لا تواجه دائماً متطلبات العلم والفن ، وهو يريد أن يطوعها لذلك ، وأن يجعل منها لغة حية متحركة ، سهلة سائغة . ويكنى أن أشير إلى تعليق له عام ١٩٤٢ على « دعاء الكروان » يخاطب به صاحب الكتاب : « آمل أن أرى يوماً هذه اللغة الشعرية تنحدر دون ابتذال ، ودون أن تفقد من رونقها شيئاً إلى أن تصبح أداة فعالة لمجرد رواية حادثة ، وشرح موقف ، وأنت على هذا قدير ، فهي في يدك طيبة سلسلة القياد » . وقد أسهم كامل حسين مع صديقه طه حسين في هذا المضمار ، فطوّع اللغة ما وسعه ، وأدى أدق المعاني وأعقدّها أحسن أداء . و « متنوعاته » التي ظهرت أخيراً أصدق شاهد على ذلك فيها علم وأدب ، وسهولة ووضوح ، يعرض الحقائق العامة عرضاً طلياً يقرّبها للأذهان ريسر فهمها على القراء . ينحو بالأدب منحى علمياً ، فيحلل فيه ويجرب ، ويناقش ، ويعمل .

وسبق لنا أن أشرنا إلى ولوع كامل حسين بالتحليل وحرصه عليه ، وقد استخدمه في أدبه كما استخدمه في بحوثه العلمية . فيستعين بنظرية التحليل النفسي التي قال به « فرويد » و « يانج » — برغم عدم تسليّمه بها سيكولوجياً — في توضيح بعض الظواهر الأدبية . فيلاحظ

مثلاً أن مافى شعر المتنبي من تعقيد لم يجيء عفواً ، وإنما كان وليد عقدة نفسية ، ذلك لأن هذا الشاعر الذى شغل الدنيا وملا الأسماع قد خاب أمله ، وأخفق فى محاولات شتى ، وفى هذا ما دفعه إلى أن يضع أمامه صعوبات يخدع بها نفسه ، ويقتنع بأنه يستطيع أن يفعل ما يريد . وعلى نحو من ذلك يمكن أن يوضح إنتاج شعراء وأدباء آخرين ، وفى وسعنا ، فى ضوء التحليل أيضاً ، أن نوضح بعض الظواهر الاجتماعية ، فالحرمان والكبت قد يؤديان إلى انفجار لا يقل خطراً عما يترتب على الشدة والبطش ، والثورات الفكرية ترجع غالباً إلى محاربة الأقلام وكبت الأذهان .

ويلهب كامل حسين إلى أن الدولة العثمانية ، مثلاً انهارت بسبب الحرمان أكثر مما أثر فيها البطش والاستبداد . ويرى أيضاً أن الكيمياء القديمة ، أو علم الصنعة الذى كان يهدف إلى تحويل معادن خسيسة إلى معدن نفيس ، إنما ساد فى القرون الوسطى ، لأنه كان ضرباً من الأحلام التى تحقق للناس فى الخيال ما لم يجدوا السبيل إلى تحقيقه فى الواقع . ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه الآراء ، وإنما أوردناها فقط لنبين مدى تأثير أدب كامل حسين بالتحليل ، فهو أدب تحليلي يقاس فيه اللفظ بمقياس المعنى ، فإن لم يلائمه عدل عنه إلى لفظ آخر أكثر ملائمة ، وما يقال عن اللفظ يمكن أن يقال عن الجملة سواء بسواء .

ويعنى كامل حسين العناية كلها بالسهولة والوضوح ، فلا يرضى اللفظ الغامض ، ولا تطيب نفسه للتعبير المعقّد ، وبدا يسير قارئه معه فى يسر وسلامة ، وقد هانت عليه الأفكار البعيدة الغور ، واستساغ البرهنة المحكمة الحلقات — ولا يسعنى إلا أن أقدم نموذجاً وحيداً لهذا الأسلوب فى حديث كامل حسين عن « بردية أوين سميث » ، وهى رسالة قديمة فى الطب خلفها أحد قدماء المصريين ، فيقول : « منذ نيف وخمسة آلاف سنة ، ذهب رسل فرعون إلى قرية من قرى مصر ، يخرجون طائفة من شبابها إلى حيث يريد فرعون أن يبني هرمه الأكبر . وكان أصغرهم لم يتجاوز العشرين من عمره ، ولا يختلف فى قليل أو كثير عن أقرانه ، فكلهم لا يعلمون من أمور الدنيا إلا ما دلتهم عليه خبرتهم الطويلة بحرث الأرض وزرعها ، ولا يعلمون من أمور دينهم إلا أنه يفرض عليهم الطاعة لأولى الأمر منهم ، وأن لهذا الدين سرّاً لا يعرفه إلا الكهنة ، ولا يمكن لمثلهم السمو إلى إدراكه : وكان أصغرهم هذا لا يدري ما ينبغي له الدهر ، وكان لا يشك فى أنه سيعمل فى البناء كما عمل غيره من قبل . ولم يكن هناك ما يدل على أن له مواهب خاصة ستجعل عمله خالداً ، ولو كشف له الغيب فرأى أن عمله سيكون موضع دراسة دقيقة مستعصاة بعد موته بخمسين قرناً ، لدهش غاية الدهشة ، فهو على ثقته بنفسه — بعد أن كملت خبرته — لم يكن به من الزهو شيء . والواقع أن

صاحبنا هذا أوتي ثلاث مواهب : التفكير السليم ، ودقة الملاحظة ، والذاكرة القوية التي نعي كل ما يرى : والناس صنفان : أحدهما يتعلم عن طريق البصر ، والآخر عن طريق السمع ، وصاحبنا علمه كله عن طريق البصر ، وكأني به لم ينس شيئاً مما رآه في حياته الحافلة الطويلة » :

ثم يقول كامل حسين في وصف وعرض دقيق : « هذه الرسالة — رسالة هذا العالم المصري القديم — رسالة فذة ، لأنها أول رسالة في العالم ، ولأنها أول رسالة فيها مصطلحات علمية تفخى على غير المختصين . وهي فذة في تبويبها ، فقد جعل صاحبها وصفه للحالات مرتباً من قمة الرأس ، إلى الوجه ، إلى الصدر ، إلى الرقبة ، ثم الترقوة والعضد . ولا شك أنه استمر على هذا التبويب ، ووصف الحالات ، مبتدئاً بأبسطها وأسهلها علاجاً » . تلك الرسالة الفرعونية القديمة التي تعرض لطب العظام ، حرص كامل حسين الطيب والزميل على أن يترجمها في « متنوعاته » ، فكان سهلاً في ترجمته ، كما كان سهلاً في وصفه للرسالة والتعليق عليها .

• • •

على هذا النحو يريد كامل حسين أن يقدم العلم للقراء وجمهور المثقفين : وأشهد أني في كلمتي هذه لم أتحدث عنه إلا باسم العلم والأدب ، ويطيئ أني لم أوف هذا الحديث حقه وما هو ذا كامل حسين يأخذ مكانه في الصومعة الخالدة بين زملائه من الخالدين الذين ألفوا — كما ألف — أن يعملوا في صمت وسكون . وإن العلم والأدب واللغة تنتظر منهم جميعاً الشيء الكثير :

---

## الفصل الثالث

### ٣ - محمد الفاسي (١٩٥٩)

لم يكن مقدراً لي حقيقة أن أشرف بالحديث اليوم ، ولكن طارئاً خفيفاً ألم بالدكتور طه حسين<sup>٩</sup> ، فحال دونه "وأداء هذا الواجب ، وأريد بي أن أنوب عنه وقد كان يحق لي أن أتردد في قبول هذه المهمة ، لا سيما وصلي بالزميل الكريم تقف عند لقاء في جلسة من جلسات المجمع . إلا أن هذه الجلسة نفسها هي التي شجعتني على أن أضطلع بهذا الواجب على ضيق وقى ، فلم أستطع أن أقرأ للزميل فيما كتب وألف ، وأن أتبع آثاره على اختلافها . واكتفيت بما لمست فيه من روح وثابة ومنهج سليم في جلسة الأسبوع الماضي . وأنا واثق كل الثقة من أنه سيغفر لي إذا لم أوفه حقه :



لم يفت مجمع اللغة العربية منذ البداية أن يتجه نحو شمال أفريقيا ، لكي يكون ممثلاً في بنيانه وعاملاً في تكوينه ، ومنذ النشأة الأولى حظينا بعضو بارز من تونس هو السيد حسن حسني عبد الوهاب الذي صاحب المجمع نحو ربع قرن يساهم في رسالته ، ويخدم اللغة ما وسعه : واليوم ينضم إلينا عضو كريم آخر ، هو السيد محمد الفاسي ليضطلع بالأمانة ويعاون المجمع بعلمه ونشاطه :

ولم يكن غريباً أن يتجه المجمع هذا الاتجاه ، فإن سكان شمال أفريقيا يمثلون اليوم تقريباً ثلث الناطقين بالضاد ، ولهم إنتاجهم العلمي واللغوي الواسع ، وأثرهم في النهضة العربية المعاصرة واضح ؛ وبدا تتصل السلسلة ، وتتوالى الحلقات ، وترتبط نهضة اليوم بنهضة الأمس ، ويبدو العالم العربي في مظهره الكامل :

ولا نزاع في أن الثقافة الإسلامية كل<sup>١٠</sup> متصل الأجزاء ، إن كانت نبتت في الشرق فقد تمت وترعرعت في الغرب ، ومورخها لا يستطيع أن يعطي عنها صورة صادقة إلا إذا ألم بأطرافها المختلفة : وإذا كنا نتحدث عن أدب مشرق وآخر مغربي ، فهما معاً يكونان الأدب العربي ؛ والعلوم الإسلامية على اختلافها مدينة لجهود رجال المغرب والمشرق معاً ، فالفقه المالكي الذي نبت أول ما نبت في المدينة غذي بغذاء صالح في المغرب ، بحيث لا يستطيع متحدث عنه أن يستوعب تاريخه ويلم بمصادره ، إلا في ضوء مؤلفين وباحثين من سكان المغرب أدناه وأوسطه وأقصاه :

والنقد الأدبي نشأ أول ما نشأ في المشرق ، ثم ما لبث أن وجد نقاداً ، ونقاداً ممتازين في شمال أفريقيا . ويكفي أن نشير إلى ابن رشيق القيرواني صاحب العمدة الذي استكمل درسه ، وخرج به من بحوث فرعية تتصل بشاعر وخطيب إلى بحوث مكتملة تدور حول عصر بعينه ، وبعبارة أخرى نخرج به من البحث الجزئي إلى الدراسة العلمية الشاملة . ونحاة المشرق ، وعلى رأسهم سيبويه والكسائي ، وضعوا دعائم الأجرومية العربية ، ثم أسلموها إلى إخوانهم المغاربة ، فهاجروها ، ونقحوها ، وأضافوا إليها الحديد والطريف ، ودراسة النحو في القرون الأخيرة مدينة لابن مالك المغربي بدرجة لا تقل عن أعلام المشرق الأول .

وإذا كنا نتحدث عن فلسفة شرقية وأخرى غربية ، عن فلسفة الكندي والفارابي وابن سينا ، فإننا نتحدث أيضاً عن فلسفة ابن ماجه وابن طفيل وابن رشد . وهاتان المدرستان الفلسفيتان ، وإن تعارضتا أحياناً ، تعبران عن مذهب فلسفي واحد ، وتصوران الفلسفة الإسلامية في شقيها المتقابلين .

والإسماعيلية بما اشتملت عليه من دراسات ونظريات نبتت بذورها في المشرق ، ثم امتدت إلى المغرب ، ووجدت فيها أعواناً نهضوا بها ، وبسطوا نفوذها ، واستولوا على مصر ، فكانت الدولة الفاطمية بما لها من علوم وحضارة .

فالثقافة الإسلامية إذن في ظواهرها اللغوية والفكرية وحدة متصلة الأجزاء ، اتصلت في الماضي ، ولا بد لها أن تتصل اليوم ، ولم تمنعها الفواصل الجغرافية ولا السياسية من أن تتعاون وتتضافر ، وستبقى على هذا التعاون لتستعيد مجدها الغابر ، وتؤدي رسالتها إلى جانب الثقافات الإنسانية الأخرى .

ولا أظنني في حاجة أن أشير إلى مراکش أو المغرب الأقصى أو دولة المغرب كما تسمى اليوم ، وما كان لها من شأن في تاريخ الحضارة الإسلامية ، فقد كانت ركناً حصيناً من أركان الإسلام في شمال أفريقيا وبلاد الأندلس ، ولا تزال حتى اليوم علم الاستقلال والسيادة والدعوة القوية في بلاد المغرب عامة . ويكفي أن نذكر أنها — تمثل الآن الطرف الأقصى للعالم الإسلامي نحو الغرب وكانت ملجأ التراث العظيم الذي كونه بلاد الأندلس ، فإن كثيرين ممن جنت عليهم أحداث الأندلس لجأوا إليها ، ولا تزال أسر أندلسية قديمة تسكن مراکش الآن وتعرف بأصولها الأولى .

ومما يلفت النظر أن دولة المغرب تلتقي مع مصر في أكثر من موضع ، فهما معاً ملتقى حضارات وأجناس مختلفة ، ففي مصر تلاقى اليوناني والروماني والفارسي مع الفرعوني ، وفي مراکش تلاقى الفينيقي واليوناني والروماني مع سكان البلاد الأصليين . ويحاول البلدان كلاهما في جده الجمع بين القديم والحديد ، وربط الثقافة الإسلامية بالثقافة الغربية . وانظروا إلى جامعة القرويين من جانب ، والجامعة الأزهرية من جانب آخر وتطورهما في نصف القرن الأخير ، لتدركوا مدى سعي البلدين

إلى الملازمة بين القديم والجديد ، وفي هذه التطورات كثير من الحلقات المتشابهة والمتقاربة . ولم يمتنع المغرب بجامعة القديمة ، بل حرص على أن يضم إليها جامعة حديثة لا يساورني شك في أنها تلتقي مع جامعاتنا المصرية في نواح شتى .

ومرت مراکش ، ومصر ، أثناء القرن العشرين ، بمحن وأحداث سياسية كثيراً ما تشابكت وترابطت ، بل قامت على ضرب من المساومات والمقاسمات . إلا أن البلدين أخذتا طريقهما إلى الاستقلال والحرية ، ولن يعترض سبيل يقظتهما معترض . وتواجه مراکش ومصر مشكلة حيوية نقدرها جميعاً قدرها ، وهي مشكلة تزايد السكان في اطراد ، وهذه الزيادة ملحوظة فيهما عامة ، وبنسبة تكاد تكون متقاربة ، ولا بد لهما من أن يأخذتا أنفسهما بنهضة اقتصادية حثيثة كي يواجهها حاجة السكان التي لا تقف .

كل تلك ظروف جعلت التلاقي والتجاوب بين البلدين قديماً وحديثاً متصلًا ومستمرًا .

وها نحن أولاء نستقبل اليوم علماً من أعلام المغرب ، هو الزميل الفاضل السيد محمد الفاسي ، وما أظنني سأقف طويلاً عند حياته بقدر ما أقف عند ما نعلقه عليه من آمال وما نرتقبه منه من جهد ومساهمة .

ولد الزميل الكريم في أوائل العقد الأول من هذا القرن ، سنة ثمان وتسعمائة وألف ، ومن الطريف أن يضم مجمع الخالدين إليه شاباً فتياً وما أحوجه اليوم إلى هذا الشباب وتلك الفتوة . ولد السيد محمد الفاسي في مدينة فاس ، وتابع دراسته على النحو الذي يتابع به أمثاله الدراسة هناك ، فالتحق بالمدرسة الثانوية ، وانتقل إلى جامعة القرويين ، ثم رحل بعد ذلك إلى فرنسا ليضم تعاليم الغرب إلى تعاليم الشرق . وفي فرنسا قضى ثمان سنوات دارساً ومدرساً ، متعلماً ومعلماً ، فحصل على شهادة الليسانس ، وعلى دبلوم الدراسات العليا ، وشاء أن يتم إعداده العلمي برحلات في عواصم أوروبا المختلفة قضى فيها نحو عامين ، وبعد ذلك عاد إلى وطنه الذي كان في شوق إلى أمثاله ليرفعوا الزاية ويحملوا العبء في تنشئة الجيل الجديد . فعين مدرساً في المدارس الثانوية ، ومنها إلى المعاهد العالية ، ثم شغل بعد ذلك وظيفة مدير جامعة القرويين التي تربى فيها من قبل . واجتذبت السياسة ، فاختر وزيراً غير مرة ، وهو الآن على رأس الجامعة المراكشية الحديثة يوجهها ويرسم سياستها .

وفي أثناء الدرس والمحاضرة ، اتجه نحو التأليف والكتابة ، فوضع كتاباً عن تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، وترجم لشاعرين من شعراء الموحدين . وأعد طائفة من المحاضرات والتقارير ، واشترك في كثير من الحلقات والمؤتمرات العلمية والثقافية في الشرق والغرب .

ولم يقف نشاط السيد الفاسي الباحث الدارس عند العلم وحده ، بل امتد كما قدمنا إلى السياسة ، فكان على رأس زملائه من لجان الطلبة الأفريقيين في باريس ، اشترك معهم ، وقاد حركتهم ،

وحرر في صحيفتهم : وانضم إلى حزب الاستقلال الذي قاد الحركة حتى وصل بها بر السلامة وانتهى بالبلاد إلى الاستقلال : وكان طبيعياً أن يدعى بعد الاستقلال إلى الوزارة ، فكان عضواً في الوزارتين الوطنيتين الأوليين :

تلك باختصار حياة زميل الحديدي ، ويبدو من ملامح هذه الصورة السريعة التي عرضتها هايكم أمور يعينني أن أقف عندها قليلاً :

فنحن أولاً أمام زميل استكمل وسائل البحث والدرس وتمكن من الثقافة الشرقية في دراسته الأولى ، وتابعها في بحوثه ودراساته التالية :

وضم إليها الثقافة الغربية دارساً وباحثاً أيضاً ، ومكّنه من ذلك إلمامه بعدد من اللغات ، فهو يعرف الفرنسية كأحد أبنائها ، كما يعرف الأسبانية . ويعرف فوق هذا لغتين تعتبران بالنسبة له لغة المواطن والمولد ، وهما العربية والمغربية وإلى جانب هذا استكمل منهج البحث في دراساته المختلفة ، فجعله يعرف كيف يلاثم بين القديم والحديث ، وكيف يسلك سبل الإصلاح من نواحيها المجدية والعملية ، وروحه الإصلاحية ناحية من النواحي التي قد لا أستطيع أن أطيل فيها ، ولكني أحب أن أبين فقط أنه ما كاد يوكل إليه أمر المعهد الذي تربى فيه من قبل وهو جامعة القرويين حتى شاء وهو عميد ورئيس أن يعدل تلك النظم القديمة ، وأن يربطه بعجلة الزمن ، ويدخل عليه الدراسات الحديثة ويتوسع فيها من رياضيات وعلوم .

وإذا كنت أذكر هذه الأمثلة بعينها ، فإنما أذكرها لأنها تثير في نفوسنا ضرباً من تداعي المعاني ، والشئ بالشئ يذكر ، وفي إصلاحات جامعة القرويين الأخيرة ما يشبه محاولات الإصلاح التي مرت بها الجامعة الأزهرية في نصف القرن الماضي .

وقد لا يدهشكم أن تسمعوا أن من بين المقترحات المراكشية ، التي لا أدري إن كانت قد نفذت فعلاً أم لا ، أن تنشأ في جامعة القرويين كليات تقترب كل القرب من كليات الأزهر كأصول الدين ، والشريعة ، واللغة العربية .

والزميل الحليل مصلح أيضاً في وزارة التربية والتعليم ، يحاول أن يسلك بالتعليم المراكشي مسلكاً يتمشى مع حاجة العصر وظروفه ، ذلك لأن نظام التعليم في بلاد المغرب شبيه بما كان عليه أخوه في مصر في آخريات القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، فيقوم على المساجد التي يحفظ فيها القرآن وبعض مبادئ القراءة والكتابة والحساب ، ومن شاء توسعاً اتجه نحو جامع القرويين . وما أشبه هذه المساجد بكتاتيبنا القديمة التي يأبى المغرب إلا أن يحل محلها اليوم مدارس ابتدائية وثانوية تهين لأبناء الشعب وسائل التعليم والثقافة الكاملة ، وتمهد للدراسات العالية والجامعية ، والشرق الذي وقفت عقبات كثيرة في سبيل نهوضه العلمي والثقافي يرغب رغبة أكيدة في أن يستعيد ما فاتته ، ويخطو إلى مصاف الأمم التي سبقته . وما أحوجه إلى مصلحين ومجددين يلاثمون

بين القديم والحديث ، ويقيسون الأمور بمقاييس الحكمة والاعتدال ، ويخرجون منها بحلول تتفق مع البيئة والظروف التي يعيشون فيها ، فلا يطغرون في إسراف ، ولا يجمدون في قصور . والزميل الكريم في مقدمة من اكتملت فيهم هذه الصفات بين قادة المغرب والمصلحين .

ويرجو المجمع اللغوي منه أمراً آخر له أهميته يعول عليه فيه التعويل كله ، لأنه يتصل بمهمته ورسالته . وأعنى به حماية اللغة متناً وأسلوباً ، ودراسة قواعدها وآدابها . وفي المغرب حقل فسيح لهذه الدراسة ، ومعالجة ألوان شتى من الموازنة والمقارنة ، ذلك لأن فيه ضرباً من التقابل والتعارض بين العربية والبربرية ، واللغوي الباحث يخرج من ذلك بدروس نافعة . وأستطيع أن أقول في اطمئنان إن مسافة الخلف بين العربية والبربرية ليست أفسح منها بين العربية والفارسية ، وقد جاء وقت على أقاليم فارسية خالصة تعربت جميعها وظهر فيها بعض أعلام الأدب العربي . والبرابرة أنفسهم نشأ من بينهم عدد غير قليل من أئمة البحث الإسلامي . لهذا أعتقد أن الحصومة بين البربرية والعربية في مراکش ليست أعنف مما كانت عليه الحصومة بين العامية والعربية في مصر ، وقد أصبحنا هنا ونحن لا نكاد نأبه بهذه الحصومة ، ولن يختلف شأنها عن ذلك لدى إخواننا المغاربة . وإنا لنتظر من الزميل على كل حال وهو يجيد العربية والبربرية معاً — أن يوافينا بدراساته الممتعة — فيهما ، وأن يخطو الخطوة المرجوة للتوفيق والملاءمة بينهما .

• • •

وقد انقضى الزمن الذي كانت تثار فيه أسباب الفرق ، وأصبحنا ننظر الأمور نظرة أبناء البلد الواحد والأمة الواحدة ، ومتى توفرت هذه الروح فلن يفرق بيننا اختلاف بربرية وعربية ، ولا بُعد عامية عن عربية . وستأخى البربرية مع العربية في مراکش بحيث تصبح العربية لغة الشعب بأسره ، كما تأخت العامية مع العربية في مصر ، وأصبحنا نتحدث عن تيسير العربية للناس جميعاً ، تيسيرها في كتابتها وقراءتها ، في نحوها وصرفها ، في ألفاظها ، ومصطلحاتها .

سواء في مصر أم في مراکش ، بل وفي بلاد العالم العربي جميعاً ، نحن متفقون على أن نهض بالعربية نهوضاً يربط حاضرها بماضيها ويعيد إليها مجدها الغابر ، فتصبح لغة العلم والحضارة ، وتعبر عن عصرنا في كشوفه ومخترعاته ، في عدده وآلاته ، في نظمه وقوانينه ، في مشاعره وأحاسيسه ، وتغذي الآداب والثقافات الأخرى كما غذيت بها وأخذت عنها .

لهذا جئت معنا ، أيها الزميل الكريم ، و هذا نعول عليك كل التعويل ، وإني لسعيد أن أرحب بك اليوم باسم أعضاء المجمع عامة ، وأن أتي هذه الأمانة الكبرى على عاتقك ، وأنت لها خير كفيل .

## الفصل الرابع

### ٤ - عشرة أعضاء مصريين (١٩٦١)

صدر القرار رقم ٥٧ لسنة ١٩٦٢ بتعيين عشرة أعضاء مصريين وهم :

- ١ - الدكتور إبراهيم أنيس .
- ٢ - الأستاذ إبراهيم عبد الحميد اللبان .
- ٣ - الأستاذ إسماعيل مظهر .
- ٤ - الأستاذ أمين الخولى .
- ٥ - الأستاذ عبد الحميد حسن .
- ٦ - الأستاذ عبد الفتاح الصعيدى .
- ٧ - الدكتور على بدوى .
- ٨ - الدكتور مراد كامل .
- ٩ - الدكتور محمد عوض .
- ١٠ - الدكتور محمد مهدي علام .

وقد استقبلتهم بالكلمة التالية :

إن كسبنا اليوم لعظيم ، وإن تعويلنا على زملائنا الجدد لكبير ، فلكل منهم ماضيه الخافل في خدمة الأدب واللغة ، والعلم والثقافة . فيهم النحوى والصرفى ، الأديب واللغوى ، العالم والفيلسوف العربى والسيكولوجى ، الفقيه والمشرع .

فالدكتور إبراهيم أنيس تخرج فى دار العلوم سنة ١٩٣٠ ، واشتغل بالتدريس فى المدارس الثانوية ، ثم سافر إلى إنجلترا فتخصص فى الدراسات اللغوية . ولما عاد اشتغل بالتدريس فى دار العلوم وآداب الإسكندرية ، ورجع إلى دار العلوم حيث أضحى عميدا لها منذ سنة ١٩٥٥ إلى اليوم . ومنذ عودته من أوروبا تفرغ لدراساته الفيلولوجية ووضع عدة كتب فى الأصوات واللهجات والألفاظ ، نذكر من بينها « الأصوات اللغوية » الذى أعيد طبعة للمرة الثالثة هذا العام ، وكم أعان الدكتور أنيس الجميع بدرسه وببحثه ، وهو خير به منذ سنة ١٩٤٨ .

والأستاذ إبراهيم اللبان زميل أسن وعميد أسبق لكلية دار العلوم ، سلك مسلكا مشابها فى النشأة والتكوين . تخرج فى دار العلوم سنة ١٩١٨ ، وقام بالتدريس فى المدارس الثانوية ثم أوفد إلى إنجلترا حيث تخصص فى التربية وعلم النفس والفلسفة . وما إن عاد من بعثته حتى

نشهد إليه بالتدريس في دار العلوم وآداب الإسكندرية ومعاهد التربية العالية ، وكان مفتشاً عاماً للفلسفة خمس سنوات وعميداً لدار العلوم أربع سنوات وله بحوث لم تنشر جميعها ومن بين ما نشر « الفلسفة والمجتمع الإسلامي » ، و « طرق تجديد المجتمع » .

والأستاذ إسماعيل مظهر وثيق الصلة بالمجتمع من قديم اتصل بخبرته زمناً عني فيه خاصة بتجديد المصطلحات وجمع ألفاظ الحياة العامة . وثقافته خصبة متنوعة ، وله في فن المعاجم خبرة تامة ، ويكفي أن أشير إلى معجمه المشهور « قاموس النهضة » وفيه جهد واضح ويقع في جزأين كبيرين .

وأستاذنا أمين الخولي تخرج في مدرسة القضاء الشرعي عام ١٩٢٠ ، ولم يكد يتخرج فيها حتى دعي للتدريس بها ، وعين إماماً للمفوضية المصرية بروما وبرلين عام ١٩٢٣ ، ثم صاحب كلية الآداب بجامعة القاهرة منذ سنة ١٩٢٨ إلى سنة ١٩٥٣ ، أستاذاً للبلاغة وعلوم القرآن ، ورئيساً لقسم اللغة العربية ووكيلاً ، وقبل تقاعده عين مديراً عاماً للثقافة بوزارة التربية والتعليم ، وله نواحي نشاط أخرى أدبية وصحافية ، وأخصها اشتراكه في عدد غير قليل من مؤتمرات المستشرقين ، وإنتاجه غزير متنوع : أدب ولغة ، دين وفلسفة ، علم نفس وأخلاق ومن أخصه « مالك بن أنس » و « مشكلات حياتنا اللغوية » ، وهو في الحملة صاحب مدرسة يلتف حوله فيها الأمناء .

وأستاذنا عبد الحميد حسن شيخ من شيوخ دار العلوم ، تربى فيها وتخرج سنة ١٩١١ ثم أوفد إلى إنجلترا حيث درس التربية وعلم النفس والأدب . ولما عاد قام بالتدريس في المدارس الثانوية والعالية ، وانضم إلى تفتيش اللغة العربية ، وكان حظ معهده منه عظيماً ، لقد قضى فيه نحو ١٧ عاماً . وكان يضرب لتلاميذه دائماً خير مثل في الترتيب الدقيق ، والعمل المحكم ، والنشاط المتصل . وله بحوث ومقالات في الأدب والتربية ، ومن بين كتبه « الأصول الفنية للأدب » « والقواعد النحوية مادتها وطريقتهما » .

والأستاذ عبد الفتاح الصعيدى مراقب سابق لمجمعنا هذا ، قضى فيه نحو عشرين عاماً بعد أن مر بالمدارس الأميرية المختلفة مدرساً للغة العربية ، وله مشاركة بينة في الشعر والأدب ، وعنى خاصة بفقه اللغة ، ووضع مع زميل له كتاب « الإفصاح » الذي رتب فيه المخصص وبوبه ونقحه وزاد عليه .

والدكتور على بدوى القانونى الضليع ، أستاذ القانون الجنائى وعميد سابق للحقوق ، تخرج فيها سنة ١٩١٧ على رأس فرقة ، واشتغل بالنيابة العامة زمناً ثم أوفد إلى فرنسا حيث تخصص في القانون الجنائى ، واختير للسلك السياسى قبل تقديم رسالته . وفى سنة ١٩٢٨ نقل إلى كلمة

الحقوق ، وبقى بها أستاذا وعميدا إلى سنة ١٩٤٢ ، تفرغ بعدها لنصرة العدالة عن طريق المحاماة واشترك في الوزارة عام ١٩٥٢ وساهم في الوان شتى من النشاط الفقهي والثقافي ، فهو عضو بالمجلس الأعلى للجامعات ومجلس جامعة القاهرة ورئيس للجنة توحيد قانون العقوبات وقانون الإجراءات الجنائية . تظمن النفوس إلى حكمه ، ويباهي زملاؤه بشجاعته واعتداده برأيه له عدة مؤلفات في القانون الجنائي وتاريخ التشريع ، بعضها بالعربية ، وبعضها بالفرنسية ، نذكر من بينها « مبادئ القانون الروماني » ، و « الأحكام العامة في القانون الجنائي » .

والدكتور مراد كامل من أبناء كلية الآداب ، تخرج في قسم اللغة العربية واللغات الشرقية عام ١٩٣٠ ، وأوفد إلى ألمانيا حيث قضى بضع سنوات متخصصة في اللغات الشرقية . وما إن عاد حتى اشتغل بالتدريس في كليته ، ثم اختير عضوا في المجمع العلمي المصري ، ومعه الدراسات الشرقية ، والأكاديمية الألمانية للآثار وله بحوث متفرقة أغلبها مقالات كتبت بالعربية أو لغات أجنبية قديمة أو حديثة ، وتلور حول الأدب العربي والمصري واللغات السودانية والحبشية والترجمة لبعض المستشرقين واشترك مع الدكتور البكري في وضع « تاريخ الأدب السرياني من نشأته إلى الفتح الإسلامي » ، ومع الدكتور عبد الحليم النجار في ترجمة « تاريخ الأدب العربي » لكارل بروكلمان ، وهو خبير بالمجمع منذ زمن ، يعد للمعجم الكبير منذ البدء فيه .

والدكتور محمد عوض محمد أديب شاعر ، جغرافي واجتماعي . التحق بمدرسة المعلمين العليا عام ١٩١٤ ، واعتقل سياسيا — وهو في السنة النهائية ، فتعطلت دراسته أربع سنوات ، ولم يحصل على الدبلوم إلا سنة ١٩٢٠ . ثم أوفد إلى إنجلترا للتخصص في الجغرافيا وهناك حصل على البكالوريوس والماجستير والدكتوراه . وما إن عاد حتى قام بالتدريس في كلية الآداب بجامعة القاهرة وبقى بها ما يزيد على عشرين عاما ( ١٩٢٦-١٩٤٨ ) ، مدرسا وأستاذا للجغرافيا ورئيسا لقسمها ولمعهد الدراسات السودانية الذي ساعد في إنشائه . وانتقل بعد ذلك إلى الإدارة الثقافية بوزارة المعارف مديرا عاما لها ، ثم مديرا لجامعة الاسكندرية . ثم وزيرا للمعارف . هذا إلى نشاط متنوع في الإذاعة والصحافة والجمعيات المختلفة كالجمعية الجغرافية ، والجمعية التاريخية ، والجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية . اشترك في عدة مؤتمرات ، اخصها المؤتمرات العامة لليونسكو حيث راس وفد مصر غير مرة ، وانتخب انخرا رئيسا للمجلس التنفيذي . حصل على جائزة الدولة للعلوم الاجتماعية عام ١٩٥٢ . له عدة مؤلفات في الجغرافيا والادب والسياسة بعضها بالعربية وبعضها بالإنجليزية ، ومن أهمها كتاباه عن نهز النيل ، والسودان الشمالي ويعدان بحث في مقدمة ما كتب في هذا الباب في نصف القرن الأخير .

وانختم هذه السلسلة الذهبية بالصديق والزميل الدكتور محمد مهدي علام الذي تخرج في دار العلوم عام ١٩٢٢ ، ثم أوفد في بعثة إلى إنجلترا حيث درس الأدب الإنجليزي والتربية واللغتين الفارسية والعبرية . ويوم أن عاد عهد إليه بالتدريس في دار العلوم ، ثم بالتفتيش في وزارة المعارف . وفي عام ١٩٣٦ دعي للتدريس بجامعة مانشستر ، ومكث بها ١٢ سنة ولما عاد ثانية اختير عميدا لتفتيش اللغة العربية بوزارة المعارف ، ثم أستاذا ورئيسا لقسم اللغة العربية بكلية الآداب — جامعة عين شمس ، ثم عميدا لها من سنة ١٩٥٤ حتى اليوم . وإلى جانب التفتيش والتدريس له نشاط ثقافي وأدبي واسع ، فهو عضو في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، والمقرر العام للجنة النشر به ، وعضو في المجلس الأعلى لدار الكتب ، ومستشار المؤتمر الإسلامي . وضع بحوثا ومقالات وكتبها مختلفة في الأدب والأخلاق أغلبها بالعربية وبعضها بالإنجليزية نذكر من بينها «فن المتصورة في الأدب العربي» ، و«نظرية الوسط بين فلاسفة اليونان وفلاسفة المسلمين» .

أيها الزملاء :

أخشى ما أخشاه أن أكون قد أسأت إليكم بهذا العرض الخاطف والتعريف الناقص ، ومما يهون على أنكم في غنى عن التعريف ، وكل ما حاولت إنما هو مجرد تدوين وتسجيل ، ولو اتسع لنا الوقت لكان لنا عن كل واحد منهم حديث نفيد به ونستفيد ، ونكشف في جلاء عن بعض آثاركم الفكرية والأدبية ، وهي جانب هام من جوانب حياتنا الثقافية المعاصرة :

إن علينا أن نساير الزمن ، وإذا كانت مجامع القرن السابع عشر أميل إلى الحفاظ والحفاظة ، فإن مجامع القرن العشرين أحوج إلى التجديد والمسايرة . وفي العالم العربي اليوم وعى قوى يقظ يريد أن يخلق ويبتكر ، أن ينهض ويتقدم ، أن يستكمل كل أسباب الحياة والرفعة . وفي مقدمتها أن تكون له لغة تعبر عن كل ما يصادفه أو يجول بخاطره في الشعر والنثر ، في العلم والفن ، في الاقتصاد والسياسة . وهو يثق كل الثقة بمجتهعكم هذا ، ويؤمن بأنه خير من يطوع العربية لحاجات العصر ومقتضياته ، فأجيبوا سؤله ، وحققوا طلبته ، وإنكم لفاعلون :

## الفصل الخامس

### ٥ — أحد عشر عضوا عربيا (١٩٦٢)

صدر القرار الجمهوري رقم ٥٧ لسنة ١٩٦١ بتعيين أحد عشر عضوا عربيا، وهم :

- ١ — الأستاذ أحمد عقبات [ر.ق.].
- ٢ — الأستاذ الدكتور اسحق الحسيني .
- ٣ — الأستاذ أنيس المقدسي .
- ٤ — الأستاذ الدكتور عبد الله الطيب [ر.ق.].
- ٥ — الأستاذ عبد الله كنون [ر.ق.].
- ٦ — الأستاذ علي الفقيه حسن .
- ٧ — الأستاذ الدكتور عمر فروخ .
- ٨ — الأستاذ قدرى حافظ طوقان .
- ٩ — الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي [ر.ق.].
- ١٠ — الأستاذ محمد بهجة الأثري [ر.ق.].
- ١١ — الأستاذ محمد الفاضل ابن عاشور .

وقد استقبلتهم بالكلمة التالية :

نجتمع اليوم باسم الفصحى وفي سبيلها ، ولأنها تراث الماضي ومجد الحاضر ، بقيت على الدهر وسارت مع الزمن ، بحيث أصبحت لغة قديمة وحديثة ، تجمع بين التليد والطارف ، وتربط الناطقين بها بأوثق رباط ، وقل أن تلتقي معها في هذا لغة أخرى . أقول نجتمع ، وأعني أنكم تمثلون هنا الوطن العربي الكبير في آماله وأمانيه ، في رغبته الأكيدة في أن يستعيد مجده ويرفع ألوية حضارته ، وأعتقد أن العالم الإسلامي بأسره يرقب خطاكم ، ويتتبع قراراتكم ، لما لها من صلة أكيدة بالثقافة الإسلامية جميعها :

\* \* \*

#### ( ١ ) العربية بين اليوم والغد :

ولست في حاجة أن أتحدث عن العربية في ماضيها ، ولا أن أعرض لتراثها ، وإنما أود أن أقف قليلا عند حاضرها ، وأربط يومها بغدها . وحاضرها ولا شك زاهر ، وإن عارض في ذلك قوم أو أنكره آخرون . فهي لغة العلم والأدب ، والخطابة والصحافة ، وإلى مدى بعيد لغة المسرح والسينما ، والإذاعة والتلفزيون . مفرداتها في صقل وتهذيب ، وإحكام ودقة ، ونمو وتكاثر ، وجملها في تنوع وتجديد ، ويسر وسهولة ، وظرف ورشاقة ، في شعرها خيال بديع ، ونسيج محكم ، ووحدة متصلة ، وتصوير خللاب للحلجات النفس وآيات الطبيعة وظواهر المجتمع ،

وبين الشعراء المعاصرين فحول لا يقلون عن شعراء العصر العباسي الأول . وفي نثرها تحرر وانطلاق  
ولين ورقة ، وتعديل ومنطق ، وأفكار ومعان لا مجرد صيغ وعبارات ، وفيه أيضا ألوان جديدة  
كالقصة والرواية والمقالة والبحث وبين كتاب اليوم من يذكرنا بعبد الحميد وابن المقفع ، أو  
بالحافظ ومحمد بن عبد الملك الزيات : وانتاجها في جملة غزير ومتنوع ، قوى وإنساني ،  
تضافرت عليه بيئات ثقافية متعددة في أفريقيا وآسيا ، وآزرها نقر من العرب والمستعربين في  
أوروبا وأمريكا . ويمكن أن يقال إن أدبنا المعاصر سما إلى مرتبة الآداب العالمية الكبرى ، وبدى  
في ترجمته والأخذ عنه كما يأخذ عن غيره . وبذا صحت نبوءة الأستاذ الإمام من أن دراسة  
جادة طوال خمسين سنة كفيلا بأن يبلغ الأدب العربي شأو الآداب الأوروبية .

على أنا نعتقد أن هذا الأدب في حاجة إلى تعهد دائم ورعاية مستمرة ، وتجديد وتطوير :  
ولا ننكر أن هناك شكوى تردد من متن اللغة ونحوها ، ومن تعقد المعاجم وصعوبة الرجوع إليها  
ومن فن الإملاء والكتابة العربية بوجه عام وعدم مطابقتها للنطق أو القراءة . ولا تزال الفصحى  
تصطدم بالعامية ، ويقع الناس في حيرة من أمر هذه الثنائية . ولكن هذه الشكوى لا تخلو من  
غلو وإسراف ، فصدر العربية فسيح يتسع كل يوم لمصطلحات العلم ومقتضيات الحضارة :  
وتيسير النحو يشغلنا منذ عهد بعيد ، وقد بذلت فيه جهود متلاحقة ، ساهم مجتمعكم  
في قسط منها ، وأصبحنا نؤمن بأن ملكة اللغة تكتسب بالحفظ والسماع أكثر مما تكتسب بالضابط  
والقاعدة . وظهرت معاجم عربية حديثة فيها وضوح ويسر ، وترتيب وإحكام ، ولا بد أن تليها  
معاجم أخرى أكثر وضوحا وأعظم دقة . ولا نألو جهدا في أن نيسر الإملاء والكتابة ، وقد وضعت  
في ذلك مقترحات شتى وأخذ ببعضها ، وفي برنامج هذا المؤتمر عرض لما سبق إقراره في تيسير  
الكتابة العربية واختصار صندوق الطباعة اختصارا كبيرا . ونظرة إلى الوراء ترينا كيف ضاقت  
مسافة الخلف بين الفصحى والعامية ، ولغتنا الحاضرة تكاد تكون مزيجا منهما ، فيها فصاحة الأولى  
وجزالتها ، وسهولة الثانية وقربها من الأفهام وقديما ذهب حنفى ناصف إلى أنه في بيئة خاصة  
وبضرب من المران والدرية يمكن القضاء على العامية في نحو عشرين سنة ، وحاول عاطف هركات  
أن يطبق شيئا من ذلك في مدرسة القضاء الشرعي .

ومع هذا فالغد كفيل بتدارك ما فات ، واستكمال ما نقص ، وإنا لنعول عليه كثيرا ،  
ونرغب أن تقترب ما أمكن لغة التخاطب من لغة الكتابة ، وأن تتوثق الوشائج بين الناطقين بالضاد  
في مختلف الأقطار ، وتتضاءل الفوارق بين اللهجات . ذلك لأننا نعيش في عصر التعليم والثقافة  
الشعبية ، في عصر الصحافة والسينما ، في عصر الإذاعة والتلفزيون . فتكافح الأمية وينشر التعليم  
في مختلف البلاد العربية ، ويقرأ الأطفال والشبان ويكتبون في لغة سهلة وأسلوب هين . وتنفلد  
العربية إلى الفصل والملعب ، والمنزل والحقل ، والمصنع والمتجر ، وتنشر الكتب الشعبية وسلاسل

القراءة المبسطة ويطبع منها عشرات بل مئات الآلاف . وتبادل الصحافة اليومية والأسبوعية والشهرية بين المدن والعواصم ، فتوحد طرائق التعبير ، وتقدم ألوانا من الأدب الرفيع . وبيننا كتاب وأدباء ينتمون إلى العالم العربي ، بقدر ما ينتسبون إلى وطن خاص . وهناك صحف أسبوعية وشهرية عربية تكاد توزع في الخارج بقدر ما توزع في الداخل . والفلم العربي أصبح ذا رسالة أدبية ولغوية إلى جانب رسالته الفنية والاجتماعية ، وكثيرا ما يحاكي أسلوب الحوار والغناء المصري في شمال أفريقية أو في الكويت والمحميات العربية . وللإذاعة والتليفزيون شأنهما في تقويم النطق وتقريب بعضه من بعض ، وفيهما يتلى القرآن ويرتل غير مرة ومن أكثر من محطة في اليوم الواحد ، وهو خير مقوم للألسن ، وربما أذيع حفلنا هذا في البلاد العربية على اختلافها ، وهاتان الوسيلتان تخاطبان الأمي ، كما تخاطبان القارئ والكاتب ، وتصلان إلى القرية كما ترسلان في المدينة . وهناك أمم تحاول أن تنشر لغتها وتعلمها للناس عن طريق الإذاعة وما أجدرنا أن نوجه إذاعتنا العربية — فيا نوجهها — إلى هذه الغاية ، لاسيما وهناك إذاعات أجنبية تحرص على النطق والأسلوب العربي السليم أكثر مما تحرص بعض الإذاعات العربية .

ويكتب العلم والفلسفة والفن والتكنولوجيا الآن بلغة عربية واضحة ، وتدرس بها في الجامعات والمعاهد العليا ، فضلا عن المدارس الإعدادية والثانوية ونتوقع تبادلا أتم واتصالا أوثق بين الأدب العربي والآداب الأخرى ، وها نحن أولاء نرى القصة أو الرواية تترجم اليوم إلى العربية ولم يمض بضعة أشهر على تأليفها في لغتها الأصلية ، ولن يستبعد مثل هذا على بعض إنتاجنا الأدبي ، وبين دور النشر الأجنبية ما يسعى جاهدا إلى ترجمة بعض نفائسنا الأدبية المعاصرة . ولا شك في أن المؤتمرات الأدبية والعلمية تزيد هذا الاتصال وثوقا وتأكيذا ، وما أحوجنا أن نكثر منها ، ونجعلها عربية ومختلطة ، كي تفتح النوافذ على مصرعيها ، ويجدد الهواء والفكر من حين لآخر .

هذه هي العربية التي نجتمع اليوم من أجلها وملتقى عندها ، وهي التي وقف مجتمع اللغة نفسه على خدمتها ، وسأحاول أن أعرض عليكم صورة مختصرة لنشاطه في الدورة الماضية .

#### (ب) المجتمع ملتقى الناطقين بالفضاد :

أنشئء مجمع اللغة العربية عام ١٩٣٢ ، وقام على عشرين عضوا عاملا ، نصفهم من المصريين والنصف الآخر من العرب والمستعربين ، ومثل فيه حين ذاك أكثر من بلد عربي . ثم رفع العدد عام ١٩٤٦ إلى أربعين ، على ألا يجاوز الأعضاء غير المصريين العشرة . وفي العام الماضي صدر تشريع شامل يحدد شخصية المجمع ويدعم استقلاله ويقصر عضويته العاملة على أبناء الجمهورية العربية المتحدة وممثلي البلاد العربية ، ويفتح باب العضو المراسل للمستعربين من علماء الشرق

والغرب ، وفيه منهم الآن أربعون عضواً ، ويتوسع هذا التشريع في تمثيل البلاد العربية ، فيقتضي عليها عشرين مقعداً ، وبذا هيأ لنا الفرصة أن نستقبل اليوم أحد عشر زميلاً كراماً من عشرة بلاد عربية ، هي : الأردن ، والجزائر ، والسودان ، والعراق ، والمغرب ، واليمن ، وتونس ، وفلسطين ، ولبنان ، وإيبيا ، إلى جانب زملاء قدامى من العراق ، والعربية السعودية ، والمغرب وتونس : فاللغة العربية موكوة هنا إلى أهلها ، يضطلعون بعبء تهوضها ، ويساهمون جميعاً في تطويرها .



والملاونا الجدد بين أديب ولغوي ، وفقيه وقانوني ، وعالم ومؤرخ ، وصحفي وسياسي ، في هتي عن التعريف : ولا سبيل لي لأن أوفهم حقهم في هذا الاستقبال الجماعي فعدرة حقاً وكل ما أملك هو أن أرسم الخطوط الكبرى ، انشطاتهم الأدبي والفكري :

فالأستاذ أحمد عقبات رب السيف والقامة ، نشأ نشأة شرقية ، وتربى في الن من حياض الثقافة الإسلامية : ثم التحق بالوظائف الإدارية والعسكرية ، وأضحى عقيداً : وله مؤلف في « واجبات الجندى » ، من فصوله : الجندى والدين ، الجندى والوطن ، الجندى والفلاح ، الجندى والمجتمع .

والدكتور إسحق الحسيني ممثل فلسطين بجمع بين الثقافة الشرقية والغربية ، تخرج في جامعة القاهرة ولندن : ووقف نفسه على خدمة الأدب واللغة ، فكان أستاذاً للغة في الكلية العربية بالقاهرة نحو اثني عشرة سنة ، وأستاذاً للأدب في الجامعة الأمريكية ببيروت ، وجامعة ماكجيل بكندا ، والجامعة الأمريكية بالقاهرة ، ومعهد الدراسات العربية العليا بجامعة الدول العربية :

وله مؤلفات بالعربية والإنجليزية ، من أقدمها « مذكرات دجاجة » ومن أحدثها « ابن قتيبة حياته ومؤلفاته » :

والأستاذ أنيس المقدسي أحد شيوخ الجامعة الأمريكية ببيروت ، تخرج فيها : واضطلع بتدريس الأدب بها سنين عديدة حتى وصل القمة وأضحى أستاذاً للمادة ، ويوم أن تقاعد منح لقب أستاذ شرف دائم للأدب العربي : ولم يفت نشاطه عند هذا ، فقد دعى للتدريس في معهد الدراسات العربية العليا بالقاهرة ، وفي كلية المنقول والمعقول بجامعة طهران : وقام بعدة رحلات شرقاً وغرباً ، وزار أوروبا وأمريكا غير مرة ، واتصل بشي المعاهد العلمية :

وفي إنتاجه غزارة وتنوع ، منشور ومنظوم ، مقالات وبحوث ، روايات وكتب ، ومن أشهره « أمراء الشعر في العصر العباسي » الذي طبع غير مرة ، و « الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث » ، و « ديوان ابن الساعاتي » ورواية « إلى الجمرات » .

والدكتور عبد الله الطيّب رمز الشباب بين الخالدين ، تخرج في كلية غوردون وجامعة لندن وعهد إليه بتدريس سنة في معهد اللغات الشرقية بلندن . ثم عاد إلى السودان لرأس شعبة اللغة العربية في معهد التربية ببيخت الرضا ، ومنه انتقل إلى الجامعة السودانية حيث رأس قسم اللغة العربية ثم اختير هذا العام لعمادة كلية الآداب . وله مؤلفات في تعليم الأطفال وتاريخ الأدب في السودان .

والأستاذ عبد الله كنون تربي تربية دينية عربية ، اشتغل في شبابه الباكر بالتدريس ، واجتذبتة الصحافة والسياسة . فدرس في المعهد العالي بثطوان ، وكان أحد مؤسسي الجمعية الوطنية الأولى التي تلت حرب الريف .

وله مؤلفات وتحقيقات ، من بينها « النبوغ المغربي في الأدب العربي » ، و « قواعد الإسلام للقاضي عياض » .

والأستاذ علي الفقيه حسن درس في طرابلس والإسكندرية ، وألم بعدة لغات ، ففهم التركية والفرنسية والإيطالية إلى العربية . ونشاطه السياسي لا يقل عن نشاطه الأدبي . طالب مع الرعيل الأول بحرية بلاده ، ورأس حزب الكتلة الوطنية .

ومن مؤلفاته « أعيان ليبيا » وهو مجموعة تراجم لبعض الأدباء والسياسيين والعسكريين .

والدكتور عمر فروخ شعلة متقدة وحركة دائبة ، تخرج في الجامعة الأمريكية ببيروت ، وأتم تعليمه في ألمانيا وفرنسا ، وعرف الإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية ، وتخصص في الأدب والفلسفة الإسلامية ، وأصبح أستاذا لهما بكلية المقاصد .

وله فيهما مؤلفات متلاحقة ، من أخصها : « إخوان الصفاء » ، « ابن باجة » ، و « ابن طفيل » وقصة « حى بن يقظان » ، « أبو تمام » ، « عمر بن أبي ربيعة » ، « ابن الرومي » ، « بشار ابن برد » وظهر له أخيرا « القومية الفصحى » .

والأستاذ قدرى طوقان عالم وأديب ، تخرج في الجامعة الأمريكية ببيروت ، وعنى خاصة بتاريخ العلوم في الإسلام . درس فيه وحاضر ، وكتب وألف ، ومثل بلاده في عدة مؤتمرات علمية وثقافية . وساهم في الحياة النيابية ، فكان عضوا في البرلمان الأردني مرتين . وهو الآن مدير كلية النجاح الوطنية بنابلس ، ورئيس الجمعية الأردنية للعلوم ، ونائب رئيس الاتحاد العلمي بالقاهرة .

وله عدة مؤلفات ، نذكر من بينها « تراث العرب العليبي » ، « جمال الدين الأفغاني » ، « ابن حمزة » و « التمهيد إلى اللوغاريتمات » .

وشيخنا محمد البشير الإبراهيمي فقيه ولغوي وأديب نشأ بالجزائر في آخريات القرن الماضي ونهل من علوم الدين واللغة . ثم رحل إلى المدينة ، وهناك أكب على الدرس والبحث وتولى إدارة المعارف . ولكنه آثر العودة إلى الوطن ، وأخذ يلقي دروسا في الدين والتاريخ . واشترك مع ابن باديس في تحرير الشعب الجزائري من الاستعمار الثقافي ، وطالب بتعليم اللغة العربية لصغار التلاميذ . وكان عضوا بارزا في جمعية العلماء التي انبعث منها أول قبس أعضاء طريق الحرية والاستقلال .

وله مؤلفات لا تزال مسوداتها محبوسة في مكتبته بالجزائر ، منها « أسرار الضمائر العربية » ، و« التسمية بالمصدر » ، و« الاطراد والشذوذ في العربية » . والأمل معقود على أن يستعيد لها قريبا ، وينشرها بين طلاب البحث والدراسة .

والأستاذ محمد الفاضل ابن عاشور فقيه وأديب ، تخرج في جامع الزيتونة وقام بالتدريس فيه ، أنشأ معهد البحوث الإسلامية ، وانتخب رئيسا للجمعية الخلدونية . تولى القضاء والإفتاء فكان مفتيا للديار التونسية ، ورئيسا للمحكمة العليا الشرعية ، ورئيسا لمحكمة النقض والإبرام : ومن مؤلفاته « الحركة الفكرية والأدبية بتونس » .

وأختم هذه السلسلة الكريمة بالأستاذ محمد بهجة الأثرى الشاعر والنثر واللغوي ، اشتغل بالتدريس زمنا ، وأولع بالصحافة حينما ، وكتب في أمهات الصحف والمجلات في السياسة والأدب والاجتماع منذ عهد بعيد . واختير عضوا بالمجمع العلمي العراقي عام ١٩٤٨ .

وله عدة مؤلفات من بينها « أعلام العراق » ، « محمود شكري الألوسي وآراؤه اللغوية » ، « الخطاط البغدادي ابن البواب » ، « الأساس في تاريخ الأدب » .

وبعد فيأيها الزملاء لست في حاجة أن أقول لكم إن الدار داركم والمجمع مجمعكم ، لكم فيه بقدر ما لكم في لغتنا المشتركة من نصيب . ويسر لإخوانكم المصريين أن يجلسوا إليكم ، ويتبادلوا الرأي معكم في شئون الفصحى ومعضلاتها .

## الفصل السادس

### ٦ - عبد الرزاق محيي الدين (١٩٦٨)

سيدى الرئيس ، سيداتى ، سادتى :

لقد كان حظ مجمع اللغة العربية من شيوخ العراق وعلمائه عظيمًا ، تواردوا عليه فاضلا بعد فاضل وإماما بعد إمام ، ويعلمون بحق فى مقدمة مؤسسيه ومؤيديه اشترك فى رعيته الأول الأب أنستاس الكرملى ، وهو من تعرفون وثوقا فى الرواية ، وتمكننا من الدراية ، خلق عدة لغات قديمة بين شرقية وغربية ، ووقف حياته على خدمة اللغة العربية ، ودوى تصوته فى مجتمعتكم بضع سنين ، وردد كثيرا من آرائه بين العرب والمستعربين ، وهو دون نزاع من دعائم النهضة اللغوية المعاصرة فى العراق :

وخلف من بعده إمام جليل وشيخ عظيم ، هو المرحوم محمد رضا الشيبى الذى قضى معنا سبعة عشر عاما مرموق المكانة ظاهر الجلالة ، يعمل فى دأب ، ويؤمن بما للعربية من شأن فى جمع الكرامة وضم الصفوف : ارتبط بالمجمع بأوثق رباط ، فلم يتخلف قطا عن مؤتمر من مؤتمراته ، ورأس عددا غير قليل من جلساته ، وأسهم مخلصا فى بحوثه ودراساته أحب المجمع ، وأحبه المجمعون جميعا على السواء :

وفى عام ١٩٦١ حظى مجمع اللغة العربية بشيخ ثالث من كبار شيوخ العراق ، هو الزميل الكريم الأستاذ محمد بهجة الأثرى ، الشاعر والنائر ، الكاتب والخطيب ، اللغوى والأديب ، المؤرخ والفقيه ، فأمدنا بفيض من دقيق علمه وعميق بحثه ، ولا يزال يمدنا فى كرم وسخاء ناستشيره فيشير ، ونسأله فيجيب ، ونكتب إليه فيرد بعد درس وإحاطة. وأشهد أنه يعاوننا دون انقطاع فى المؤتمر وقبلة وبعده : يؤمن بأن رسالة المجمع رسالته ، ورسالة كل عربى يعتز بعرويته :

• • •

واليوم ينضم إلى زمرة المجمعين علم آخر من أعلام العراق ، رابع أربعة كلهم علم وفضل وسمو ونبل ، وهو الدكتور عبد الرزاق محيي الدين رئيس المجمع العلمى العراقى : عرفناه قبل أن ينضم إلى هذه الزمرة ، فعرفنا فيه الروح الهادئة ، والنفس الزكية ، والنظرة الصائبة ، واتصلنا به عن قرب فى مؤتمر بغداد ، فوجدناه يندوب رقة ويفنى فى خدمة ضيوفه وزملائه : حرص دائما على أن يكون إلى جانبهم فى حلهم وترحالهم ، ولم يفته أن يشترك فى دروسهم وبحوثهم برغم ما كانت تلقيه عليه الوزارة من أعباء ، وما كان يضطاع به من مسئوليات جسام :

وكم يسعدني أن أنوب عن الجميع في استقباله ، وأخوف ما أخاف ألا يتسع الوقت لكي أوفيه حقه ، وما أكثر جوانبه وأخصب نواحيه . وإني لأستقبل في شخصه العربي الصادق في هروبه ، والوطني الغيور على وطنه ، والشاعر والكاتب ، والعالم والباحث ، والسياسي ورجل الدولة .

وقد وجدت مكان القول ذا سعة فإن وجدت لساننا ناطقا فقل  
وحسبي أن أ رسم صوراً آمل أن تعبر عن بعض جوانبه .

• • •

عبد الرزاق محي الدين عربي صميم ، تملأ العروبة قلبه ، وتجرى في دمه ، استمدتها من أصول عالية ، وغذاها بغذاء سليم ، فهو يصعد إلى أسرة عربية من أسر « جبل عامل » بלבnaan . رحلت إلى العراق في منتصف القرن السابع للهجرة ، واستقر أغلبها في النجف الأشرف ، وامتد فريق منها إلى لواءى الحلة والديوانية ، ولا تزال لها بقايا في بعض مدن لبنان كصور وبيروت ، وتنسب إلى جدّها الأعلى محي الدين الذي كان يلقب بالعاملي إشارة إلى وطنه الأصلي ، والحارثي الحمداني ، تنويهاً بأنه من أولاد الحارث الحمداني أحد قواد على كرم الله وجهه .

وفي بيت من بيوت العلم والدين ، ولد عبد الرزاق في نهاية العقد الأول من هذا القرن ، ونشأه أبوه نشأة عربية إسلامية ، فحفظ القرآن ، وتلقى في جوامع النجف علوم العربية والفقه وأصوله ، والكلام والمنطق . وما أشبه جوامع النجف بالجامع الأزهر ، تسير على الطريقة التقليدية ، وتخرج فقهاء في الدين وعلماء في اللغة .

وشاءت الأقدار أن يستكمل درسه في مصر ، فأوفد في بعثة إلى مدرسة دار العلوم — كلية دار العلوم الآن — وهو في الثالثة والعشرين . وتفتحت أمامه أبواب فسيحة للدرس والبحث في علوم العربية وآدابها . وامتد نشاطه إلى نواح اجتماعية هامة ، في مقدمتها « إنشاء ناد » للطلبة العرب ، ولا يزال قائماً حتى اليوم ، وفي هذا ما يعبر عن ميوله المبكرة .

وما إن أتم مهمته حتى عاد إلى العراق عام ١٩٣٧ ليؤدي رسالته ، فقام بالتدريس بدار المعلمين العالية ببغداد ، وقضى فيها نحو سبع سنين . ويظهر أنه لم يقنع بما انتهى إليه من درس في العلوم العربية وشاء أن يفرغ لها مرة أخرى ، وأن يتعمق فيها ما وسعه . فالتحق بالدراسات العالية بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وحصل على درجتي الماجستير والدكتوراه .

ومن هذا الزاد الوفير أخذ ينفق عن سعة ، يغرس في تلاميذه روح الوطنية الصادقة والقومية السليمة ، وينشر دروس العربية الحقة . اختير أستاذاً للبلاغة بكلية التربية ، ثم عميداً لها ، وأسهم في بناء جامعة بغداد ، وكان نائباً لمديرها فترة من الزمن ، وحظي بعضوية المجمع العلمي العراقي ، وانتخب رئيساً له منذ عام أو يزيد ، خلفاً للمرحوم محمد رضا الشيباني .

وهو يرى أن العروبة سمحة كريمة ، تقوم على الإخاء والمساواة ، وتنفر من دعاوى العنصرية . وكم من دول عربية التأم فيها شمل أجناس متعددة . ويحرص العرب دائماً على أن يعيشوا في وئام مع الترك والفرس ، ولا يترددون في أن يعقدوا صلات شرقاً وغرباً ، ما دام ذلك لا يعدو على كيانها ، لا يسىء إلى مبادئهم . وعنده أن الإخاء العربي الكردي في العراق رأسخ الأصول متين الدعائم . وسائله ميسرة وأسبابه متوافرة . ولا يعكر صفوه إلا الدخلاء وذوو الأهواء ، الذين لا يعيشون إلا في جو الفرقة والخلاف يستمسكون بشعارات زائفة ، ويتعصبون لقوميات مصطنعة .

وللقومية تجار لا يقلون خطراً عن تجار الحرب والسياسة ، يثيرون الفتن ويبثون السموم ولا يرعون في الوطن إلاً ولا ذمة . وإتقاء لخطرهم أثار عبد الرزاق محيي الدين في الصحافة العراقية عام ١٩٦٠ حواراً جريئاً وصريحاً حول القومية الكردية . وقد بدا منه أن « التراحم بين العرب والأكراد أمر متوارث من أحقاب التاريخ » ولا يفسده إلا تيارات أجنبية ودعايات الهدامة ، وعلى الاستعمار والباركسية في ذلك وزر كبير . وواجب العرب والأكراد أن يدروا هذه الفتنة ، وأن يتلاقوا وجهاً لوجه ، ويتبادلوا الرأي في صراحة ، فيمهّدوا السبيل لتراحم أكبر ، وتأزر أقوى . واستطاع زميلنا أن يجمع أطراف هذا الحديث في كتاب له عنوانه : « من أجل الإنسان في العراق » . وفي هذا الكتاب درس وعظة ، وما أجدره أن يقرأ . وفتنة الأكراد لها أشباه ونظائر في أوطان عربية أخرى .

والدكتور عبد الرزاق يقظ ، يقف للدعايات الهدامة بالمرصاد ، لأنه يخشى منها على الوطن والدين والقومية . لم يتردد في أن يكشف ستارها ، ويحارب أنصارها ، ويلاحظ بحق أنهم في الأغلب من الإنتهازيين الذين يتمسحون بالأعتاب ، وينتقلون من حاكم إلى حاكم ، ناصروا العهود الماضية ، وفي غير ما خجل سارعوا إلى التعلق بأهداب العهود الحاضرة ، واتخذوا من بعض المبادئ الهدامة شعاراً ظنوا أنه يكفر عن ماضيهم ، ويعفي على سيئاتهم ، وقد حمل الزميل عليهم حملة شعواء ، وناضلهم بلسانه وقلمه في جرأة وبسالة ، ولأق في سبيل ذلك ما لاقي من نفي واعتقال ، وقضى في السجن زمناً ،

ولم يخرج منه إلا في ثورة الرابع عشر من شهر رمضان التي قضت على حكم عبد الكريم قاسم :

وفي المحنة الكبرى التي مر بها العالم العربي في يونية الماضي ، لم يقنع عبد الرزاق محي الدين ، رب القلم فحسب ، بأن يتابع الأحداث في مكتبته وداره ، بل أبى إلا أن يشرف على ميادين المعركة بنفسه ، وتعرض مع نفر من زملائه لخطر كبير .  
تلك هي عروبة زميلنا ، وهذه هي بعض صورها وآثارها .

• • •

والزميل الكريم شاعر قديم ، قرض الشعر ولما يبلغ العشرين . أرسل منه بواكير في النجف ، ثم تلتها قصائد شتى في القاهرة وبغداد ، واستمر وحيه يمدد إلى عهد غير بعيد . وأخشى ما أخشاه أن تعدو أعباء السياسة والشئون العامة على شاعريته ، فنحرم من خياله البديع ونغمه الرقيق . وأعلم أنه جمع شعره في ديوان لم ينشر بعد ، ونأمل أن يخرج إلى النور قريباً ، وأن يوضع إلى جانب نظرائه من إنتاج شعراء الجيل ، وما وقفنا عليه منه يشهد بدقة المعنى ، وصفاء الأسلوب ورقة الخيال . ونحرص على أن نقدم نماذج منه متدرجة مع الزمن .

في عام ١٩٣٠ قال شاعرنا في شبابه بالنجف :

إذا الشعر لم يحدث بشعبك ضجة فتلك قواف قد نُظمن وأوزان  
وإن لم يكن بحر العقيدة موقظاً فليس له في نهضة الشعب إحسان

وفي عام ١٩٤٦ قال في حفل لتكريم خليل مطران بالقاهرة :

شاعر القطرين بوركت صباً وشباباً ومشيباً واكتها  
جئت والنهضة فينا طفلة بعد لم تبلغ فطاما أو فصلا  
وتباشير حياة حرة شع في الوادي سناها والتلا  
ورفاق عيد إخوان الصفا نفروا واستنفروا الناس عجلا  
كنت في القادة منهم فكرة ومن الساقة إذ أعيوا كلالا

• • •

مصلح في غير دعوى مصلح ونبي لم يكلفنا القتالا  
تخذ الفن له آله وحواري الفن أنصارا وآلا  
سل بيوت الفن من عمرها وأشاع الخير فيها والحمالا

وفي عام ١٩٥٧ قال في ذكرى إقبال :

ذكراك إقبال . نحيبها فتحيينا  
أهاب بي منك روح فاستجاب له  
إقبال ديتك ما يتضى بشاردة  
جاهدت في الله عن أهلى وعن وطني  
وحين زعزعت الشذاذ طارئة  
كآية الذكر نثلوها فتهدينا  
روح أبي القول في مجهولة طينا  
لو أن شعباً وفي نختا بماديننا  
في حين سيموا به نخسفا وتوهيننا  
حصونهم وأحالتها مبادينا

\* \* \*

أما عبد الرزاق محيي الدين الباحث والمؤلف فإنتاجه متنوع ، وضع كتابا مدرسية في المطالعة وتاريخ الأدب لتلاميذه وأبنائه ، وعنى بالتحقيق ، فحقق جزءا من كتاب « المقايسات » وآخر من كتاب « البصائر والذخائر » وثالثا من كتاب « الوجيز في تفسير القرآن العزيز » : وتأم بدراستين هامتين ، أولاهما « أبو حيان التوحيدي » ، والثانية « أدب المرتضى » .

ويدرج في تحقيقه على نسق واضح ومنهج علمي سليم ، فيثبت أولا نسبة الكتاب الذي يحققه إلى صاحبه . ويجمع من أصوله كل ما وجد السبيل إليه . ويصف المخطوطات وصفا كاشفا . ويقدم في الصواب النص الذي ارتضاه ، ويشير في الهامش إلى الروايات والقراءات المغايرة ، ويتدارك ما فات الناشرين السابقين . ولا يفوته أن يوضح الكلمات الغامضة ويعرف ببعض الشخصيات ، ويحقق بعض التواريخ .

وفي تحقيقه لكتاب « المقايسات » ، وكتاب « البصائر والذخائر » وفاء لأبي حيان التوحيدي الذي أولع به ، وكشف عن كثير من جوانبه . وبرغم أن هذين الكتابين قد نشر من قبل ، فإنه أضاف إليهما جديدا ، وآمل أن يستكمل تحقيقهما على طريقته ومنهجه :

وفي تحقيقه لكتاب « الوجيز » استجابة لرغبة كريمة أبدأها المرحوم والده ، فقد طلب إليه أن ينسخه وهو لا يزال في صباه الباكر ، وكان لابد له أن يفعل ، وتلك شيمة من شيم العرب وأخلاق الإسلام . ونحس أن محققنا متحرج نوعا من أداء مهمته ، ولا أدل على ذلك من أنه لجأ إلى شيخ ثبت في سير الرجال ليترجم للمؤلف ، وما ذاك في أغلب الظن إلا لأن صاحب كتاب « الوجيز » هو علي بن الحسين بن محيي الدين العاملي الحارثي الهمداني ، وهو من أجداد زميلنا الأعلى .

وباع الدكتور عبد الرزاق في البحث والدرس طويلًا ، وجلده عظيم ، وضبط جميل ، وكتابه « أبو حيان التوحيدى » و « أدب المرتضى » آية في ذلك . وعندى أن كتابه الأول في قمة إنتاجه ، وقف عليه عدة سنوات من سنى الشباب والتفرغ ، وتهيأ له بأكمل أسباب البحث والتمحيص فجمع كل ما تيسر له من كتبه المطبوعة والمخطوطة ، وأضاف إليها ما اقتبسه الأقدمون من كتبه التى ضاعت أصولها ، وقرأ ذلك كله في روية وتأن ، وفهم وتفهم . مستعينا بما توافر لديه من زاد أدبى ولغوى كبير . وتتبع ما كتب عن أبى حيان قديما وحديثا ، فأخذ منه مأخذ ، ورفض ما رفض .

وأبو حيان شخصية عريضة ، متعددة الجوانب ، ويمكن أن يعد بين أصحاب دوائر المعارف . عرض للنحو واللغة ، والشعر والأدب ، والفن والكلام ، والتاريخ والسياسة ، وقد قيل عنه إنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة . وكان صوفى السميت ، ولعل التصوف من أظهر ما عرف به ، وأولع بالنقد والحكم على الرجال ، وتعرض لكثير من معاصريه والسابقين عليه ، ومؤلفاته مصدر هام ، وصورة من أوضح الصور عن الحركات الفكرية والأدبية في القرن الرابع الهجرى . ولم يسلم هو نفسه من النقد والتجريح ، فطعن في بعض رواياته ، وجرح قدرا من أقواله . واختلف في نسبه : أفارسى هو أم عربى ؟ وفى مذهبه : أشيعى هو أم سنى ؟ وفى دينه : أموئى هو أم زنديق ؟

وكان على الدكتور عبد الرزاق محي الدين أن يعالج ذلك كله بروحه الهادئة وحكمه المتزن . وهو فى الواقع هادئ فى بحثه هادئ فى سلوكه وتفكيره ، يسلسل الوقائع والأحداث ، ويرتب المصادر ترتيبا زمنيا ، ريتبع مختلف الروايات ، ويناقشها ويمحصها الواحدة تلو الأخرى . ويعلم أنه ليس من المولعين بافتراض الفروض ؛ ويمقت التعميم والدعوى العريضة ، ويؤثر أن يحصر بحثه فى دائرة ضيقة ما أمكن ، كى يصل إلى نتائج مقنعة . وأشهد أنه قل أن رأيت المنهج التاريخى قد طبق بإحكام فى دراسة مثلما طبق فى كتاب « أبو حيان التوحيدى » .

وقد انتهى بصاحبه إلى أمور حاسمة ، فقرر أن أبأ حيان عربى ، وأن طفولته غير معروفة . وفسر طابعه الموسوعى بحرفة الوراقة التى تمتد لخطرفها فى مساحة ثقافته ، وتحول دونه والعمق والتركيز والتخصص . ورد ما يعزى له من اختلاق أو وضع إلى فنه الأدبى ، ومنحاه القصصى والروائى . وأثبت أن أبأ حيان لم يكن شيعيا ، ولا عظيم العناية بالفريق ، وإن جرى على قلمه شئ من آراء المتكلمين والمعتزلة بوجه خاص . ورفض تلك التهمة التى ردها أكثر من واحد ، والتى تعد أبأ حيان فى مقدمة الزنادقة فى الإسلام ، وأبان فى وضوح أن أسلوبه متفاوت بحسب مراحل سنه ، وحاول حصر هذه المراحل وبيان خصائصها ومميزاتها .

ومح هذا الدرس العميق المستفيض يحتم زميلنا الكريم مقدمة كتابه قائلا فى تواضع العلماء ونزاهة المحققين : « إن عملى هذا لا يزيد على دليل يسترشد به دارسو « أبى حيان » ، وإلا

فلاتزال نواح كثيرة من فنه تحتاج إلى دراسة أعمق ، ، وإلى بحث أوفى ، وإلى كتابات دونه  
كفايتي وجهدي .

\* \* \*

وأخيراً لست أدري إن كان يحل لي أن أعرض هنا لعبد الرزاق محيي الدين السياسي ،  
وقد شغل فعلاً بعض المناصب السياسية الكبرى ، فتولى الوزارة غير مرة ، واختير « وزيراً  
للوحدة » ، و « أميناً عاماً للقيادة السياسية الموحدة » . وفي وسعي أن أقرر أنه وإن كان عكويّ  
المذهب ، فإنه ، من أنصار معاوية في ممارسته للسياسة ؛ فلا تنقطع الشعرة التي يمسك بها ، وإن  
يئس منها أحل محلها شعرة أخرى . وإني لأعرف كثيراً من آرائه التي تتصل بالمشاكل العربية  
الكبرى ، ولكن لعل من الخير أن تعرض في مجال آخر .

ويسعد الجميع والمجمعيين أن يستقبلوا اليوم الدكتور عبد الرزاق محيي الدين الشاعر والأديب ،  
والعالم واللغوي ، وهم لا محالة واجدون في علمه وأدبه عوناً كبيراً وذخيرة لا تنفد .

## الفصل السابع

### ٧ - محمد الحبيب ابن الخوجة ( ١٩٧٢ )

زرت تونس منذ ثلاث سنوات في مهمة خاصة بتكليف من المجمع ، ولست حين ذاك أن للعربية فيها جذوراً أصيلة وعميقة ، برغم منافسة الفرنسية الشديدة ، وتعصب فريق لها وبلدت لي آثار ذلك واضحة في أقلام الكتاب وعلى ألسنة الخطباء في الإذاعة والصحافة ، في الدرس والمحاضرة ، في الأندية والمجالس ، بل في الحديث الدارج بين الناس ، ولم يتسع لي الوقت لتفهم مدى هذه الظاهرة ، والوقوف على ما وراءها من عوامل وأسباب .

ونعمت هذا العام بزيارة هذا القطر الشقيق مرة أخرى ، فتوثقت صلاتي به ، ووقفت على كثير من شؤنه ، وزاد اتصالي بشبابه وشيوخه ، وتنقلت بين أطرافه وجوانبه ، وزرت عدداً غير قليل من مدنه وشواطئه . ولست في حاجة أن أتحدث عما حظيت به من رعاية وعناية أعتقد مخلصاً أن مردها الأول إلى مجيئكم الموقر ، وإني لعاجز كل العجز عن أن أوفي تونس والتونسيين حقهم من الحمد والثناء . أما الزملاء والأصدقاء فأنا مدين لهم بمودتهم الصداقة وأخوتهم الكريمة . وأتيحت لي الفرصة مرة أخرى لأتبين في دقة موقف العربية في هذا القطر الشقيق ، وقد وجدتها صامدة لتقلبات الدهر ، تصارع وتجادل ، وتسترد مكانتها بعدما أقامه الاستعمار في طريقها من أشواك ، ولا سبيل بحال للغة أخرى أن تحل محلها .

ولا غرابة فالشعب التونسي عربي صميم ، عربي في أصله ونشأته ، يعتز بماضيه وتراثه ، ويسعى جاهداً إلى أن يستعيد مجد الأغلبية والحفصيين ، عربي في حاضره ، يحس إحساساً صادقاً بعروبته ويشعر شعوراً خالصاً بأنه جزء من الوطن العربي الكبير . يهتز طرباً لأمجاده وانتصاراته ، ويأسى حزناً وكمداً على ما يحل به من ويلات ونكبات . وإن شعباً أنجب ابن رشيق القيرواني بالأمس وأبا القاسم الشابي اليوم لا يمكن أن تصاب العربية فيه بسوء .

ومن حسن حظ هذا البلد الأمين أن قام فيه معهد من معاهد الإسلام الخالدة ، وهو جامع الزيتونة ، ثمرة الماضي وعون الحاضر . وهو أحد مساجد ثلاثة في أفريقيا لها شأنها في تاريخنا الثقافي الطويل ، قام إلى جانب الأزهر والقرويين على رعاية التراث الإسلامي وتعهده . أسس أولاً ليكون مصلياً ومقراً للعبادة ، ثم شاء الحفصيون أن يجعلوا منه أيضاً معهداً للدرس والبحث . فجلبوا إليه الشيوخ والعلماء من الأندلس وصقلية . وأصبح جامعة إسلامية مكتملة ، تعنى بالعلوم النقلية والعقلية ، فدرس فيها الفقه والحديث والتفسير ، والتاريخ ، والأدب ، واللغة ، كما درست

الفلسفة والرياضة والطب . وكان لمجرة علماء الأندلس في القرن السابع الهجري إلى تونس شأن في ازدهار ثقافي كبير عمر بضعة قرون . واتصلت الزيتونة بالمعاهد الإسلامية الأخرى وبخاصة الأزهر الشريف :

وتخرج فيها عدد غير قليل من الأئمة والعلماء ، والكتاب والأدباء ، ويكنى أن أشير إلى أن ابن خلدون عالم تونس الكبير نهل من حياضها .

قضت هذه الجامعة التونسية نحو ثمانية قرون تسير في طريقها ، وتنشر العلم والثقافة . وفي القرن التاسع عشر أريد تطويرها ، والتطور سنة من سنن الحياة ، ولم ير القائمون عليها بأسافي أن يسايروا الزمن ويلأثموا بين الحاضر والماضي . وما الجمعية الخلدونية إلا صورة من صور هذا التطور ، أنشئت عام ١٨٩٦ على هدى من تعاليم الأستاذ الإمام ، وقد كان له بتونس صلات وثيقة ، وقصد بها أن تعلم فيها العلوم العصرية باللغة العربية ، وأقبل عليها طلاب الزيتونة ورغبوا في أن يمتد هذا التعليم إلى معلميهم ، واستجاب المسؤولون لذلك ، وأخذت حركة الإصلاح تقوى وتشتد . وجمعية قدماء الصداقية دعامة أخرى من دعائم التجديد والإصلاح ، ربي أبناءها على أساس من الثقافة الفرنسية ، ولكنهم مالبثوا أن مزجوها بالثقافة العربية ، فتلاقت الصداقية في البداية مع الخلدونية ، وقد قاما معاً على أكتاف الزيتونة ، وجاء الصدى للتطور المنشود :

وقد أضحت الزيتونة نفسها واحدة من كليات جامعة تونس الحديثة ، وتضطلع بوجه خاص بعلوم الشريعة وأصول الدين وتؤدي رسالة عظمى في ميدان الثقافة التونسية ، ولا يقف إشعاعها عند تونس وحدها ، بل يمتد إلى أبناء أقطار أخرى في أفريقيا وآسيا ، يفدون إليها وينهلون من حياضها .

وللزيتونة أباد على مجموعنا هذا ، أسهمت فيه منذ إنشائه ، أمدته بأئمة أعلام ، وخذلته بغذاء صاف كريم ، فكان الخضر حسين من أعضائه المؤسسين ، ولا تزال بحوثه القيمة حجة يرجع إليها . واختير الشيخ الحليل محمد الطاهر ابن عاشور بين أرائل أعضائه المراسلين . وهو من نعرف تفانياً في خدمة اللغة والدين . استمداً كما بكلمة الحق ، أطال الله بقاءه ونفع به الإسلام والمسلمين . وحسنى عبد الوهاب ، وإن كان صديق الزيادة ، لم يفتره أن ينهل من جامع الزيتونة ، فأكثر التردد عليه وعلى خزائن كتبه حتى احتل بالحيط الزيتوني وامتزج به وقد كان من أعمد المعجم المؤسسين . ونعمنا معه بزيتوني آخر كبير هو الخالد الذكر محمد الناضل ابن عاشور وقد عرفتموه فاضلاً حتماً ، وعالمًا كبيراً ، وإماماً من أئمة الأدب ، واللغة والفقه والتشريع :

\* \* \*

وها نحن أولاء نستقبل اليوم تلميذه وصنميه ، الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة ، وهو زيتوني النشأة والثقافة نستقبله ليشغل كرسي أستاذه ، ولو كان الأمر ميراثاً لما كان أحق به منه

على أنكم اخترتموه وأنتم على يقين من أنه خير خلف لخير سلف . وما أظن أني رأيت تلميذا شبيها بأستاذه شبه الحبيب بالفاضل : يحاكيه في زيه وسمته ، ويتسم بما أنتم به من شمائل وخلال ، ويسير على نهجه في درسه وبحته .

وقد قدم الأستاذ لكتاب « مناهج البلغاء » الذي أخرجه التلميذ ، وفي هذه المقدمة ما يعبر عن البنية الروحية والود الأثر ، يقول الفاضل : « إنه سرى في نفس الحبيب ما سرى من نفحات نفسي ومدارك عقلي وحسي » . ورحمة الله على الراحل الكريم ، ومرحبا بالقادم العزيز ، وسأترجم له في اختصار ، وأشير إلى شيء من جوانب نشاطه وثقافته .

ولد الحبيب في أوائل العقد الثالث من هذا القرن ، ونشأ في بيئة دينية محافظة ، وأسهم في تثقيفه البيت والمدرسة ، فالتحق بالمدراس القرآنية الابتدائية ، وكان أبوه يرعاه ويوجهه ، ويشرف على دروسه في اللغتين العربية والفرنسية ، وفي سن الرابعة عشرة دخل المدرسة الصادقية ولم يكد يمضي فيها عامين حتى بدأت الاضطرابات السياسية ، ولم يكن بد من أن يسهم فيها شاب مثله ، وداعى الوطن عنده مستجاب دائما ، وكان جزاؤه أن نال شرف السجن والطرده من المدرسة في سبيل أمته وبلاده . وما أن أطلق سراحه حتى ألحق بجامع الزيتونة ، وفيه أتم دراسته الثانوية والعالية . واستطاع أن يضيف إليه دراسة قانونية ، وحصل على شهادة الحقوق التونسية . ويوم أن اكتمل إعداداه اجتذبه المعاهد المختلفة ، فدعى للتدريس في ثانوية الجمعية الخلدونية ، وثانوية الدراسة الزيتونية ، ومعهد البحوث الإسلامية للجمعية الخلدونية ، ولما تجاوز الرابعة والعشرين . وفي عام ١٩٥٠ نجح في مناظرة التدريس من الطبقة الثانية ، وانتدب بعد ذلك بقليل أستاذا بالتعليم العالي بالجامعة الزيتونية ، وقضى فيها إحدى عشرة سنة . ثم شاء أن يضيف الثقافة الغربية إلى ثقافته العربية فالتحق بجامعة باريس التي منحته درجة الدكتوراه بمرتبة « الامتياز الفائق » بعد عامين اثنين ، وأصبح في آن واحد الشيخ الزيتوني والدكتور السربوني . ثم عاد إلى وطنه ينشر العلم في أرجائه ، ويوفى الزيتونة بعض حقها عليه ، وقد عين أستاذا بها ، ولم يبعده عنها إلا عمل بمصلحة النشر بوزارة الثقافة أشرف فيه على إخراج طائفة من الكتب القيمة ، وهو اليوم عميد الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين .

ولم يقف نشاط الحبيب عند تونس بل جاوزها إلى أوساط ثقافية مختلفة ، فدعى للتدريس في جامعة محمد الخامس ، والقرويين بفاس ، وجامعة بنغازي ، وبكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالبيضاء . وحاضر بدار الفكر بالرباط ، وفي الجزائر بدعوة من وزارة الثقافة . وكان للمشرق فيه نصيب ، فحاضر في معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ، وفي جامعة آل سعود بمكة . أما رحلاته وأسفاره فتعددة : زار في العالم الإسلامي القاهرة ، وبيروت ، وجدة والمدينة ، وكراشي ، وفي أوروبا باريس ، ولندن ، وبرلين ، وهون ، وفرانكفورت ، وليبتز

وبلجراد ، وبودابست . وأسهم فيما يزيد على عشرة مؤتمرات ، بين أدبية وثقافية ، عقدت في تونس أو في غيرها من عواصم العالم الإسلامي . واشترك في عدة هيئات ، فهو عضو بلجان الموسوعة الفقهية وإحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وعضو قديم بالجمعية الخلدونية ، وعضو بالشبيبة المدرسية لجمعية قدماء الصادقية ، ورئيس للشبيبة الزيتونية ، وجمعية طلبة شمال أفريقيا .

\* \* \*

وما أشبه الحبيب في نشاطه العلمي بشيخه الفاضل ، إنتاجه غزير ومتنوع ، درس وحاضر وحقق وأخرج ، وكتب وألّف ، كتب بالعربية وبالفرنسية معا ، قام بهذا كله ولما يبلغ الخمسين في نشاط الشباب ورجاحة الشيوخ . ويدور إنتاجه حول أبواب ثلاثة : بحوث إسلامية ، ودراسات في الأدب واللغة والتاريخ ، وتحقيق لبعض نفائس التراث القديم . فعرض الزميل الكريم للعمل والجهاد في الإسلام ، وعالج موضوع الأخلاق الإسلامية وموقف الإسلام من التطور والتجديد . وقد ظهرت سلسلة من هذا أخيرا تحت عنوان : « مواقف إسلامية » . وعنده أن الإسلام دين جد وعمل لا خمول وكسل ، والعمل فيه مناط التكليف وأساس المسؤولية ، « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » والجهاد لفظة إسلامية واسعة الدلالة يقصد بها خاصة مجاهدة العدو الظاهر والعدو الباطن . وترى مجاهدة العدو الظاهر أولا إلى نصحه ودعوته إلى الرشاد ورفع راية الأمن والسلام ، فإن أبي إلا العدوان والخصومة لم يكن بد من اللود عن الحياض والدفاع عن دار الإسلام . وليس عدونا الباطن شيئا سوى أهوائنا وشهواتنا ، ومجاهدتنا لها هي الجهاد الحقيقي أو الجهاد الأكبر ، لنقف في طريقها ونترفع عن الخطايا والدنايا . ولم يكن الجهاد في الإسلام قط مجرد عدوان للظفر والغلبة ، أو الاستعمار والسيادة ، ولا محل لأن يفسر فقط بالحرب والقتال ، بل هو معالجة طويلة ومتنوعة ، ربما كانت الحرب آخر وسائلها . ومن الخطأ أن يقال إن الإسلام لم ينشر إلا بالسيف . ولا شك في أن الدعوة الإسلامية السمحة تقوم على أساسين هامين : كفالة الحريات ، وإقرار السلام « لا إكراه في الدين قد تبين الرشده من الغي » ، « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله » ، « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » . ويحرص الزميل الكريم في بحوثه هذه على أن يصدر عن الكتاب والسنة وأن يستخلص منهما الأهداف الحقيقية للإسلام . وهو يرى أن تعاليم الإسلام تواجه شئون الدين والدنيا ، وليس فيها ما يتعارض مع أصول الحضارة الصحيحة أو الرقي السليم . أما الدعايات الهدامة ، والإيديولوجيات الكاذبة فليست من الدين ولا من الحضارة في شيء . وهل من سبيل لأن تقوم حضارة على الماديات وحدها . إنها بذلك أشبه ماتكون بحياة الغابات . والجاهلية الأولى والإباحية المطلقة ، وهذا ما تشقى به بعض المجتمعات الغربية اليوم ، وما أجدر مجتمعاتنا الإسلامية

أن تتحرر من هذه الآفات . وللشيخ حديث طويل في هذا ألقاه تحت عنوان : « الإسلام وأزمة مجتمعاتنا الحاضرة » بالجزائر في ديسمبر الماضي بمناسبة الأسبوع الثقافي التونسي .

\* \* \*

وقد عني زميلنا بالدراسات الأدبية واللغوية والتاريخية عناية كبيرة ، فعرض لبعض الكتاب والشعراء القدامى والمعاصرين أمثال الشاب الظريف ، وصفي الدين الحلي ، وشوقي ، والطارم وأحمد أمين ، واتجه خاصة نحو الأدب التونسي ، يحيي ماضيه ، ويحلل حاضره ، تتبع مراحلها ، من الفتح والعهد الأغابي إلى الدرر العبيدي والصنهاجي ، ومنه إلى العهد الحفصي ثم التركي ، ويقف عند العصر الحديث : عصر النهضة والتجديد . وله عشر محاضرات في الشعر العربي المعاصر بتونس أقيمت في معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ، ولم يفته أن يعالج موضوع الأزجال والموشحات في الأندلس وبلاد المغرب العربي .

واستوقفته الدراسات النحوية والبلاغية طويلا ، فدرس نشأة النحو العربي ، وبيّن المدارس النحوية المتعاقبة في المشرق العربي ، وأشار إلى ما أدخل على النحو من إصلاحات وتجديدات وعلى نحو شبيه بهذا تصدى لنشأة علم البلاغة والمذاهب البلاغية ، وعالج قضايا النقد وما يتصل بها . وفرّق بين المدارس البلاغية المختلفة ، وبيّن أثرها في الفنون الأدبية .

وله بحث طريف ودقيق في هجرة الأندلسيين إلى أفريقيا في القرن السابع الهجري ، وهي هجرة أشرنا إليها من قبل ، وسبق للشاعر الطليطلي أن توقعها قبل ذلك بنحو قرن ونصف حين قال :

يا أهل أندلس شدوا رحالكم      فما المقام بها إلا من الغلط  
السلك ينثر من أطرافه وأرى      سلك الجزيرة منثورا من الوسط  
من جاور الشر لا يأمن بوائقه      كيف الحياة مع الحيات في سنفط

وقد اتجه مهاجرو الأندلس نحو شمال أفريقيا ، فاستقر به منهم من استقر ، وأوغل في الرحلة فريق آخر ، اتجه نحو مصر والشام والحجاز ، وكان لتونس من هؤلاء المهاجرين نصيب كبير ، نزلوا أهلها وكانوا سهلا ، وأسهموا في الحضارة والثقافة التونسية إسهاماً واضحاً ، ولا تزال في تونس أسر معروفة بأصولها الأندلسية ، وأسرة آل عاشور واحدة منها . ويحرص الأستاذ الحبيب علي أن يقف عند الأثر الثقافي لهذه الهجرة ، ويلاحظ بحق أن هؤلاء المهاجرين قد غلوا الحركة الفكرية في تونس بغذاء خاص . فكان منهم القراء والمحدثون ، والفقهاء والمؤرخون

والأدباء والعلماء : ويسرد صاحبنا أسماء عدد وفير منهم ، نذكر من بينهم ابن الأبار الأديب الشاعر من بلنسية ، وكان من أوائل الوافدين ( ٦٣٥ هـ ) ، وابن البيطار ( ٦٤٥ هـ ) النباتي الكبير ، وهو من مالقة ، أقام بتونس زمنا ، ثم رحل إلى مصر ، وكان رئيس العشابين بها ، وابن سيد الناس ( ٦٥٧ هـ ) الفقيه والمحدث تلميذ ابن خروف وابن جبير ، وهو من أشبيلية ، وابن عصفور ( ٦٦٩ هـ ) النحوى المشهور تلميذ الشلوبين ، وهو من أشبيلية أيضاً ، وحازما القرطاجنى ( ٦٨٤ هـ ) الشاعر والناقد واللغوى ، ولزميلنا صلة وثيقة به منعرض لها بعد قليل . وعن هؤلاء وزملائهم الآخرين أخذت الأسانيد الأندلسية وعرفت المذاهب النحوية ، وحفظ الشعر والأدب الأندلسى وكتب العلم والتاريخ . ونشأت باختصار مدرسة أندلسية تونسية كان فيها الفقهاء والمحدثون ، والنحاة واللغويون ، والنباتيون والرياضيون .

وللشيخ الحبيب ولوع خاص بإحياء التراث وتحقيق النصوص ، وأغلب الظن أن شيخه الأكبر الطاهر بن عاشور وأستاذه الفاضل غرسا في نفسه ذلك . فأولع به في شبابه الباكر ، وكان من أحب الأشياء إليه أن يتردد على المكتبة العبدلية ، وأن يقتنى نفائس المخطوطات :

وقد حقق وأخرج كتاب « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » لحازم القرطاجنى ، وهو الذى قدمه لجامعة باريس ، ونال به شهادة الدكتوراه . واتصلت عنايته بحازم ، فحقق ديوانه ، وهو نمت الطبع الآن . وحقق كذلك رحلة ابن رشيد ( ٧٢١ هـ ) : وكتابين آخرين له في الحديث ، وهما : « السنن الأبين والمورد الأمعن في السند المعنعن » ، و « إفادة النصيح » ، ونرجو أن يخرج هذا كله للقراء قريباً .

ولصاحبنا منهج مرسوم في التحقيق وإقامة النص ، وهو منهج علمى دقيق يعتمد على التاريخ اعتمادا كبيرا ، فيستوعب المراجع كلها : قديمها وحديثها ، مفصلها ومجملها ، مخطوطها ومطبوعها ، عربيا وأجنبيا . ويوازن بينها في نقد محكم ، ويستخلص منها أوثق المعلومات وأصح الأحكام ، ويثبت الآراء المختلفة مرجحا بعضها على بعض ، ومحاولا الفصل فى أدق المواقف وأعقدها . يتأهب لما يحاول تحقيقه ، فيجمع كل ما يهتدى إليه من أصوله ، ولا يفوته أن يستعين ما أمكن بكل ماورد منه على السنة باحثين آخرين . يعرف بالأشخاص والأماكن ، ويشرح الألفاظ الغامضة والعبارات الماثورة : ويختم تحقيقه بمعاجم للمصطلحات والألفاظ الغريبة وبفهارس للأعلام والآيات والأحاديث والأمثال والأشعار . وكل ذلك فى ترتيب واضح ، وأسلوب سهل ، ولغة دقيقة . والحق أن زميلنا يعول على التاريخ التعويل كله ، وقد تطلب هذا منه اطلاعا واسعا ، وقراءة مستفيضة . وأضحى حجة فى تاريخ الثقافة التونسية بخاصة ، والإسلامية بعامة .

والنموذج القيم في التحقيق الذي أخرجه خير شاهد على ذلك ، فقد شاء بتوجيه من أستاذه الفاضل ، أن يخرج كتاب « منهاج البلاغاء وسراج الأدباء » لحازم القرطاجني . عرفه مخطوطا منذ عهد مبكر ، واستعان به في عام ١٩٥٦ على تدريس النقد ومناهجه لطلبة كلية اللغة العربية بالجامعة الزيتونية ، وأخذ يقلب صحائفه ، ويتدارسه ، واستقر رأيه على إعداد نشره ، وطوال عامين كاملين يباريس تفرغ له تفرغا تاما ، ثم أخرجه بتونس عام ١٩٦٦ في ثوب أنيق .

وقد مهد له بمدخل طويل يقع في نحو ٩٠ صفحة ، ترجم فيها للمؤلف ، متبعا كل المصادر التي عرضت له من أقوال حازم نفسه ، أو ما كتبه عنه معاصروه ، أو ما سجله له رجال التاريخ والطبقات وبخاصة السيوطي والمقري . واستخلص من ذلك كله ترجمة كاملة تكشف عن مراحل حياة الرجل وتوضح البيئة السياسية والفكرية التي عاش فيها ، وتعرض لمصنفاته المخطوط منها والمطبوع ، و« المقصورة » على رأسها ، وتبين أثرها في المشرق والمغرب . ثم اتجه الحبيب إلى تحليل الكتاب نفسه ، فحقق عنوانه ، ونلخص موضوعه ، وشرح منهجه ، وأشار إلى العوامل التي أثرت فيه . ولاحظ بحق أنه مؤلف محكم الترتيب ، وضع في صورة أقسام ، ومناهج ومعالم ، ومعارف وإضاءات ، وتنويرات ، وخرج بذلك عن أسلوب التأليف المعهود ، وبرغم ترتيبه الدقيق لم يخل من غموض وتعقيد ، لاستعمال ألفاظ غريبة ، واستحداث مصطلحات جديدة ، وإسراف في المصطلح الفلسفي وهو مع هذا يؤذن باطلاع واسع ، وإحاطة تامة بالأدب العربي ، يستشهد حازم بالشعر الجاهلي والأموي والعباسي ، كما يستشهد بشعر المشاركة والمغاربة المتأخرين . ويشير إلى بعض النقاد والبلاغيين السابقين ، أمثال قدامة بن جعفر (٢٩٤هـ) وأبي هلال العسكري (٣٩٥هـ) ، وابن رشيق القيرواني (٤٦٣هـ) ، وابن الأثير (٦٠٦هـ) والآمدي (٦٣٠هـ) ، والخفاجي (١٠٦٩هـ) ، ولكن من الخطأ أن يظن أنه قنع بمجرد الأخذ عنهم بل له محاولات لا تخلو من ابتكار وأصالة ، وكتابه « منهاج » لون خاص من ألوان الدراسة الأدبية .

والواقع أن هذا الكتاب يتصل اتصالا وثيقا بموضوع دار حوله شيء من الأخذ والرد ، ونعني به موضوع الصلة بين الدراسات الأدبية العربية وبعض الآراء والنظريات الأدبية الحديثة ، وقد أنكر هذه الصلة فريق ، وأيدها آخرون ، وسبق لابن الأثير أن ذهب إلى أن كلام أرسطو ومن بعده ابن سينا في الخطابة والشعر لغو ، ولا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئا ، ولكننا نعتقد أنه لم يبق اليوم شك في أن البلاغة العربية تأثرت بالفلسفة والمنطق على الأخص ، وقديما فُرق بين الطريقة الكلامية والطريقة الأدبية ، وما الأولى إلا درس للبلاغة في ضوء الكلام والفلسفة . ويشهد تاريخ البلاغة بأن الكثيرين ممن كتبوا فيها فلاسفة أو متفلسفون ، كقدامة ابن جعفر ، والخرجاني (٤٧٢هـ) . وحازم القرطاجني واضح وصريح كل الصراحة في هذه الناحية ، فقد أخذ بآراء أرسطو وتلاميذه من المشائين العرب ، وعول على كتاب « الشعر »

لابن سينا ، وأحال عليه عدة مرات ، وهو مستمد من كتاب « الشعر الأرسطى » . ولا غرابة  
فحازم تلميذ ابن رشد ، وإن لم ينقل عنه ، وآثر النقل عن الفارابي وابن سينا ، ونزعتهم  
الفلسفية والمنطقية واضحة .

\* \* \*

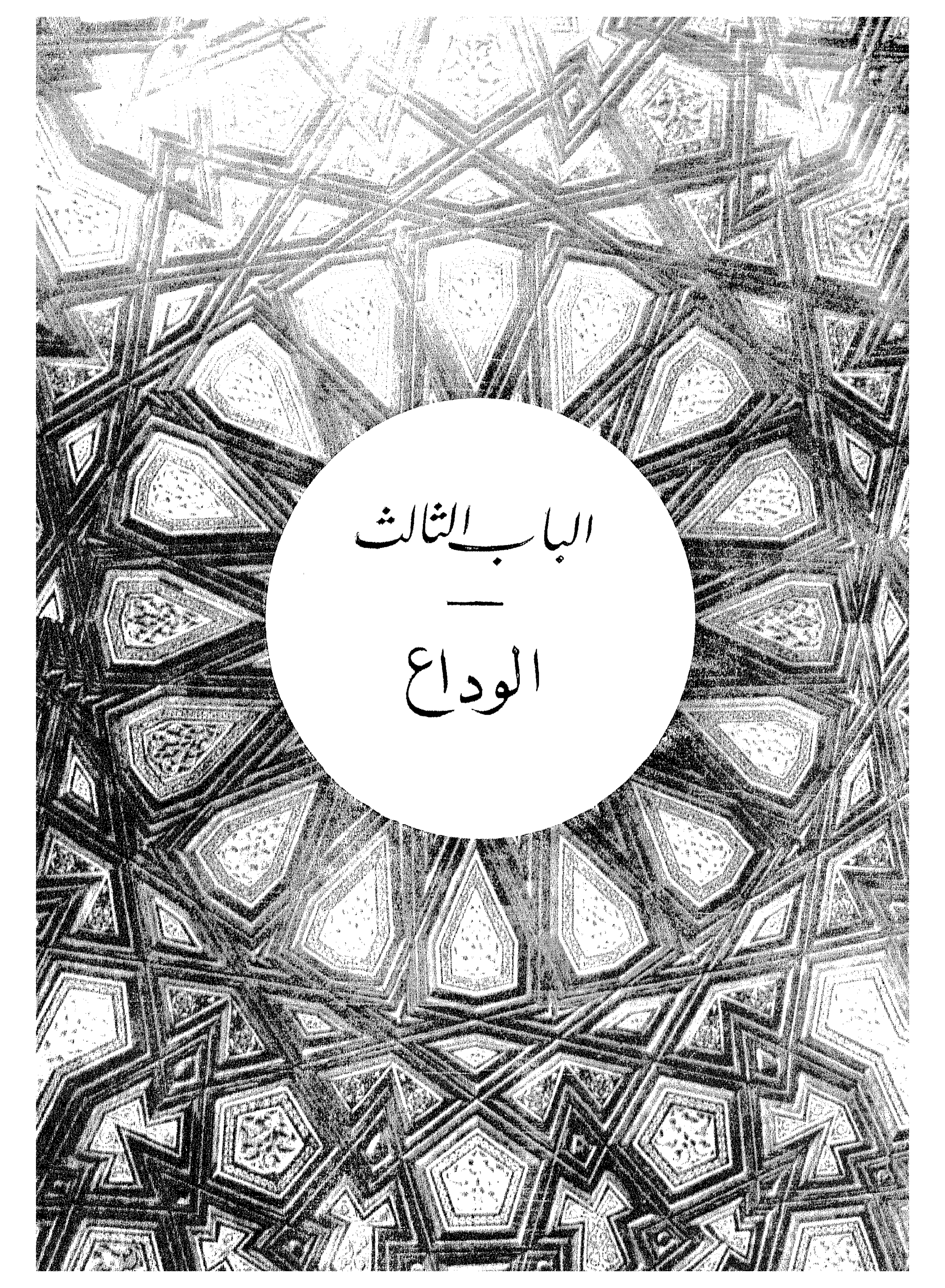
سادتي :

لقد عنيبتنا بتاريخ الثقافة العربية في عصورها الأولى . وعالجنا شيئاً من تاريخها المعاصر  
والحديث ، وأغفلنا مرحلة طويلة بين هذين الطرفين . أغفلنا — أوكدنا — ما بين القرنين السادس  
والثاني عشر الهجري ، وهي حقبة على ماها جديرة بالبحث والدرس .

وفي جهود زميلنا الكريم الأستاذ الحبيب ابن الخوجة ما يلقى أضواء عليها ، وما يكشف  
عن الصلات الوثيقة بين ثقافة المغرب الإسلامي ، وثقافة المشرق . وقد رأيت كيف طوّف بأرجاء  
الثقافة العربية وأحاط بجوانبها المختلفة ، وفي زمالته الكريمة خير عون لجميع الخالدين على أداء  
رسالته .

والسلام عليكم ورحمة الله ، ، ،

---



الباب الثالث

—  
الوداع



## البَابُ الثَّالِثُ

### الوداع



## مقدمة

---

نحن في دنيانا بين استقبال ووداع ، وتلك سنة الحياة : نحس بها ونلمسها ، ثم لانلبث أن ننساها ولكن المجمعين في أسرهم المحدودة ، وفي شيخوختهم الغالبة ، يدق جرمهم باطراد ، ويدعون إلى ذلك دون انقطاع . يستقبلون كل عام أعضاء جدد ، فيغبطون بهم ويبتهجون . ويودعون في العام نفسه من يودعون ، فيرثون ويؤبنون ، والدوام لله . وقد يشتد المصائب ، فيطغى الوداع على الاستقبال ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

وفي مراثيهم أدب رفيع ، وشعر رصين ، وغذاء قيم للفكر واللغة : وفيها وقار كريم لأخوان وزملاء ، تحملوا معهم الرسالة ، وأدوا الأمانة ، وخلفوا فراغا وبما عز ملوّه . وفيها تنويه بجهود قد تنسى ، وإشادة بأعمال لها شأنها ، وتسجيل لتاريخ ما أوجبنا أن نذكره ، وأن نسير على هديه .

وفي صحبتي الطويلة للمجمعين كان لا بد لي أن أدلى بدلوى في أداء هذا الواجب المقدس ، وأن أسهم في وداع عدد غير قليل من الأصدقاء . وحرصت ما استطعت أن أوفى الراحل حقه ، اللهم إلا إن اضطلع بالعبء سوى ، ولم يبق لي إلا شيء من الإشادة والتنويه .

تغمدهم الله جميعا برحمته ، وجزاهم عنا خير الجزاء .

---

## ١ - منصور فهمي (مايو ١٩٥٥)

عرفت الفقيه الكريم منذ ربع قرن أو يزيد . عرفته أستاذا وعميدا ، مجتمعا وزميلا ، وعرفته محاضرا وخطيبا ، كاتباً وباحثاً ، محدثاً ومناقشا ، عرفته فعرفت فيه حماسا بالغاً لما ارتضته نفسه واطمأن إليه هواه ولم يضعف هذا الحماس في شيء تقادم السن ولا مرور الأيام . حتى لقد كان يقف في شيخوخته مواقف تعز على بعض الشباب . عرفته فعرفت فيه التصويب إلى الهدف والحرص على الغاية . إن تعلق بأمر سعى إليه ما وسعه ، وقصد إليه من مختلف جهاته . عرفته فعرفت فيه السباق إلى القول والراغب في مخاطبة الجماهير لا يتردد في أن يرفع الصوت جهره إن حانت الفرصة أو دعا إلى ذلك داع . عرفته فعرفت فيه قوة العارضة والمثابرة في الدفاع عن الرأي . وكم سمعته يدافع عن وجهات نظر معينة ، دون أن يمل تكرارا أو يخشى بالحجا في الخصومة . عرفته فعرفت فيه أخيرا العربي المستمسك بعروبتة ، المدافع عن أمجاده .

وإذا كان مجال القول فيه ذا سعة ، فلني أكتفي بأن أرسم صورة مختصرة لحياته ، وأتحدث عن بحثه وإنتاجه ، وأقف قليلا عند عمله الجمعي .

\* \* \*

ولد منصور فهمي في منتصف العقد التاسع من القرن الماضي عام ١٨٨٦ م ، في تلك الفترة من تاريخ مصر الحديثة المليئة بالآلام والآمال . ويمكن أن نقسم حياته إلى مرحلتين واضحتين : مرحلة الإعداد والنشأة ، ومرحلة النضج والإنتاج . وامتدت المرحلة الأولى إلى نحو الثلاثين سنة ، بدأها بالالتحاق بمدرسة المنصورة الابتدائية على مقربة من مسقط رأسه . وانتقل بعدها إلى القاهرة لمتابعة دراسته في مدرسة فرنسية حرة حصل فيها على شهادة الدراسة الثانوية سنة ١٩٠٦ . واجتذبه الفقه والتشريع ، فالتحق بمدرسة الحقوق ، دون أن يملك فيها طويلا ؛ ذلك لأن الجامعة المصرية القديمة أعلنت عن بعثة للدراسة إلى جامعة باريس ، فتقدم لها ، وفاز بمسابقته .

وسافر سنة ١٩٠٨ إلى أوروبا حيث قضى خمس سنوات نهل فيها من حياض العلم والأدب ، فلم يقنع بالدراسات الفلسفية التي سافر من أجلها ، بل ضم إليها بعض الدراسات العلمية كالجغرافيا الطبيعية ، والفسولوجيا ، وعلم الأجنة ، وكأنما شاء أن يستكمل وسائل منهج الدراسات الاجتماعية التي كانت سائدة في السربون حين ذاك . وتعلم لأكثر من عالم وفيلسوف . وتأثر خاصة بـ « لينى بريل » أحد أقطاب المدرسة الاجتماعية الفرنسية في أوائل هذا القرن . وكللت دراساته بالنجاح : وحصل فيها على شهادات مختلفة ختمها بشهادة الدكتوراه :

ولم تصرفه قراءاته الأجنبية عن مصادر الثقافة العربية التي نهل منها في طفولته وشبابه واستمر يرجع إليها طول حياته. فتوفرت له بذلك ثقافة شرقية وأخرى غربية. وأجاد الفرنسية إجادته للعربية، وألم بقليل من الإنجليزية والألمانية. وكل تلك أدوات صالحة للبحث والدراسة وأتيح له قبل عودته إلى مصر أن يطوف ببعض بلاد أوروبا فكانت الرحلة كتابا آخر أفاد منه إلى جانب ما درس وقرأ.

وقبل أن أنتقل إلى المرحلة الثانية من حياته، لا بد لي أن أشير إلى حادث رسالته للدكتوراه وكان موضوعها: «مركز المرأة في الإسلام» La Condition de la femme dans L'Islamisme.

وكان طبيعيا أن يختار موضوعا كهذا في جو تحرير المرأة المصرية في ذلك التاريخ الذي تزعمه قاسم أمين وزملاؤه. إلا أن إدارة الجامعة التي أوفدته رأت أنه جرت على قلمه عبارات تتنافى واحترام التقاليد الدينية. وسعت جاهدة إلى منع تقديم رسالته. ولكن منصور فهمي الشاب أبى عليه حماسه إلا أن يسير في الشوط حتى النهاية. فنوقشت الرسالة ونال عليها أعلى درجات الشرف.

وكم كان يرجى أن يقف الأمر عند هذا، ولكن للأسف تلتها إجراءات كان لها، فيما نعتقد، أثر بالغ في حياة فقيدنا. فما أن عاد من بعثته حتى أسند إليه في جامعته كرسي تاريخ المذاهب الفلسفية في يونية سنة ١٩١٣. وهذا ما أعد نفسه له. إلا أنه لم يمكث فيه طويلا. فقد استغنى عنه بعد نحو ستة أشهر لأسباب ترجع في جملتها إلى تلك الرسالة وقد يكون فيما كتب ما يثير نقدا أو يقتضي ملاحظة، ولكنه لا يؤدي إلى طرد أو حرمان. وحرية البحث العلمي أفسح صدرا، وأسمى من أن يعتدى عليها بسبب لفظ أو عبارة.

ومهما يكن من أمر فقد قضى فقيدنا في بدء حياته العملية ست سنوات يجاهد ويناضل في سبيل كسب عيشه. ويشعر شعور المطرودين والمحرومين، وأغلب الظن أن ذلك كان نقطة فاصلة في حياته. حوّل نقده الجريء إلى حذر وحيلة، وثقته بنفسه وبالناس إلى شك وريبة. وقد جرى على لسانه عام ١٩٢٥ في خطرة من «خطرات نفسه» ما يفسر هذا تمام التفسير. يقول في حديثه عن «فكر سجين»: «لم تقيّدون الحرية ولا تحلونّها، ولا تشعرون بخيرها وبركتها؟» ومضى على هذه النغمة. ثم تذكر «أن للجرائد قيودا وللكتابة قيودا» فزق ما كتب. وبدأ له «أن يعقد اجتماعا يتكلم فيه، ويسير بلسانه بين المجالس يبشر ويدعو إلى ما يريد». ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذا أيضا «لأن هناك أربطة ذهبية ثقيلة تربط رجله، وتجعله يحن إلى حياة أهون وسبيل ألين».

وبعد لأمى عاد منصور فهمى إلى جامعته عام ١٩٢٠ . وبقي فيها إلى أن حولت إلى جامعة أميرية ، وتدرج في المناصب الجامعية من أستاذ مساعد إلى أستاذ ، ومن وكيل لكلية الآداب إلى عميد لها . وتعلم له غير قليل ممن أصبحوا أساتذة اليوم واختير مديرا لدار الكتب . ثم مديرا للجامعة الإسكندرية إلى أن أحيل إلى المعاش سنة ١٩٤٦ . خمس وعشرون سنة تقريبا قضاهما في حياة جامعية متصلة أو منفصلة . وبذا يمكن أن يعد بحق من بناء صرحنا الجامعى الحديث .

وله إلى جانب هذا نشاط متنوع : اجتماعى وثقافى ، سياسى وصحافى ، فكان عضوا عاملا في جمعية الهلال الأحمر ، وجمعية الشبان المسلمين ، والاتحاد العربى ، ورابطة الإصلاح الاجتماعى ، ومن مؤسسى الحزب الديمقراطى . وأمد الأهرام بسلسلة من المقالات . وأشرف على تحرير جريدة القاهرة زمنا ، واشترك في كثير من المحافل والمهرجانات والمؤتمرات . وإن أنس فلا أنسى رحلته إلى تونس على رأس بعثة الهلال الأحمر سنة ١٩٤٧ لمساعدة المنكوبين هناك : وما صادفها من أهوال وأخطار .

حياة ولا شك زاخرة ومتنوعة . أثرت فيها عوامل شتى ، وآتت ثمارا مختلفة ، مرت بها بعض مصب الشك . ولكنها لم تلبث أن اطمأنت إلى يقين جازم . ترددت بين الشرق والغرب ، ثم انتهت بأن آثرت الشرق بما فيه من معالم الروح والخلود .

• • •

وقد أنتج منصور فهمى ما أنتج : من خطب منيرة لم تقيّد ولم تسجل ، أو مقالات صحفية لم تجمع ولم تبوّب ، أو محاضرات لم تحرر ولم تنشر . وإذا كان قد نشر شيئا من ذلك فإن كثيرا منه لا يزال مخطوطا ونميل إلى أنه كان يعتزم أن يخرج به إلى النور وفي مكتبته تراث جدير بالنشر . وعسى أن يضطلع أبناؤه وتلاميذه بذلك .

وما نشر من إنتاجه يمكن أن يرد إلى ثلاثة أبواب : محاضرات وخطب ، مقالات صحفية ، بحوث وترجمات . ونستطيع أن نضع تحت الباب الأول محاضراته في « أوقات الفراغ وكيف نستثمرها » ( ١٩٣٦ ) ، « والضعف الخلقى وأثره في حياتنا الاجتماعية » ( ١٩٤٠ ) . وخطبته في ذكرى « المولد النبوى » ( ١٩٤٢ ) ونشر له معهد الدراسات العربية أخيرا ( ١٩٥٥ ) سلسلة محاضرات عن رائدات النهضة النسائية الحديثة وذو الشوق القديم وان تسلى ، وكأنما شاء أن يعود إلى موضوع المرأة بعد أن لاقى في سبيله ما لاقى . وفي هذه السلسلة عرض تاريخى مستوف ، وتحليل أدبى مستفيض .

ولم ينشر شيء من محاضراته الفلسفية في الجامعة ومدرسة المعلمين العليا . وقد اتجهت في أغلبها نحو الأخلاق والدراسات الاجتماعية .

وفي نحو ٢٢٠ صفحة من القطلع المتوسط أخرج ما سماه « خطرات نفس » يجمع فيه طائفة من المقالات التي ظهرت له في الصحف بين عامي ١٩١٥ و ١٩٣٠ . فيتحدث عن « ضمير قلق » ، « ساعة عبادة » ، « طيف زائر » ، « عام جديد » ، « صور من النفاق » ، « القهوة والبيت » ، « التسامح » ، و « الرضا » . أربع وستون خاطرة في لفظ واضح ، وأسلوب موجز ، وهدف محدود ، ومنها قوله في « العيش الحقيق والعيش الكبير » : « اعلم أن خير العيش أن تعرف أن الحياة حق وأن التقدم المعقول حق وأنه من الواجب عليك أن تشترك بشيء من جهودك في هذا التقدم المعقول » ، وقوله : « الجمال خطيب صامت لا يرهب أن يتحدث الغير عنه ، إذ في صمته كل فصاحة ، وفي سكوته كل بيان . الجمال نسب وأوزان قد تحسه النفس أحيانا بواسطة العين . . . وقد تسمعه بواسطة الأذن . . . » الجمال متكبر قاهر متكبر لأنه يجمل عن أن يقدمه للنفس أحد . فهو يعرف نفسه بنفسه ، قاهر لأنه يغلب النفس القوية على أمرها ، فيوقع في أسره من شاء ، ويتخير لرقه من شاء . الجمال كالله وكالقوى الخفية من حيث أنها لا تعرف بذواتها ، ولكنها تعرف بآثارها » . وهكذا صدق في المعنى وصدق في التعبير ، ولا أظن أن منصور فهمي كتب على صحيفته مثلما كتب في خطراته .

أما بحوثه فأهمها رسالته للدكتوراه . وفيها منهج قويم ، ودرس واستيعاب ، ووقوف على أهم المصادر الإسلامية . وإن خرج الحماس ببعض أحكامها عن دائرة الموضوعية العلمية ، إلا أنا نعتقد أن هناك بحوثا إسلامية أخرى أعمق نقدا ، ولم تصادف ما صادفت هذه الرسالة من لوم واعتراض :

وحرية الرأي ظاهرة اجتماعية تخضع للظروف والملابسات ، تحترم حينما ويعتدى عليها حينما آخر . وله بحث آخر كتبه بالفرنسية أيضا . وعنوانه : « قراء وأميون Lottres et Illettrés »

تقدم به إلى أحد المؤتمرات العلمية وقام فيه ببعض التجارب معولا على « كلابريد » و « دكرولي » من أعلام علم النفس التجريبي في أوائل هذا القرن . وترجم لحوته بمناسبة مرور مائة عام على وفاته قصة هرمان ودوروثيا Hermann and Dorothea وتبدل فيها نزعه اللغوية مبكرة . فيتحاشى التعريب ويحاول ما وسعه أن يؤدي المعاني بالفاظ وعبارات عربية حتى لقد شاء أن يجد مقابلا للأعلام اليونانية القديمة . فيضع لكليو Klio ( شيطانة التاريخ ) راوية ولأورانيسدا urania ( شيطانة الفلك ) علوية .

ويحاول في إنتاجه كله أن يؤدب الفلسفة ويفلسف الأدب ، وهو إلى الأخير أميل . وفي أسلوبه صفاء ونقاوة ، يحرص على الوضوح الحرص كله ، ويتخير لفظه وعبارته ، وقد يلجأ

إلى الصنعة والتنسيق فيسجع أو يأتي بما يسمى الشعر المنشور . وله خيال خصب وغرام كبير بالتشبيه والصنور المجازية وكأنما غرس ذلك في نفسه منذ زمن مبكر . يقول في إحدى خطراته : « لقد كان لطائفة من الكتاب الخياليين سلطان على فكنت أصبو صبوا للصور والحلال الكريمة والأشباح التي كانت تخرجها أذهانهم قبل أن تصل بحقائق الحياة الموثلة » .

وليس في آرائه ونظرياته عامة ما يجاوز العرف ولا يخرج عن المألوف . وقد وجهته دراسته الاجتماعية نحو العناية بالمنهج التاريخي والوقوف عند بعض المقارنات ، واستخلاص بعض الظواهر الاجتماعية والأخلاقية ، ويأجأ إلى الاستشهاد كثيراً فيروى قصة أو يشرح حادثة أو يسرد أثراً ليخلص منه إلى ما يريد ويستعين به على توضيح ما يدعو إليه .

\* \* \*

ولم ترتبط حياة منصور فهمي بشيء ارتباطها بالجمع والمجمعيين ، اختير عضواً في مجمع اللغة المصري منذ إنشائه سنة ١٩٣٣ ، وانتخب كاتب سره سنة ١٩٣٤ ، وبقي على ذلك إلى أن اختاره الله لخواره . وكان عضواً مراسلاً للمجمع العلمي العربي بدمشق ، وللمجمع الإيراني ، والمجمع العراقي ، ولم يفته مؤتمر من مؤتمرات المجمع أو اتحاداتها . وفي مجمع اللغة المصري اضطلع بغير قليل من أعبائه ، فكان عضواً في مكتبته ، ثم في مجلس إدارته ، واشترك في أكثر من لجنة من لجانه وخاصة الطب ، والأصول ، واللهجات . وكان ذا نزعة خاصة واتجاه ثابت فيما يتعلق بمبادئه ومنهج العمل فيه .

أخذ نفسه بشرح رسالته والدفاع عنه . ولم يسلم المجمع من بعض الحملات داخل البرلمان وخارجه ، فكان منصور فهمي يسارع إلى ردها وشرح الموقف على حقيقته . ومن أحدث ما كتب في ذلك محاضراته التي ألقاها في مؤتمر اتحاد المجمع اللغوية والعربية بدمشق عام ١٩٥٦ . وكان يدعو دائماً إلى تنسيق الجهود بين المجمع اللغوية العربية المختلفة ، وربطها بعضها ببعض . وما أن أعلنت الجمهورية العربية المتحدة حتى أخذ يدعو إلى توحيد مجعبي الإقليم الشمالي والإقليم الجنوبي .

ويطول بنا الحديث إن شئنا أن نعرض لتفاصيل نشاط منصور فهمي المجمع ، ويمكن أن نشير إلى أمثلة منه ، فله حوليته التي كان يلقيها في افتتاح المؤتمر السنوي ، ويعرض فيها لأعمال المجمع طوال العام . ولها مهمة ثقيلة . وكثيراً ما حاول أن يخففها بما أحاطها به من تشبيه وتصوير ، أو عرض لبعض القضايا الكبرى كتعليل التضاد من قوانين النزعات النفسية ، أو بيان الصلة بين اللغة والفكر أو بينها وبين الزمن ، أو أنها أجلى مظاهر القومية .

والمتتبع لتاريخ المجمع اللغوي في ربع القرن الماضي سيجد فيها تسجيلاً لأهم أحداثه ، وعرضاً شاملاً لمظاهر نشاطه .

وله جهده المستمر في تخيير كلمات عربية قديمة أو جديدة ، مشتقة ، أو منحوتة لأداء بعض المعاني ، كالمدراس لقاعة البحث ، والمُدام لدوار البحر ، والمهرق لورق الشمع ، والغيرية للمذهب الفلسفي المشهور . وكلنا يذكر ملاحظته التقليدية حين يسمع لفظا أجنبيا معربا في النبات أو الكيمياء أو الطبيعة : « ألا من لفظ عربي يغنيننا عن هذا الدخيل » .

وهذا جهد مشكور ولا شك ، إلا أن الاستمسك بالألفاظ العربية وحدها ، وسد باب التعريب ، حرمان للغة من غذاء جديد . وما أحوج اللغات ككل كائن إلى الغذاء ، وقد أخذت اللغات بعضها عن بعض من قديم . ولا تزال تسير على هذه السكة إلى اليوم ورب لفظ مشتق أو منحوت أثقل من لفظ معرب صقاه الاستعمال وألفته الأذن .

وهنا نصل إلى نقطة حاسمة في نشاط منصور فهمي الجمعي . لا شك في أنه كان مجعيا بقلمه ولسانه ، بقلبه وفكره . ولكنه من ذلك الفريق الذي يؤثر التريث والأناة على البت والقطع ، وإذا كان لكل هيئة جناحان : أيمن للارتكاز والتوقف ، وأيسر للعلو والحركة ، فإنه كان من دعائم الجناح الأيمن للمجمع اللغوي . واستطاع أن يطبع أعماله الإدارية والفنية بهذا الطابع الخاص في ربع القرن الماضي . ولنا بصدد المفاضلة بين جناحين أو اتجاهين . فللقديم حرمة ، وللجديد لذته ، وإنما نود أن نلاحظ فقط أن حضارتنا خلقوا ابتكارا وتجديدا وتغييرا ، وهي أميل إلى القفز والسرعة ، بل الجري والطيران ، ولا بد لنا من متابعتها ، وإلا تخلفنا عنها .

\* \* \*

هذا هو منصور فهمي فقيه الجامعة والمجمع ، فقيه العلم والأدب ، فقيه المنبر والقلم ، عاش لغيره أكثر مما عاش لنفسه ، وساهم في تكوين جيل من الفلاسفة والأدباء ، وارتبط ببعض المنشآت التي أضحت جزءا منها وكانت شغله الشاغل . وهو في كل هذا أقرب إلى الجهد منه إلى المرح ، وإلى الهدوء والرزانة منه إلى الاندفاع والحركة برغم ما يبدو عليه من حماس ظاهر ، وصوت جههوري ، وكأنما كان يخشى التجديد السريع الذي لا يقوى على حملات القديم واعتراضاته ، والإصلاح الجري الذي لا يتمشى مع العرف والعادة أو لا يرتضيه ذوو الجاه والسلطان . وقد يكون لصدمة رسالته للدكتوراه شأن في ذلك .

وكيفما كان الشأن فهو ممن يقولون : « ما ترك الأول للآخر شيئا » . وقد أثبت العلم والتطور أن المتأخرين كشفوا عن أمور كثيرة لم تخطر ببال المتقدمين . ويخيل لي أنه علمت عليه مسحة من التشاؤم جعلته يخشى الطفرة ، ويتسلح بالحيلة والحذر .

ولنحضر في الآن ملاحظة عميقة من ملاحظاته في مناسبة كهذه ، ولا أستطيع إزاءها أن أترسل أكثر مما فعلت . فقد كان في وفاته لزملائه سباقا إلى استقبالهم عند دخول المجمع ، وتأبينهم عند الرحيل عنه . ووقف مرة يرثي زميلين كريمين هما : الإسكندري الأديب المصري ، ونالينو المؤرخ الإيطالي فقال : « يلوح أن المراثي تقدير للمتوفين ، ووفاء لهم بما قاموا به من الأعمال . ولكن هل بمن هم في جوار ربهم حاجة إلى تقدير البشر ؟ وهل بمن وفوا حسابهم في الدنيا حاجة إلى من يوفيه من الناس حسابا وهم عند ربهم يحاسبون ؟ هيات ؟ هيات !! هيات !! إنما نقلب صفحات الموتي لأنفسنا بما نستفيده من هذا التقلب فن أجل الحياة نستلهم الموت ، ومن أجل الأحياء نستغل الموتي إحسانا ونرثي الراحلين » :

---

## ٢ - لويس ماسنيون (ديسمبر ١٩٦٢)

من صومعة الخالدين هذه نودع زميلا كريما عاصر المجمع منذ البداية ، وكان من مؤسسيه الأول الذين لم يبق منهم إلا اثنان بعده . اختير لعضويته عام ١٩٣٣ مع من اختيروا من الأعضاء الخمسة المستشرقين ، وكان فخورا بهذا الاختيار ، حريصا دائما على المساهمة في نشاط المجمع ، والاشتراك في مؤتمره حتى يوم أن ضيقت الحرب العالمية الثانية السبل وعز معها الاتصال. وكان يرقب هذا المؤتمر عاما بعد عام ، ويتأهب له ، ويشعر بالحرمان حقا إن منعه مانع من شهوده ، ولا أزال أذكر ألمه الشديد يوم أن جال حادث موسكو دونه وحضور مؤتمر عام ٦٠-٦١ ، كما أذكر سعيه الجاد للاشتراك في المؤتمر الأخير ، وحتى شهر أغسطس كان يكتب إلى متأهبا للمساهمة معنا في المؤتمر القادم ، وتقدرتون فتضحك الأقدار ؟

ونودع أيضا علما من أعلام الاستشراق في القرن العشرين ، وزعيم المستشرقين اليوم غير منازع ، حظى بتقدير واحترام لم يحظ بهما مستشرق آخر ، وكان حجة في القول والعمل ، وامتد نفوذه إلى العالمين القديم والحديث . اتصل بالمسلمين منذ العام الأول من هذا القرن ، وزاد اتصاله بهم وثوقا على مر الزمن . فرحل إلى أقطارهم المختلفة ، وزار عواصمهم الكبرى في الشرقين الأقصى والأدنى ، وشاركهم في السراء والضراء ، وتوفرت له بينهم صداقات متينة ، وأضحت بيوتهم بمثابة بيته . وكم كان يشعر بالهدوء والغبطة حين ينزل في القاهرة ، التي كان بعدها وطنه الثاني . وإلى سبتمبر الماضي كان يتأهب لزيارة أفغانستان ليساهم في ذكرى الأنصاري الصوفي الحنبلي ، ويعد كلمة لمهرجان بغداد الذي أقيم أخيرا . عرف العالم الإسلامي حق المعرفة في ماضيه وحاضره ، في تراثه ومجده ، وكأنما عاش فيه ومن أجله ، فجاء درسه له دقيقا مستوعبا وحكمه عليه وثيقا مدعما ، ويعد بحق أكبر عالم في « الإسلاميات » بين الغربيين .

وسنؤرخ له في اختصار ، مبينين أنخص خصائص حياته ومصنفاته ، وأهم آرائه ونظرياته :

### (١) حياته :

لم يترجم ماسنيون لنفسه ترجمة ذاتية ، كما يصنع بعض المفكرين ، وما أشد حياءه حين يسمع حديث الناس عنه وتنويهم بآثاره ، ولا يكاد يذكر شيئا عما مر به من أحداث إلا لما وفي لمحات خاطفة . ولكن لحسن الحظ درس أثناء حياته دراسة قل أن يحظى بها باحث آخر ، فوضع بمناسبة بلوغه السبعين مؤلف ضخيم هو :

Mélanges — louis Massignon ويقع في ثلاثة أجزاء كبيرة يزيد حجم كل واحد منها على ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير . واشترك فيه عدد غير قليل من زملاء ماسنيون وتلاميذه

وأصدقائه ، بين عرب ومستعربين ، وكتب بعدة لغات أهمها الفرنسية ، وإلى جانبها الإنجليزية والألمانية والتركية . ويدور حول الحضارة الإسلامية في أوسع معانيها ، ففيه لغة وأدب ، وعلم وفن ، ودين وفلسفة ، وهو بهذا مصدر قيم من مصادر الحياة الفكرية في الإسلام . وفيه مقدمة للأستاذ هنري ماسيه ، زميل ماسنيون وصديقه ، وهو بهذا خير من يعرف به ويرسم الخطوط الرئيسية للعالم حياته . وأضاف إليها الأب مبارك ، تلميذه ، فهرسا جامعا لبحوثه ومؤلفاته ، يقع في نحو خمسين صفحة .

وفي العام الماضي أخرج الباحث الهولندي [فاردن بوج Waardenburg] كتاب الإسلام في مرآة الغرب ( L'Islam dans le miroir de l'Occident ) وهو رسالة الدكتوراه من جامعة أمستردام ، صدر فيها عن خمسة من المستشرقين ، هم : جولدتزيهر النمساوي ، وبيكر الألماني ، وسنوخ الهولندي ، ومكدونالد الأمريكي وماسنيون ، وكلهم أموات حين ذاك إلا واحدا سما إلى مرتبة الخلود وإن كان حيا واختياره على هذا النحو يدل على منزلته الخاصة بين علماء الدراسات الإسلامية الغربيين وفي هذه الرسالة ترجمة مفصلة لحياته وعرض لكثير من آرائه .

\* \* \*

وحياة فقيدنا ولا شك خصبة زاخرة ، جمعت بين العلم والعمل ، امتلأت بالإنتاج المتواصل والنضال الذي لا يمل . وتنقسم إلى مرحلتين متميزتين : مرحلة تكوين ونشأة لم تتجاوز العشرين ، ثم تلتها مرحلة إنتاج وعمل دائب أوشكت على الستين . وقد ولد لويس ماسنيون في الخامس والعشرين من شهر يولية عام ١٨٨٣ بضاحية هادئة من ضواحي باريس ، هي : Nogent - Sur - Marne وترجع أصوله إلى مقاطعة بريتانى . وكان أبوه طبيبا أولع بالفن ، وبخاصة النحت والتمثيل الذي اشتهر به في أخريات القرن الماضي . وقد ألحق ابنه بليسيه لوى لجران Louis le Grand الشهيرة ، وحصل على البكالوريا بقسميها الأدبي والرياضي في عامى ١٩٠٠ و ١٩٠١ . وفي الأعوام الأربعة التالية حصل على ليسانس الآداب ، ودبلوم الدراسات العليا في التاريخ والجغرافيا ، ودبلوم اللغة العربية من مدرسة اللغات الشرقية ، ودرس السنسكريتية والعلوم الدينية بالسربون ، وعلم الاجتماع في الكوليج دى فرانس ، برغم انقطاعه للخدمة العسكرية عاما كاملا .

وقد اجتذبت الرحلة والسفر منذ سن مبكرة ، واستمر يرحل دون انقطاع ، وكثيرا ما كنا نتساءل كيف يوفق بين سفره ودرسه . وفي السنوات العشر السابقة على الحرب العالمية الأولى تنقل بين عواصم العالم الإسلامى وبلدانه ، ولكنها كانت جميعا رحلات بحث ودراسة . فسافر إلى الجزائر بعد حصوله على البكالوريا في رحلة قصيرة عام ١٩٠١ ، وإلى مراكش عام ١٩٠٤ ، وكتب عنها بحثا نال به دبلوم الدراسات العليا ، وأخذ يقتنى آثار ليون الأفريقى . وفي عام ١٩٠٥

اشترك في المؤتمر الدولي الرابع عشر للمستشرقين الذي عقد بالجزائر ، حيث التقى بجولد تزيهر وأسين بلاسيوس . وفي سنة ١٩٠٦ عين عضوا بمعهد الآثار الفرنسي بالقاهرة ، فرحل إليها وقضى فيها عاما كاملا يحفر وينقب ويراقب ويلاحظ . وفي العام التالي عهد إليه القيام بأبحاث في آثار العراق الإسلامية ، فسافر إلى بغداد في شتاء ١٩٠٧ ، ونزل ضيفا على بيت الألوسي المعروف . وقام بحفائر في بادية العراق ، وزار مشاهد الشيعة كلها ، فر ب كربلاء والنجف والكوفة ، ولم تفته « سلمان باك » تلك القرية الصغيرة التي دفن فيها صحابيان جليلان هما سلمان الفارسي وحذيفة . وفي هذه الرحلة وقف على قبر مهمل بين قبور بغداد فتح أمامه الطريق وبعث في نفسه ما بعث من يقين وبهجة وهو قبر الحسن بن منصور الحلاج . وفي سنة ١٩٠٩ ذهب إلى استانبول للاطلاع على ما فيها من نفائس التراث الإسلامي . وظل يتردد على القاهرة شتاء كل عام إلى أن دعي للتدريس بالجامعة المصرية القديمة سنة ١٩١٢ - ١٩١٣ ، وانصب درسه على المذاهب والمصطلحات الفلسفية في الإسلام .

وعلى أثر قيام الحرب العالمية الأولى طلب للخدمة العسكرية ، وعين ضابطا في جيش الشرق ، واشترك في معركة الدردنيل ، ودخل القدس تحت قيادة أنبي . ولما وضعت الحرب أوزارها عين في سنة ١٩٢٠ بديلا لأستاذه Le Chatelier ، بالكوليج دي فرانس في كرسى « علم الاجتماع الإسلامى » ، ولم يلبث أن أضحى أستاذا لهذا الكرسي عام ١٩٢٦ ، واستمر يشغله إلى أن بلغ السن القانونية عام ١٩٥٤ ، ففضى في الكوليج دي فرانس نحو ثلاثين عاما ، كان فيها منارا للدراسات الإسلامية ، وهاديا لطلاب البحث من عرب ومستعربين . ولم يمنعه بها من الرحلة والسفر ، فلم يفته مؤتمر من مؤتمرات المستشرقين ، ولم يتردد في أن يحاضر في عواصم الإسلام المختلفة بل وفي بعض جامعات الولايات المتحدة . وأقام في كابول وطهران زمنا ، وسافر إلى الهند ليتتبع آثار غاندى ، واجتلبته اليابان بما فيها من حياة دينية وروحية . وكانت هناك أماكن تسهويه بوجه خاص ، وعلى رأسها بيت المقدس ، وأفسس مقر أهل الكهف ، ودمياط التي أسس فيها جماعة الأخوة المسيحية الإسلامية أو « البدلية » ، وقضى فيها يوما كاملا في البحث عن ضريح . وإلى جانب هذا كله رأس قسم العلوم الدينية بالدراسات العليا في السربون نحو عشرين عاما ، ومسابقة تدريس اللغة العربية ما يزيد على عشر سنوات .

\* \* \*

حياة حافلة بالكشف والبحث ، والدرس والمحاضرة ، وقد أعانه عليها ذهن متوقد ، وعبقريّة شارقة ، وصبر وجلد ، وحب وتفان فيما يقصد إليه وما يضطلع به . وأغلب الظن أنه ورث عن أبيه ميوله الفنية ، وبحوثه الأثرية التي بدأ بها حياته العلمية . واتصل بأناس كان لهم أعظم الأثر في نفسه ، وفي مقدمتهم ويسمانس الكاتب القصصى الكاثوليكي المشهور صديق والده ، زاره

في شرح الشباب ، وبقيت هذه الزيارة عالقة بذهنه إلى النهاية . ولقي الأب شارل دي فوكو ، ذلك الراهب الذي كان يعيش في صحراء الجزائر ويدعو إلى الأخوة في الله ، فأخذ باتجاهاته الدينية ، وراسله عدة سنين . وتعلمد لكبار الأساتذة في عصره ، أمثال برونو في الأدب الفرنسي وسلفان ليقي في السنسكريتية ، وجولد تزيهر وسنوخ في الدراسات الإسلامية . وكان لأسفاره العديدة شأن في استكمال خبراته وتجربته ، وأثر عظيم في بحثه ، أملت عليه دراسات مختلفة ، وأوحت إليه بآراء كثيرة .

#### (ب) مصنفاته :

أمضى ماسنيون نحو ستين عاما يكتب ويؤلف وأخرج مايربو على ستمائة بحث ، بن كتاب ورسالة أو مقالة ومحاضرة ، أو نقد وتعليق . ومنها قدر لم ينشر بعد ، وخاصة محاضرات الكوليج دي فرانس ، وكثير مما نشر موزع بين مجلات العالم وصحفه ، ويضطلع الأب مبارك بجمعه ونشره جملة تحت عنوان : « المؤلفات الصغرى » . كتب ماسنيون بالفرنسية بوجه عام ، وله بحوث بالعربية والفارسية والإنجليزية والألمانية . والواقع أنه كان يعرف عدة لغات حية وقديمة فمن اللغات الحية ضم إلى الفرنسية العربية والفارسية والإنجليزية والألمانية ، ومن القديمة كان متمكنا من اليونانية واللاتينية ، وعلمنا بالسنسكريتية والعبرية . وقد ترجم بعض مؤلفاته إلى لغات مختلفة في الشرق والغرب ، وأعيد طبع بعضها أثناء حياته ، ومنها ما نفذ ولا سبيل إليه ، وخاصة كتابه الكبير عن الحلاج الذي كان قد اعترم إعادة طبعه ، وما أحوج الباحثين إليه .

ويمكن أن ترد مصنفاته إلى أبواب ثلاثة رئيسية :

(١) آثار وتخطيط .

(٢) تصوف ودين .

(٣) اجتماع وحضارة .

أشرنا من قبل إلى أنه بدأ بالآثار ، وشغل بها في شمال أفريقية ومصر والعراق . وأخرج فيها بحوثا قيمة يمكن أن نذكر من بينها « لوحة جغرافية للمغرب في الخمس عشرة سنة الأولى من القرن السادس عشر ، أخذنا عن ليون الأفريقي » .

(Tableau géographique du Maroc dans les 15 premières années du XVIe siècle, d'après léon l'Africain, Alger 1906)

(Mission en Mésopotamie, Le Caire 1912).

و « بعثة في شبه الجزيرة »

الذي ظهر في جزأين كبيرين بين مطبوعات المعهد الفرنسي . وله كتاب ثالث ظهر أخيرا عن

(La Cité des Morts au Caire, Le Caire, 1958).

« قرافة الدرب الأحمر »

ويشهد هذا الكتاب بحق على مدى صبره وجلده وإيمانه بما يسعى إليه .

أما التخطيط فله فيه بحوث نذكر منها تخطيط بغداد ، والكوفة والبصرة .

والتصوف في الواقع دعاية بحوثه ، كتب فيه ما لم يكتب في أى باب آخر ، وظهرت فيه مؤلفاته الكبرى . وضع فيه أولاً « عذاب الحلاج شهيد التصوف في الإسلام » .

Le passion d'Al Hallag, martyr mystique de l'Islam 2 vol. Paris 1922. 1454

وهو رسالته الأولى للدكتوراه :

وثانياً — رسالته الثانية ، وهي « بحث في نشأة المصطلح الفني في التصوف الإسلامى »

(Essai sur les origines du lexique technique de la mystique musulmane, Paris 1922, 1954).

وثالثاً — « مجموع نصوص لم تنشر تتعلق بتاريخ التصوف في بلاد الإسلام »

(Receuil de textes inédits concernat'' l'histoire de la mystique en pays d'Islam Paris 1929).

وله بحوث توضح بعض الظواهر الصوفية كالزهد والحلول والتجربة الصوفية ، أو تترجم لبعض المتصوفة كالحاسبي وابن سبعين والششتري . وعنى بالحلاج عناية كبرى ، لأنه صادف هوى من نفسه ، أعجب بشجاعته وتضحيته ، ورأى في حياته تجربة إنسانية تبعث على الطهر والصفاء . فترجم له غير مرة ، ونشر كتبه ، وجمع مصادره المختلفة ، وبيّن أثره في الحلاجية والزيدية وفريد الدين العطار . ولا شك في أن رسالته الكبرى عنه عمل خالد وذات منزلة ممتازة . تقع في نحو ١٠٠٠ صفحة ، وتكاد تلم بكل مظاهر الحياة الإسلامية ببغداد زمن الحلاج ، وتصور بيئته تصويراً تاماً ، وسيتقن الحلاج وماسنيون مقترنين على مر الزمن :

ولماسنيون بحوث شتى في الفرق والمشاكل الدينية ، وخاصة ما اتصل منها بالشيعة والإسماعيلية : فعرض للغنوصية والهرمسية والصابئة والقرامطة والنصيرية والدروز وسامان الفارسي والمباهلة ، كما عرض لأصحاب الكهف وصلوات إبراهيم الثلاث ، وقارن بين الأديان السماوية الكبرى :

كان طبيعياً أن يعنى بعلم الاجتماع ، وقد شغل كرسبه نحو ثلث قرن ، واستوقفته بعض الظواهر الاجتماعية في ماضى الإسلام وحاضره . فدرس العمل والمشكلة العمالية في الإسلام ، والمهن والحرف في المغرب ، وأثر الإسلام في نشأة المصارف اليهودية في القرون الوسطى . وعرض لتعليم المرأة والحجاب ، وموقف الإسلام من الحضارة الأوروبية . وتابع الأحداث الجارية في جرأة وصراحة ، فكتب عن « الصهيونية والإسلام » ، « الإسلام والسياسة المعاصرة » ، « تقسيم فلسطين » ، « اللاجئين » ، « الموقف في الجزائر » . وكان يعالج ذلك كله بروح الباحث المنصف والعالم المحقق ، ويعرف كيف يقدر ظروف البلاد الإسلامية حق قدرها . وفي مقدمة دراساته الاجتماعية —

« الكتاب السنوى للعالم الإسلامى » . (Annuaire du mode musulman, 1923-29, 54).

أخرجه ثلاث مرات فيما بين عامى ١٩٢٣ ، ١٩٥٤ ، مع إضافات وتنقيح مستمر . وهو مصدر ملء بالمعارف الدقيقة والمعلومات الوثيقة في الثقافة والسياسة والاقتصاد عن العالم الإسلامى بأسره في أفريقيا وآسيا وأوربا ، فيتحدث عن بلاد الشرق الأدنى وشمال أفريقيا وتركيا وإيران وأفغانستان والباكستان ، كما يتحدث عن أندونيسيا والجمهوريات الإسلامية الروسية ومسلمى الهند والصين

واليابان ، ولا يغفل مسلمى أفريقيا الغربية والاستوائية ، ولا مسلمى أوروبا ، وحبلنا لو تعهد هذا المورد العذب .

وإلى جانب هذا عرض ماسنيون للغة العربية وتاريخ العلوم والفلسفة الإسلامية ، فحدثنا هنا عن ميثاقزقي اللغة ، وعبقورية النحو العربي ، وقيمة الخط العربي في تأسيس فن النقش المجرد ، ووازن بين المعجم الأوربي والمعجم العربي . وكتب عن « الإسماعيلية ونشر العلم » وعن « البيروني والقيمة الإنسانية للعالم العربي » ، وعن « غيوم ماجيلان واكتشاف العرب لها » (Les Nuages de Magellan et leur découverte par les Arabes, Paris 1962) وهو آخر بحث أخرجه هذا العام ، وكشف عن جوانب بعض كبار فلاسفة الإسلام ، أمثال الكندي والفارابي ، وابن سينا ، وشغل زمناً باخوان الصفاء . وأدار لمدة ربع قرن أو يزيد « مجلة العالم الإسلامي » (Revue du Monde musulman) « ومجلة الدراسات الإسلامية » التي حلت محلها (Revue des études islamiques).

وفي كليهما تحقيقات علمية وأدبية كثيرة .

وأسلوب ماسنيون صاف نقي ، يتخير لفظه ، ويتأنق في عبارته حتى تكاد تشبه النثر المنظوم : وله غرام بالتركيز ، وولوع بالرمز والإشارة والتلميح وكأنها عادة اكتسبها من أساليب المتصوفة ولغتهم . وأداء للمعنى على أكمل وجه لا يتردد في أن يضع ألفاظاً جديدة ، وزيادة في التوضيح يلجأ إلى الحجاز والتشبيه وضرب الأمثال . ويستطيع بقلمه أن يرسم صوراً ناطقة للأشخاص ، كما كان يصنع لهم أبوه بمنحاته تماثيل معبرة . منطقته محكم ، واستدلالة مقنع ، وحجته بالغة ، ولا بد في رأيه أن ترد الأمور دائماً إلى أصولها ومبادئها ، وكثيراً ما كانت تجرى لفظة الأصول على لسانه :

\* \* \*

ويعول في بحثه ودرسه على المنهج التاريخي والمنهج التحليلي معاً ، وهو دون نزاع مؤرخ من الطراز الأول . بدأ حياته العلمية بالحفر والتنقيب عن الآثار ، ثم استمر ينقب عن المراجع والمصادر ويوازن بينها ، ويكشف عن نقصها أو زللها ، ولا يكاد يغيب عنه مصدر من مصادر الثقافة الإسلامية قديماً كان أو حديثاً . وجلة في الاستقصاء والبحث عن المخطوطات النادرة إلى درجة لا تبارى ، وكثيراً ما ساعدها تلاميذه على التحقيق والدراسة . ولا يكاد يعالج موضوعاً حتى يستوفي تاريخه ، فدراساته في التصوف مثلاً تاريخ في تصوف وتصوف في تاريخ ، وأبحاثه الاجتماعية تقوم على الماضي والحاضر معاً .

وأما منهجه التحليلي فدعاة للدهشة والإعجاب ، ذلك لأنه يسرد وقائع ويأتي بتفاصيل عن الماضي البعيد يتساءل السامع أو القارئ كيف استمدتها . يغوص حتى الأساس ، وقد يستطرد ، ولكنه يحاول لم الأطراف وجميع الأمور المتشابهة بعضها إلى جانب بعض . وتحليله للنصوص عميق

دقيق ، ينفذ إلى صميمها ، وينطقها بحيث يجعل من حروفها الميته صوراً متحركة . ولكنه يحال لركب ، ويفصل ليكمل ، ويسرد الوقائع ليستخلص منها مبادئ وأحكاماً عامة . وكأنما كان يؤمن بضرب من حتمية التاريخ ، ويرى أن الظواهر التاريخية — كالظواهر الطبيعية — تخضع بدورها لفلسفة وميتافيزيقى خاصة .

### (ج) آراؤه :

يلحظ على مؤلفات ماسنيون ، وخاصة الصغرى وهى الغالبية العظمى ، أنها أبعد ما تكون عن ملخصات الجمع والتحصيل . وإنما تهدف إلى إثارة مشكلة أو حل أخرى ، أو ترمى إلى إبداء رأى أو مناقشة آخر ، وأستاذ الكوليج دى فرانس إنما كان يخاطب المتخصصين . وليس بيسير أن نحاول هنا تتبع آرائه المختلفة ، ونكتفى بأن نشير إلى دعائم تفكيره .

لقد كان يؤمن بالحضارة الإسلامية ، ويرى أنها حضارة ذاتية ، صنعها الإسلام بتعاليمه ومبادئه ، وساهمت في بنائها الشعوب الإسلامية المختلفة . ولا نزاع في أنه سرت إليها تيارات من الحضارات الأخرى ، ولكنها عدلتها وهذبها وأصبحت جزءاً منها ، وهى وليدة عواملها الداخلية قبل أن تكون صنع المؤثرات الخارجية . وإذا كانت قد أخذت عن غيرها ، فإنها أعطت بقدر ما أخذت أو يزيد : لها علمها وفنها ، ولها نظمها السياسية والاجتماعية ، وقد طبعت العالم الإسلامى كلها بطابعها ، ولا سبيل لأن يفهم بدونها . وهى جديرة بأن تشرح وتدرس ، لأنها صوّرت أحياناً خطأ وفهمت على غير وجهها ، ولها قيمتها بين الحضارات الإنسانية . ولهذا وقف ماسنيون نفسه على درسها ، والكشف عن جوانبها ، والإشادة بتراثها . وهى فى رأيه حضارة إنسانية تعتد بالإنسان وترفع من قيمته ، وتدعو إلى الإخاء والمحبة والتعاون والتساند . وهى أيضاً حضارة دينية تعتمد على الإيمان واليقين ، وروحية تخاطب القلوب وترى فى المادة مجرد وسيلة ، ومثالية لها قيمها وأهدافها هى فى اختصار حضارة الإسلام .

والإسلام أخو المسيحية واليهودية ، وهى ثلاثتها تمت بصلة وثيقة إلى شريعة إبراهيم . أو ليس محمد ابن الدبيحين ومن نسل إسماعيل ، ألم يكن يتعبد ، قبل أن يبعث ، فى غار حراء على سنة إبراهيم الخليل ، ألم يبشر ببعثه رهبان من النصارى ، ألم يجمع المسلمون والمسيحيون على تقديس أهل الكهف والتعبد بقصتهم ؟ لقد ملأت هذه الأخوة قلب ماسنيون واستولت على روحه حتى أصبح يعد أكبر مسلم بين المسيحيين وأكبر مسيحي بين المسلمين . باسمها استنكر الحروب الصليبية فى الماضى ، وباسمها استنكر العدوان على فلسطين فى الحاضر . ولما اتجه إليها بوحى من الأب شارل دى فوكو ، ولكنه اعتنقها فى إخلاص ، وعاش يدعو إلى التفاهم والتسامح بين الأديان ، وكم عز عليه أن تهدم السياسة ما بنى فى فلسطين وفى الجزائر . وتقديساً لهذه الأخوة أقام لها شعاراً فى دمياط ، وآخر فى Vieux-Marché بمقاطعة بريتانى موطنه الأول ، وكون فى أخريات حياته ،

« جماعة أصدقاء غاندى » ، التي كان يصوم ويصلي معها ، وبرى في الصوم والصمت خير رد على الباغين والمعتدين .

لقد كان ماسنيون يعيش بروحه ولروحه ، والأرواح فوق الأوطان والأجناس والعصبيات ، وهي بين المسلمين والمسيحيين على السواء ، ويمكن أن تكون أوثق رباط بين الإنسان وأخيه الإنسان ، ويطلب الماسنيون الصوفي أن يخاطب رابعة العدوية كما يخاطب القديسة تريزة ، أو أن يتحدث عن العلاج كما يتحدث عن جان دارك . لم يدرس التصوف نظراً فحسب ، بل أحس به وعاش فيه ، وبدأت آثاره في قوله وعمله ، واتسم به وجهه ، ونعم بلذة الكشف والفيض . والتصوف عنده تجربة في الألم ، تحمل من مر بها على أن يتسامح مع الناس جميعاً على اختلاف الأجناس والأديان ، وقد يصبح طبيباً روحانياً يعالج آلام الآخرين ، يكشف عن الداء ويصف له الدواء . فهو فن معالجة الأمراض من طبيب جربها في نفسه ، لا يقف أثره عند الفرد ، بل يمتد إلى المجتمع : ومهمة المتصوف لا تقتصر على الخلوة والوحدة ، ولا بد له أن يتأهب دائماً للتضحية في سبيل الآخرين . وقد كان ماسنيون متصوفاً حقاً ، يقف بجانب الضعفاء ، وينتصر للمظلومين ، وتصوفه وثيق الصلة بدراساته وآرائه الاجتماعية . وفي التصوف كل القيم الأساسية للإسلام . يبدأ بالعبادة ، ويسمو إلى النورانية ، ثم ينتهى إلى الاتحاد . والاتحاد الصوفي ممكن عقلاً ، وواقع فعلاً ، وقد حظى به العلاج بين متصوفي الإسلام . ولا معنى للحياة إلا إن قامت على أساس روحى ، وبهذا يعد ماسنيون في مقدمة أنصار المذهب الروحى بين المعاصرين :

والعربية عنده وظيفة دينية ، لأنها تعبر عن أوامر الله ، ووسيلة التأمل والمناجاة . هي لغة الوحي ، ومنه استمدت مجدها وقداستها . ولقد أحبها لأنه وجد فيها نفسه ، وتعمق فيها ، وكشف عن كثير من أسرارها التي لم تكشف لغيره . وكان يروقه منها أنها لغة مركزة ، تنبعث من ألفاظها المعاني كما تنبعث الشرارة من الحجر ، وتجيد التعبير عن المجردات ، فهي أنسب ما يكون للتقرب والعبادة . لم تصل واحدة من أخواتها إلى مستواها ، وبدأت فيها العبقرية السامية على أوضح وأكمل صورة . وفي محاضرة ألقاها على جماعة الكرمليين ، عقد موازنة طريفة بين اللغات العالمية ، وقسمها إلى ثلاث أسر : سامية ، وهندوأوروبية ، وطورانية . ولاحظ أن العربية في أغلبها ثلاثية الأصول ، وأنها لغة سواكن ، وهي أكثر الساميات احتفاظاً بسواكنها ، ولنبرات الصوت شأن في توضيح المعنى . فـ

وهي لغة حضارة ، تستطيع بالفاظها وتراكيبها أن تؤدي أدق المعاني وأحدثها . وفي نحوها كمال ودقة لم تتوفر لأى نحو آخر ، وربما امتدت إليه آثار يونانية أو سريانية ، ولكنه في أساسه عربى ، وقد أثر دون نزاع في تطوير النحو العربى والسورىانى . وجدير بنا ألا نستجيب لدعوة بعض المربين الذين يريدون أن يحلوا محله نحواً أوربياً ، لنيسر تعليمه ، ولا يصح مطلقاً أن نعدل أصوله . وفي الخط العربى جمال ينبغى ألا يحرم منه التراث الإسلامى ، وله شأن في تأسيس فن

النقش المجرد : وقد مال ماسنيون في البداية إلى الإصلاح التركي الذي رمى إلى إحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية ، ولكنه لم يلبث أن عدل عنه واستنكره :

\* \* \*

هذه في اختصار هي دعائم الدراسات الإسلامية التي قام بها ماسنيون ، وتكاد تحمل كلها طابعاً صوفياً ، وكأنها كان يرى الأشياء جميعها من خلال تصوفه : ومهما يكن فإنه دفع هذه الدراسات دفعة لم يقو عليها مستشرق آخر ، وأضحى رمزاً لها وعلماً عليها في الشرق والغرب ، والتف حوله جمع وفير من التلاميذ والأعوان . واستمر يتعهدا حتى النفس الأخير ، وقد رسمنا سوياً في أغسطس الماضي خطة عدد خاص من مجلة « بابل » في موضوع الترجمة المعاصرة من العربية وإليها ، على أن يساهم فيه ألماني وفرنسي وإنجليزي وإيطالي وعربي وقبلوا جميعاً ، واتفق على أن يظهر في أبريل القادم ، وعساني أوفق لذلك إحياء لذكره . واستحق بهذا كله تقدير الجامع والهيئات العلمية في العالم بأسره ، واختير عضواً في أكاديميات السويد والدنمارك وهولندا وبلجيكا وروسيا وإيران والعراق وسوريا ومصر :

\* \* \*

لم يكن ماسنيون الإنسان بأقل شأناً من ماسنيون العالم ، امثالاً قلبه بالشفقة والرحمة وانطبعت نفسه على العدل والحق : كان يمتق الغموض ، والادعاء ، والغش والمواربة . يخشى الخطيئة كل الخطيئة ويبكى لها في ساعات تقربه في جبل قيسون بدمشق أو في بيت المقدس أو في دمياط ، وما أسرع عبراته وما أحرها : دفعه واجب الأخوة في الله إلى أن يعطي العمال الجزائريين المقيمين في مقاطعة السين دروساً مسائية في اللغة الفرنسية ، ولم يأنف أستاذ « الكوليج دي فرانس » أن يصبح معلم عمال . ويوم أن حكم على بعض نواب مدغشقر بالإعدام لم يستقر له قرار إلا بعد أن استصدر العفو عنهم : كان يرى أن الإيمان شهادة ، وفكرة الشهادة هذه من أعز الأشياء لديه : لهذا كان يحرص دائماً على أن يقول كلمة الحق ، ولقد قالها دائماً برغم القوة وعنفها : دعا إلى استقلال مراکش وأيد محمداً الخامس واستنكر تصرف الجلاوي ، وعارض حرب الجزائر كما عارض حرب السويس : وجرت عليه معارضته ما جرت من أذى وعلوان ، فقبض عليه مرة في تونس وقيد إلى مركز الشرطة ، وعومل معاملة الأشرار . وضرب مرة أخرى ضرباً مبرحاً في اجتماع عام ، كان يعرض فيه قضية الجزائر . وما كان يتبرم قط بهذا الأذى ، بل كان يطيب له أن يردد بيت الحلاج :

اقبسوني يا ثقاتي إن في قتل حيساتي

### ٣ - أحمد لطفي السيد (أبريل ١٩٦٣).

دخل لطفي السيد التاريخ من عدة أبواب ، وقيد في سجل الخلود حيا وميتاً ، وقف نفسه على الإصلاح والتجديد ستين عاماً أو يزيد ، وهي مدة لم تتوفر لمصلحين كثيرين ، قضائها يفكر ويدبر ، ويبحث ويدرس ، ويدعو ويعلم ، يطبق وينفذ . كان يرى أن طبيعة الأشياء تأتي الطفرة ، وأن التطور سنة أكيدة من سنن الحياة ، لا يخرج عليها فرد ولا مجتمع . وكان همه أن يلائم بين الماضي والحاضر ، وأن يعدّهما للمستقبل ، ويؤهلهما لسير الحياة الزاخر ، وقل أن نرى شيخاً اقرب من الشباب قرب ، واتسع صدره للتجديد مثله . ولم يكن تطورياً فحسب ، بل كان تقدماً أيضاً ، يعتقد أن الإنسانية سائرة إلى الأمام دائماً ، وأن جيل اليوم خير من جيل الأمس ، وأن ثلاثة أجيال كفيلة بأن تصعد بالأمة المصرية إلى مصاف الأمم الراقية .

على هذه الأسس قامت دعوته الإصلاحية ، وهي أسس كلها تفاؤل وأمل ورجاء ، فدعا في ثقة وطمأنينة ، ووجه في لين وهوادة ، وخاطب العقل قبل أن يخاطب العاطفة . لم يبد عليه قط أنه يستعجل الخطأ ، أو يكلف الأشياء ضد طباعها ، أو يثيرها شعواء . ولم تسلم دعوته من النقد والمعارضة ، ولكن مسلكه الهادئ خفف من غلواء ناقلديه ، ووضع موضع الإجلال لدى مؤيديه ومعارضيه على السواء . والاعتدال عنده من أسمى الفضائل ، اعتدال في الرأي والقول والعمل ، وقديماً قرر أرسطو « أن الفضيلة وسط بين طرفين » .

امتد تجديده وإصلاحه إلى ميادين السياسة والاجتماع والفكر والثقافة . وكان طبيعياً أن تجتذبه السياسة أولاً ، وهو تلميذ جمال الدين وربيب الحركة الوطنية الثائرة في أخريات القرن الماضي . والسياسة عنده وثيقة الصلة بالاجتماع ، لأن حظ الأمة من النضج السياسي رهن بمستواها الاجتماعي ، وكتم دعا إلى تطوير المجتمع المصري ورفع شأن الفرد والأمة . ولا سبيل إلى نهوض حقيق إلا بالعلم ، والعلم الغزير ، وواجبنا أن نمكن له بإنشاء جامعة تساهم بنصيب في رقي المعارف الإنسانية . واللغة أداة العلم ووسيلة التفاهم ، وما أحوجنا أن نطوعها لمقتضيات العصر وظروف الحضارة ، وفي قيام مجمع لغوي ما يعين على ذلك ، وحسبي أن أقول كلمة عن لطفي السيد اللغوي والمجتمعي .

ليست تهضتنا اللغوية الحاضرة بنت القرن العشرين ، بل تصعد إلى القرن الماضي ، تزعمها في البداية رفاعة الطهطاوي ، ودفعها الأستاذ الإمام من بعده دفعة قوية ، ودعا إلى إنشاء مجمع لغوي شبيه بالمجمع الغريبي ، ولم يتردد عام ١٨٩٢ في أن يشترك مع الشنقيطي في مجمع البكري الذي لم يعبر طويلاً والذي غني بألفاظ الحياة العامة . وفي أوائل هذا القرن أثرت في حماس مشكلة العرب والدخيل ، وعقد لها حفنى ناصف عام ١٩٠٨ ندوة خاصة في نادى دار العلوم وقد دامت أسبوعين . كاملين ، وألقيت فيها بحوث مختلفة ، نذكر منها بحثاً لفتحي زغلول أظهر فيه ضرورة مسابقة اللغة

لحاجات التطور ومقتضياته ، وآخر لمحمد الحضري في « تعريب الأسماء الأعجمية » ، وثالثا لطنطاوي جوهرى في « العامية والفصحى » ، ورابعا لحفنى ناصف في « الأسماء العربية لمحدثات الحضارة والمدنية » : وانتهت هذه الندوة إلى قرار يقضى بضرورة قيام مجمع لغوى يرمى حركة التعريب ويشرف عليها .

فى هذا الجو عقد لطفى السيد فى « الجريدة » سبع مقالات لمحاربة الجمود اللغوى ، ودعا إلى تطوير اللغة والنهوض بها ، لأنها ظاهرة اجتماعية تخضع لظروف المجتمع وأوضاعه : وقد كان متمسكنا من العربية ، ملما بتاريخها وما حل بها من ضعف فى القرون الأخيرة . ومن ملاحظاته أن الألفاظ كأوراق الخريف يسقط بعضها لتحل محلها أوراق جديدة ، وأن العربية تبدو غنية غزيرة المادة فى المعجمات ، فقيرة ناقصة فى الاستعمال وشثون الحياة . وراعته بوجه خاص تلك الثنائية بين لغة العامة ولغة الخاصة ، لأنه كان يخشى أن تطغى الأولى على الثانية . وواجبنا أن نقرب إحداهما من الأخرى ، فنزل بالفصحى إلى ميدان التخاطب والتعامل ، ونصعد بالعامية إلى مستوى الكتابة والتحرير : وهو حل عملى حققته الأيام ، وإن صادف فى حينه قدرا من النقد والمعارضة ، وفيه ضرب من التصدير الذى يتمشى مع نزعة لطفى السيد العامة ولم لا نستعمل ما رق من الكلمات العامية فى انشائنا وتحريرنا؟ ولم لا نيسر أمر الكتابة والإعراب على عامة الناس حتى تصبح الفصحى فى متناول أيديهم ؟

وتطوير اللغة عمل طويل المدى وشبيه بأن يكون لامتناهيا ، ولا بد أن تتضافر عليه جهود شتى ، وتتعهد هيئة خاصة : وفى عام ١٩١٦ أخذ لطفى السيد نفسه بتكوين هذه الهيئة ، وأنشأ ما يسمى « مجمع دار الكتب » : وأراد به أن يكون أهليا ، على غرار الأكاديمية الفرنسية فى نشأتها : وضع لائحته ، واقترح أن يتكون من ثمانية وعشرين عضوا ، منهم خمسة وعشرون من العرب وثلاثة من الفرس والسرمان والعبرانيين وأن يعقد فى كل دورة اثنتى عشرة جلسة على الأقل وأن يشتمل على عدد من اللجان : وقد اشترك فيه فعلا بعض رجال اللغة والعلم والأدب من المصريين أمثال عاطف بركات ، وحفنى ناصف ، وإسماعيل عاصم ، ويعقوب صروف ، وحلمى عيسى ، وأمين واصف ، وأحمد الاسكندرى : وتولى رياسته الشيخ سليم البشرى ثم الشيخ أبو الفضل الحيزاوى وكان لطفى السيد كاتب سره : عقد إحدى عشرة جلسة فى دورة ١٩١٧ - ١٩١٨ وسبعاً فى الدورة التالية ، ولم يلبث أن ارتطم بصخرة التعريب وطغت عليه أحداث ثورة سنة ١٩١٩ ثم حاول العودة فى عام ١٩٢٥ ، ولكنه لم يعقد إلا جلسة واحدة .

ومع هذا لم تفارق فكرته لطفى السيد بحال ، وما أن تولى وزارة المعارف عام ١٩٢٨ حتى أخذ يعد العدة لتحويل « مجمع دار الكتب » إلى مجمع أميرى : ووضع فى ذلك مشروعا كان نواة رسوم إنشاء المجمع الذى أصدر عام ١٩٣٢ ، وإن لم يمتق ما كان ينشده له من

شخصية معنوية كاملة واستقلال تام. ولم يشترك فيه إلا عام ١٩٤٠ ، ومنذ ذلك التاريخ وهو ينفق عليه من روحه ، ويسهم ما وسعه في نشاطه ، ويغذيه من علمه وتجربته ، ويسبغ عليه ثوبا من الجلال والتقدير :

اشترك في أكثر من لجنة من لجانه ، فانضم إلى لجنة الأصول حينما ، وإلى لجنة المعجم ولجنة اللهجات حينما آخر ، ولأزم لجنة الأدب ، والفلسفة ، وألفاظ الحضارة زمنا طويلا ، وله فيها آثار واضحة . ويكفي أن نشير إلى لجنة الأدب التي خطا بها خطوة فسيحة ، فوضع لها لائحة ثابتة ، ومكنها من أن تعلن عن مسابقات أدبية وإن لم يرصد لها مال ، واستجاب بعض الخبيرين لرغبته وتبرعوا للمجمع بما يمكن أن يجيزه . ثم استقرت جوائز المجمع الأدبية ، واعتمد لها في ميزانيته المال اللازم ، واشترك فيها شباب الكتاب والشعراء عاما بعد عام وإليه يرجع القول بعدم اشتراك أعضاء المجمع في هذه الجوائز ، أخذا بما هو متبع في المجمع الأخرى ، ووقفا بهم في مستوى القضاة والحكام ، وما إن انضم إلى لجنة المعجم حتى وجهها نحو ألفاظ الحياة العامة ، وما تشتمل عليه الدواوين ودور الصناعة من مصطلحات وتعبيرات : ومن توجيهه هذا نشأت لجنة ألفاظ الحضارة التي حرص دائما على أن يشهد اجتماعاتها ، وينفذ منها إلى تطوير اللغة الذي نادى به منذ ثلاثين عاما أو يزيد ، فيقبل بعض العامية في معاجم الفصحى ، ويفصح بعض الكلمات الأعجمية .

ولم يكن نشاطه في المجلس بأقل من نشاطه في اللجان ، يشهد جلساته ما وجد إليها سبيلا ، ويقدم مواعيده ، ويتابع إنتاجه في عمق ودقة . أديب ولغوي ، فقيه وفيلسوف ، في اطلاع واسع ودراسة مستفيضة ، وله من هذا كله زاد كبير يروح به عن النفس ، ويفهم الخصم ، ويبت في نقط الخلاف ، وليس ثمة امتع من حواراته ومناقشته ، يجمع بين الطرفة النادرة والحجة البالغة . وكم كان دقيقة في اختيار المصطلح العامي وضبطه ، وقد أسهم بنصيب ملحوظ فيما أخذ به المجمع من منهج لوضع المصطلحات وإقرارها. يؤمن بالتخصص ، وأن « من عرف حجة على من لم يعرف » ويؤيد العرف والاستعمال . ويقرر في غير تردد أن مهمة المجمع أن يسجل ما اصطلح عليه المتخصصون . وكثيرا ما نادى بضرورة قيام مجامع علمية وفنية إلى جانب المجمع اللغوي . يمتد الترادف في لغة العلم ، ويحرص على أن ينزه العربية من أخطاء بعض المصطلحات الأجنبية . يأخذ بمبدأ التعريب ، وخاصة في المصطلحات العالمية . ويرى ضرورة تعريف المصطلح العلمي قبل أن يعرض على المجلس والمؤتمر ، كي يتضح مدلوله ويصبح مادة صالحة للتأليف المعجمي .

وما إن دخل المجمع حتى سمعت إليه رياسته ، وفاز بالأغلبية في انتخابات أبريل سنة ١٩٤١ ، ولم يؤخذ بنتيجتها لاعتبارات تبطل في الغالب بالرضا والغضب السامي ، ولم يعين إلا في مارس سنة ١٩٤٥ ، وبقي الرئيس الدائم الذي حظى بالثقة والتأييد التام . واستطاع أثناء رياسته أن يرفع أعضاء المجمع العاملين من ٢٠ إلى ٣٠ ، ثم من ٣٠ إلى ٤٠ ، وأصبحوا أخيرا ٨٠ نصفهم من مصر والنصف الآخر من سوريا والأقطار العربية الأخرى . والمجمع في رأيه هيئة

علمية مختارة ، ومثابة بحث ودرس ، ولا بد أن يتوفر له استقلال يمكنه من أداء رسالته ، ومال يفي بحاجته ومبنى يتلاءم مع ما يرمز إليه من معنى الخلود . وقد نادى لطفى السيد باستقلال المجمع منذ أوائل هذا القرن ، واستمر يردد النداء ويضع مشروعات لتحقيقه ، ولم يؤخذ بواحد منها إلا في العهد الحاضر ، وكأنما لم يكن للمال حساب عنده ، ينفر من الحديث فيه ، ويأبى أن يطلبه ولو لغيره ، ولعله كان يرى أن الخالدين أسمى من أن يقاس عملهم بمقياس الزمن والمال . فبقى المجمع ورائده ضرب من الزهد والتقشف ، وبقيت ميزانيته متواضعة كل التواضع . وفي افتتاح الدورة الثالثة عشرة عام ١٩٤٦ ، ذكر لطفى السيد الحكومة بضرورة وجهد مكان يتسع لأعضاء المجمع وموظفيه وخبرائه ويفي بحاجات بلجانه ومجلسه ومؤتمره ، واستمر يذكرها من حين لآخر ، دون أن يحظى المجمع بالمقر الملائم .

وللطفى السيد آثار واضحة في نظم المجمع وسير العمل فيه وقد كان إماما في تقرير المبادئ ووضع التقاليد ، وله في تقاليد الأكاديمية الفرنسية التي أحاط بدقائقها مثال يحتذى . فهو الذي حدد العام المجمعى ، وجعله ثمانية أشهر من أكتوبر إلى مايو ، وقرر الجلسة الأسبوعية التي تعقد يوم الاثنين بانتظام ، وفصل بين المجلس والمؤتمر وأفسح المجال لكاتب السركى يتابع أعمال المجلس المختلفة ، وترك له التعريف بها في افتتاح كل مؤتمر . وهو في رياسته للجلسة وإدارته للمناقشة مثل فلذ في الديمقراطية الحقبة والبرلمانية الصحيحة . ويحرص على النظام والدقة ، ويحفر إلى المناقشة ، ويفسح المجال للأخذ والرد ، ويستمع لوجهات النظر المختلفة . يقدس حرية الرأي وينصت للمؤيد والمعارض على السواء ، يتردد ويتردد عليه ولا يتردد في أن ينصف معارضه من نفسه :

\*

لقد قضى مجمع اللغة العربية ست سنوات يعمل قبل أن يتصل به لطفى السيد ، وكانت نزغته الغالبة أن يرجع إلى الماضي غير معتد كثيرا بالحاضر ، يعنى بلغة القرن الثامن والتاسع ، ولا تكاد تستوقفه لغة القرن العشرين . واستطاع الرئيس الراحل أن يربطه بالحياة ، ويرد إلى لغة القرن العشرين اعتبارها ، وأظهر في وضوح أن على المجمع أن يسجل قبل أن يخترع ويبتكر ، يسجل ما تواضع عليه الناس من لفظ وتعبير مادام يتمشى مع المبادئ العامة للغة . وعليه أن يسهل ويسير لأن العالم يسير وتسير اللغة معه ، وهى لا محالة متطورة فليكن كل همنا أن نشرف على تطويرها ونرعاه :

فوبرغم ربطه المجمع بالحياة كان يؤثر له أن يعمل في صمت عن الجلبة والضوضاء وأصبح أشبه بما يكون بصومعة يأوى إليها الخالدون للبحث والدرس . ولا صلة لهم بالجمهور إلا يوم أن ينتموا إلى قرار يطور اللغة وييسرها ، فينشروه على الناس . والعمل العلمي الجاد في حاجة ماسة إلى الهدوء والاستقرار ، وربما اختلفنا معه بعض الشيء في هذا المنحى ، ولكن استطاع المجمع أن يتفادى به بعض الحملات المغرضة والتيارات الخائفة .

لقد حمل لطفى السيد المشعل ، وأثار الطريق ، وإننا على هديه لسائرون .

---

## ٤ - لطفى السيد أستاذ الجيل (\*)

قل أن توافرت لشخص صفات الأستاذية مثلما توافرت لطفى السيد : بسطة في العلم ، ورجاحة في العقل ، ووضوح في البيان ، وإدراك تام لعقلية محدثيه ومن يستمعون إليه . لم يمتن التدريس قط ، وإنما كان يعلم في ناديه ومجلسه ، في حديثه وسمره ، وعلى طريقة سقراط أو جمال الدين الأفغانى ، ونخير العلم ما جاء إيجاء وتلبية لرغبة .

ومجلسه عشاق وطلاب ، يسعون إليه ، ويحرصون عليه وينعمون به . فيه جد ودعابة ، وأدب ولغة ، وعلم وحكمة ، واجتماع وسياسة . ولم أر مجلساً أحب من مجلسه ، ولا حديثاً أمتع من حديثه ، يعرف كيف يصرف الحديث ، ويفتح باب المناقشة ، ويثير المشاكل والمعضلات . وإذا قعد به المرض سعى طلابه ومريدوه إليه ، فيجد في الدرس صحته وفي الحديث شفاءه ، ولم أجلس إليه قط إلا وخرجت برأى صائب وحكمة بالغة .

ولطفى السيد الصحفي أستاذ أيضاً ، رسم لفن الصحافة حدوده ومعالمه يوم أن كان في أمس الحاجة إلى ذلك . أراد بها أن تكون وسيلة ناجعة من وسائل التوجيه وتربية الوعي السليم ، واستمسك بحريتها واستقلالها ، بحيث لا تخضع ليل أو هوى ، ولا تجارى ظالماً في ظلمه ولا مستبداً في استبداده . وخلق منها — حين عز النصير — قوة شعبية ، تقف في وجه السراى تارة ، وفي وجه دار المعتمد البريطانى تارة أخرى ، ويحسب لها حساب في ساعات الحرج والشدة .

ولطفى السيد المؤلف والمترجم أستاذ غير منازع ، يرى أن الحضارة الإنسانية كُـلُّ متصل الأجزاء ، يرتبط حاضرها بماضيها ، وهما معاً يمهدان لمستقبلهما ، لذلك عمد إلى التراث القديم يكشف عنه ، وإلى ذخائر الفلسفة اليونانية يعربها . وهو جهد شاق وعمل مضمّن ، إلى جانب رسالته الكبرى وأعبائه الباهظة ، ولكنه أبى إلا أن يضرب فيه المثل ويرسم الخطة ، وما أجدرنا أن ننظر إلى مترجماته خاصة من ناحية أهدافها وغاياتها ، دون أن نقف فقط عند جانبها الفنى والعلمى . ولا يزال إحياء التراث القديم في حاجة إلى صوت قوى مثل صوته ، وتعريب الذخائر الخالدة إلى سند مثل سنده .

لقد كان لطفى السيد رئيس مدرسة كبرى ، تخرج فيها الأدباء والعلماء ، والساسة والمصلحون أمثال : مصطفى عبد الرازق . محمد حسين هيكل ، منصور فهمي ، عباس العقاد ، طه حسين ، ومحمد كامل حسين . ولهذه المدرسة شأن واضح في الحركات القومية والوطنية ، ودعوات

(\*) كلمة ألقيت في مهرجان محافظة الدقهلية للذكرى السنوية الأولى .

الثبوت والإصلاح في الخمسين سنة الأخيرة . ساهمت في ثورة ١٩١٩ ، ووجهت إلى ثورة ١٩٥٢ .

رأس لطفي السيد هذه المدرسة منذ فجر هذا القرن ، ورسم لها منهج البحث والدراسة ، وغذاها بأرائه وتعاليمه : وكان يؤمن بالعقل إيمانه بسنة النشوء والارتقاء ، وكم كان يروقه أن يقول « قال مولانا أرسطو » ، ذلك لأنه كان يرى فيه رمز المنطق ، وعلماً من أعلام المذهب العقلي بين اليونان . وللطفي السيد ولوع بالمنطق في حوارهِ وجدله ، يقيس ويوازن ، ويبحث عن العلل والأسباب ، ويزد الأشياء إلى أصولها ، ويمقت المغالطة والتضليل .

وفي العقل إعدام للرأى ، واتفاق للأهواء ، وأمان من الزلل ، وجمع للكلمة ، وقل أن بفضل قوم حكموا عقولهم تحكيمياً سليماً . وعلى هذا يجب أن تقام السياسة على أسس عقلية ، وهذا ما أخذ لطفي السيد به نفسه منذ بدأ يحرر في الجريدة ويشترك في حزب الأمة ، واستمسك به في جميع مواقفه السياسية التالية فكان يبحث عن الأصول والمبادئ ويحتج بالنظريات السياسية المختلفة ، ويستمع في سماحة لمعارضيه ليزن حججهم ويقف على منطقهم : والسياسة ميدان لا يخلو من ميل الهوى وجموح العاطفة ، واستطاع هو أن يسمو على ذلك . ولئن تمكن منه ميل ما أبى إلا أن يصوغه في قالب عقلي . وربما كان هذا هو سر ما اتسم به من اعتدال ، وأخذ بأسباب الفهم والتفاهم ، وتقريب لوجهات النظر :

وأما التطور فكان عقيدة راسخة لديه ، يرى أن الفرد يتطور كما يتطور المجتمع ، وأن جيل اليوم غير جيل الأمس ، ولقد بقى لطفي السيد فسيح الصدر دائماً للأفكار الجديدة ، برغم تقدم سنه ، يستقبلها في ثقة ، ويزنها بميزانها الصحيح ، ويحاول أن يلائم بينها وبين سنه التطور ، ولم أر شيخاً اقترب من الشبان والكهول قربه ، يحس بإحساسهم ، ويستطيع أن يعيش في عالمهم :

ولم يكن هذا التطورى يؤمن بالنشوء فحسب ، بل كان يؤمن أيضاً بالارتقاء : فالإنسانية ماثرة إلى الأمام في علمها وفنّها ، في نظمها وقوانينها ، وقد تعترضها محن وأزمات ، ولكنها لا تصرفها عن الغاية المحتومة : وجيل اليوم خير من جيل الأمس ، وثلاثة أجيال كفيلة بأن تصل بالأمة المصرية إلى ما تصبو إليه ، وفكرة الأجيال الثلاثة هذه مشهورة لدى أصدقائه ومريديه . والتطور على كل حال أساس الثورة والانطلاق ، وقد مد الله في أجله إلى أن رأى ثمار آرائه وتعاليمه حية متحركة :

هذا هو لطفي السيد أستاذ الجيل ، ومن حق محافظة الدقهلية ، وهو علم من أعلامها ، أن تحتفى به وتخلد ذكره . وما أحوجنا في ثورتنا العارمة وانطلاقتنا الجبارة إلى أمثلة حية نحتديها ، وهداة نسترشد بهم ، ولا شك في أن لطفي السيد كان في الصف الأول من قيادتنا الفكرية والروحية طوال نصف القرن الأخير :

## ٥ — محمد البشير الأبراهيمي (أكتوبر ١٩٦٥)

نجتمع اليوم لنؤبن شيخاً من شيوخ الإسلام ، وعلماً من أعلام النهضة الجزائرية ، فقدنا فيه أديباً بليغاً ، ومربياً كبيراً ، ومصلحاً عظيماً ، ومجاهداً مؤمناً . قضى في وطنه ثلاثين عاماً أو يزيد في خدمة الدين واللغة ، فأحيا معالم القومية ، وأعد جيلاً من المكافحين والمناضلين ، ومهد السبيل لاستعادة الاستقلال والحرية . أحب المجمع واتصل به منذ زمن ، وعد من أصدقائه الأوفياء — وفي عام ١٩٦١ اخترت لعضويته العاملة ، وكنا نعول التعويل كله على مساهمته والإفادة من علمه وفضله ، ولكن دعوة الأهل والوطن اجتذبتهم ، ولم يشهد معنا إلا مؤتمراً واحداً . ثم قعد به المرض ، ولزم دأره نحو ثلاث سنين ، ورزنا بفقدته قبل نهاية دورة المجمع الماضية ، وودعناه دون أن نلقاه . وكأنما استشف حجب الغيب ، فبعث إلينا في يناير الماضي برسالة كلها حنين وشكوى وذكريات ووداع .

إن مجال القول في البشير ذو سعة ، وإن الحديث عنه ذو شجون . وقد أرخ لنفسه في صفحات طوال نرى من الوفاء له أن نسجها في محضر هذه الجلسة ، ونجتزئ هنا بقدر منها .

### (١) حياته :

لقد كانت حياة البشير مملوءة بالدرس والبحث ، والدعوة والإرشاد ، والجهاد والكفاح . ويمكن أن ترد إلى مراحل ثلاث : نشأة وتكوين ، رحلة وأسفار ، ثم دعوة وجهاد . وما أشبه في نشأته بكثير من شيوخ الإسلام في القرون الأخيرة ، أولئك الذين أفادوا من الوراثة والبيئة ، ووقفوا أنفسهم على العلم وتفرغوا له تمام التفرغ .

ولد الفقيه عام ١٨٨٩ من أسرة كريمة ، وفي بيت علم ، فأما أسرته فتصعد إلى الأشراف الإدارية ، وأما بيته فهو أحد تلك البيوت التي حفظت العلم ، وتدارسته قروناً في المغرب الأوسط ، ومن أجداده من رحل إلى مصر طلباً للعلم في الجامع الأزهر ، وتسمى باسم الأمير أو الصاوي أو السهوري . وقد ربي البشير تربية دينية عربية ، تعهده أبوه ، وأشرف عليه عمه ، وكان أحد شيوخ العربية بإقليم قسطنطينة في عصره ، وأستاذاً التف حول الطلاب في بيته .

بدأ فقيدنا حفظ القرآن ولما يتجاوز الثالثة من عمره ، وأضاف إليه بعض المتون كالألفية والكافية ، وأولع بالشعر والنثر ، وتوسع في دراسة النحو والصرف . ولم يكد يبلغ الرابعة عشرة حتى توافر له من العلم حظٌ غير قليل ، واستطاع أن يقوم بالتدريس بإجازة من عمه .

وأثبت الظروف إلا أن يرحل أبوه إلى المدينة سنة ١٩٠٨، فاراً من ظلم المستعمرين واضطهادهم ولم يكن بد من أن يلحق به بعد قليل . وهنا تبدأ مرحلة أسفار دامت نحو عشر سنين ، اتسعت بها معلوماته واكتملت خبرته . مر بالقاهرة أولاً ، ومكث فيها ثلاثة أشهر مقبلاً على حلقات الدرس في الأزهر والمسجد الحسيني ودار الدعوة والإرشاد ، واتصل ببعض كبار الشيوخ ، أمثال : البشري ، وبخيت والدجوى ، والسماطى ، ورشيد رضا ، ولم يفته أن يزور شوقي ، وحافظ إبراهيم . ثم انتقل إلى المدينة ولم يكن له فيها عمل إلا البحث والدرس ، والاطلاع والقراءة ، وعنى خاصة بعلم الحديث والتفسير وبعض علوم المعقول . وكانت المدينة حين ذلك ملجأً لغير من كبار علماء الإسلام ضاقت بهم أوطانهم ، فرحلوا إلى كنف الرسول حيث الهدوء والطمأنينة . وهناك لقي العزيز الوزير التونسي ، وحسين أحمد الهندي ، وعبد الباقي الأفغانى . ومحمد الشنقيطى ، ومواطنه وزميله الأكبر عبد الحميد ابن باديس ، شيخ شيوخ شمال أفريقيا ، فى أخريات القرن الماضى وأوائل هذا القرن . ثم قضت ظروف الحرب العالمية الأولى بأن ينتقل مع سكان المدينة إلى دمشق ، حيث يبدأ رحلة علمية ثالثة فاتصل بمجالس العلم ، ودرس فى المسجد الأموى والمدرسة السلطانية ، وهى المدرسة الثانوية الوحيدة . حين ذلك ، وتعلم عليه بعض رجال الفكر والأدب المعاصرين :

وما إن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها حتى عاد إلى وطنه ليؤدى واجبه ويساهم فى نهضته . وقد أبلى فى ذلك بلاءً حسناً . فعقد الندوات ، وألقى المحاضرات ، وقام بالوعظ والإرشاد متنقلاً من مدينة إلى أخرى . ونظم دروساً لصغار التلاميذ ، لم تلبث أن أضحت مدارس تزود النشء بزاد من العلم الصحيح واللغة القويمة . وأسس مع ابن باديس ، صديقه وزميله فى المنفى ، جمعية العلماء التى كان لها شأن فى يقظة الجزائر واستقلالها ، اضطلع بقسط كبير من أعبائها ، وظل يجاهد ويناضل باسمها إلى أن ضاقت به سلطة الاستعمار فاعتقل عام ١٩٤٠ ، بدعوى أنه أصبح خطراً على الدولة ونفى إلى صحراء وهران . وبقي فى المنفى نحو ثلاث سنوات توثقت فيها صلته بالقبائل المختلفة ، وألم بعيدة لمجبات . وما إن أطلق سراحه حتى عاد إلى نشاطه مما دفع المستعمرين إلى تدبير ثورة مفتعلة اتهم بأنه أبجد دعائها . وحكم عليه بالسجن نحو عام . ولم يحل كل ذلك دونه وأداء رسالة جمعية العلماء وباسمها رحل سنة ١٩٥٢ إلى المشرق لينبه إلى أهدافها ، ويطلب لها عوناً للوصول إلى غاياتها وقدر للثورة الجزائرية أن يشرق صبحها فبقى فقيداً فى مصر نحو عشر سنين ، ثم عاد إلى وطنه ليشهد ثمار جهوده ، ويناضل فى سبيل آرائه حتى النفس الأخير .

حياة خصبة مثمرة ، نهلت من معين الآباء ، وأفادت من صحبة الإخوان والأصدقاء ، وجمعت بين ثقافة المشرق والمغرب ، وأمدت صاحبها بوسائل الجهاد والنضال ، وقد أدلى فيه بدلوه ، وأسهم بنصيبه ، ولاقى ملاقى من عنت واضطهاد .

### (ب) مؤلفاته :

وما كان لحياة كهذه أن تفسح المجال لتحقيق وتمحيص ، وتحرير وتأليف ، ومع هذا لم يفت البشر أن يعالج في اللغة والأدب موضوعات لها طرافتها ، نذكر من بينها :

- ١ - أسرار الضمائر في العربية .
  - ٢ - التسمية بالمصدر .
  - ٣ - الاطراد والشدوذ في اللغة .
  - ٤ - كاهنة أوراس .
  - ٥ - ملحمة رجزية في نحو ستة وثلاثين ألف بيت ، نظمها في منفاه بصحراء وهران ، وحاول أن يصور فيها المجتمع الجزائري في فرقه ونحله ، وفي آرائه ومذاهبه الاجتماعية والفكرية .<sup>١١</sup>
- ومما يؤسف له أن ذلك كله لا يزال مخطوطا . وكان الفقيد يعتزم إخراجه إلى النور ، ولم ينشر له فيما نعلم إلا « عيون البصائر » . وهي جملة الافتتاحيات التي كتبها في « جريدة البصائر » لسان حال جمعية العلماء .

كم نود أن يتضافر تلاميذه وأبنائه على نشر مؤلفاته ، تخليدا لذكراه ، وإحياء لهذا التراث :

### (ج) البشير وجمعية العلماء :

لا نظن أحداً يعرض ليقظة الجزائر ونهضتها الأخيرة إلا ويذكر جمعية العلماء ، ويذكر معها ابن باديس والبشير الإبراهيمي . اشتركا معا في تأسيسها ، وقاما على أمرها ، وتعاقبا على رئاستها ، اضطلع ابن باديس برياستها أولا ، وبعد موته خلفه البشير ، وظل يرعاها إلى أن قامت الثورة الجزائرية ، وهي جمعية تهدف إلى الإصلاح الديني والعلمي ، وتنشد نهوضا سياسيا واجتماعيا . دعا إليها ما انتهت إليه الأمور في الجزائر في أوائل هذا القرن من تفشي الجهل ، وحوص الاستعمار على تقويض دعائم الوطنية ومحو معالم الدين واللغة .

نبتت فكرتها بالمدينة ، حين التقى البشير بأخيه الأكبر ابن باديس ، وكان يسهران معا ليالي طوالا يستعرضان فيها أدواء الجزائر الاجتماعية والسياسية ، ويحاولان أن يطبعا لها ، واستقر رأيهما على أن الأمر يستلزم نهضة شاملة ، وإصلاحا يقوم على أساس من العلم والدين واللغة . ولا سبيل إلى ذلك إلا بتكوين هيئة تبث الدعوة ، وتنشر ألوية العلم في البلاد - وما أجدرها أن تحمى بزاية الإسلام ، كي تسلم من اضطهاد المستعمر وبطشه ، وقد سبق ابن باديس أخاه إلى الجزائر ، واستقر في قسطنطينة واتخذ من أحد مساجدها حلقة لدرسه ، وأقبل عليه الطلاب من كل جانب ، بعد سبع سنين ووضع حجر الأساس لبناء نهضة عربية : ثم ملحق به البشير وسار على نهجه . وكانا يلتقيان من حين لآخر لتبادل الرأي ، ومتابعة ماتم ، ورسم برنامج المستقبل واستعبرا على ذلك نحو عشر سنين يعدان العدة ، ويتأهبان لتكوين جمعة العلماء . وفي عام ١٩٣١ تم

تأسيسها ، وأقر قانونها الأساسى الذى وضعه البشير ، وحددت أهدافها ، ورسمت لها السبل والوسائل :

وهى تهدف بخاصة - فيما يرى البشير - إلى محاربة ضربين من الاستعمار : أحدهما داخلى والآخر خارجى ، أو بعبارة أخرى : أحدهما روحى ، والآخر مادى. فأما الأول فهو جنائىة بعض من ينتسبون إلى الدين من العلماء والدين منهم براء ، يتجرون باسمه ، ويفرطون فى حقوقه . وأما الثانى فهو استعمار الغاصب الذى أذل النفوس ، وأهدر الكرامة . ورأت الجمعية أن تبدأ بالأول ، لأنه أعمق وأدخل فى النفوس . وقررت أن تواجهه على بساط العلم والمعرفة ، فنظمت حملة جارفة على البدع والخرافات وجهت فيها الخطباء والوعاظ إلى المساجد والأندية ليرشدوا المسلمين إلى حقيقة الدين الحنيف ، وألقت مألقت من محاضرات للعامة والخاصة ، ووضعت لذلك كله نظاماً دقيقاً ، فعينت مشرفاً لكل مقاطعة من مقاطعات الجزائر الثلاث : ابن باديس لقسنطينة ، والطيب العقبي للجزائر ، والبشير الإبراهيمي لوهـران ، ويعاونهم نخبة من العلماء والخطباء ، واستعانت بالصحافة على نشر دعوتها ، واتخذت لنفسها صحيفة خاصة هى جريدة « البصائر » ، وكان فقيدنا قطب رحاها .

وأبت الجمعية إلا أن تواجه الأمر من أساسه ، فتبدأ بتربية النشء تربية إسلامية عربية ، وأنشأت فى عام واحد ٧٣ مدرسة ابتدائية ، واستجاب الشعب لدعوتها ، فأمدّها بالمال ، وشيدت مدارسها على طراز خاص ، واستطاعت أن تشيد مايزيد على ٤٠٠ موزعة على البلاد كلها ، وبلغ عدد التلاميذ فى هذه المدارس عشرات الآلاف . وأضحت الجمعية أشبه ماتكون بوزارة تربية شعبية ، لها مالية مستقلة وإدارة محكمة ، ولم تقنع بالتعليم الابتدائى ، بل شاءت أن تضم إليه التعليم الثانوى ، وأنشأت فى قسنطينة معهداً ثانوياً سمته المعهد الباديسى ، تخليداً لذكرى أول مؤسسها ، وكان يرجى أن ينشأ إلى جانبه معهدان آخـران : أحدهما فى الجزائر ، والآخر فى وهران .

هذه هى جمعية العلماء وهذا هو موقف البشير منها ، ولا شك فى أنها أوقدت الشعلة ، وأحييت اللسان العربى ، وأيقظت النفوس ، فاندفع الشعب الجزائرى إلى الثورة بحطم الأغلال ، وينشد حياة العزة والكرامة ، ويربط الحاضر بالماضى ، ولاشك فى أن عدداً غير قليل من أبناء هذه الجمعية وتلاميذها كانوا قادة وجنوداً فى حرب الجزائر الخالدة . وكم كان البشير معجباً بها : يعدها « مناط فخره ، وتاج أعماله ، عمل فيها للدين واللغة والوطن » .

#### ( د ) البشير الإبراهيمى الأديب :

أولع البشير بالشعر والنثر منذ نشأته ، وحفظ منهما مختارات كثيرة ، ويظهر أنه أعجب كثيراً بسهل بن هرون وبديع الزمان . وأتاحت له الخطابة والصحافة فرصة مواتية لتنمية ملكاته

وإشباع مواهبه ، وفتحت الرحلة أمامه آفاقاً جديدة ، وأمدته بمعلومات غزيرة . قال شعراً ونثراً ، وهو إلى الكتاب أقرب . عرض لموضوعات شتى في العلم والدين ، والأدب واللغة ، والإجتماع والسياسة ، فعالجها في عمق ودقة ، وشرحها في استيعاب وإحاطة ، وفي « عبون البصائر » ألوان من ذلك طريفة وجذابة :

وفي وسعنا أن نقرر أن البشير من أكتب كتاب المغرب المعاصرين ، يسترسل فيجئ بالجزل والسهل ، لفظ مألوف ، وجملة قصيرة ، ولغة واضحة ، وتقسيم وترتيب في منطق سليم : يتحدث عن العربية فيقول : « اللغة العربية هي لغة الإسلام الرسمية ، ومن ثم . : فلها على الأمة الجزائرية حقان أكيدان ، كل منهما يقتضى وجوب تعلمها ، فكيف إذا اجتمعا : حق من حيث إنها لغة دين الأمة ، بحكم أن الأمة مسلمة ، وحق أنها لغة جنسها ، بحكم أن الأمة عربية الجنس ، ففي المحافظة عليها محافظة على جنسية ودين معاً » .

ويتحدث عن جمعية العلماء ، فيقول « إنها جاءت على عبوس من الدهر ، وتنكر من الأقوياء ، فنفخت من روح العروبة في تلك الأنساب ، فإذا هي صريحة ، وسكبت من سر البيان العربي في تلك الألسنة ، فإذا هي فصيحة ، وأجالت الأقلام في كشف تلك الكتوز ، فإذا هي ناصعة بيضاء ، لم يزدها تقادم الزمان إلا جدة » .

ويتحدث أخيراً عن الساسة ، فيقول : « هذه السياسة في الجزائر بين الحاكم والمحكوم ، يجعلها الأول أداة مساومة وفخ اقتناص للمذبذبين ، وسلاح ترهيب وتخويف للمخلصين ، ويجعلها الثاني وسيلة جاه ، وذريعة تضليل للأمة . وقد بلوناها وخبرناها ، وحاولنا إصلاحها في رجال السياسة منا إشفاقاً على هذه الأمة الصالحة ، فبحث الأصوات وأكدت الوسائل ، فلا يقولن قائل فيها وفيها غير هذا ، فأهل مكة أدرى بشعابها » .

وقد يتأنى ويتأنق ، فيسمو أسلوبه ، وتبدو عليه الفخامة ، ولا تزال نذكر كلمته بيننا باسم الأعضاء الجدد رداً على استقبالهم ، ونذكر ما اتسمت به من جلال وروعة :

وفيها يقول : « أيها الإخوة : إن مواطن العروبة متفرقة متباعدة ، وإن الرابط الطبيعي بينها هو هذه اللغة ، وقد ألم بها من أحداث الدهر ما أضعف تلك الرابطة حتى رثت حبائلها ، وغالبتها العامية في كثير من أحكامها وكثير من مفرداتها » .

«أيها الإخوة : إن أسرة المجمع أصبحت أسرة عربية لا تخاطبها عجمة ، ولا يطرق  
ساحتها دخيل ، ولا يداخل نسبتها إقراف ولا هجنة ، فلنعمل للغتنا بأنفسنا ، ولنسكب عليها  
عصارة أرواحنا ، ولنضاعف جهودنا ، ولنشدد عزائمنا ، ولنوجه كل قوانا لخدمتها ، والدب  
عن حرمانها ، ولنعلم إنه إن أصابها سوء ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون . . .

لقد عشنا مع البشير لحظات ، وعرفناه في طفولته وصباه ، وتابعناه في كهولته وشيخوخته  
أقمنا معه حيث أقام ، ورحلنا حيث رحل . ووقفنا على أعماله الحليمة وآثاره الخالدة .  
واستخلصنا من حياته الدرس النافع ، والعظة البالغة ، وسندكره ما ذكر العاملون المخلصون ،

تغمده الله برحمته ، وجزاه عن الإسلام والعروبة خير الجزاء ٥

---

## ٦ - العقاد في مجمع اللغة العربية (أبريل ١٩٦٤)

دخله في موكب حافل ، ضم فيمن ضم لطفي السيد ، وعبد العزيز فهمي ، والمزاغبي ، وحسين هيكل ، ومصطفى عبد الرازق ، وأحمد أمين ، وطه حسين . وجلس مع هؤلاء وغيرهم من علماء الشرق والغرب جنبا إلى جنب ، يدرس ويبحث ، ويناضل ويكافح في سبيل النهوض باللغة والمحافظة على سلامتها ، وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون ، ملائمة لحاجات الحياة في العصر الحاضر .

قضى في المجمع نحو ربع قرن جهير الصوت ، قوى الحججة ، عظيم الشكيمة ، صاحب رأي يعتد به كل الاعتداد .

\* \* \*

كان يؤمن بالعربية الإيمان كله ، ويرى أنها غالبت الزمن ، وقويت على الأحداث . قضت على الفارسية في ربوعها ، وحلت محل السورانية والقبطية في الشام ومصر ، وطردت البربرية من أوكارها في شمال أفريقية ، وأنشأت في الأندلس أدبا رفيعا عمّر عدة قرون . وصمدت فيما بعد لغزو التركية والصينية ، وقاومت حباثل لغات المستعمرين من إنجليزية وفرنسية وإيطالية . وبقيت لغة قديمة وحديثة ، تجمع بين الطارف والتلبد ، محافظة ومجددة ، تستمسك بأصولها ، ولاتأني أن تخضع لحاجات العصر ومقتضياته .

وكان العقاد حجة في مفرداتها وتراكيبها ، فقه متنها فقها تاما ، وحاول أن يربطه ببعض الأصول السامية . قرأ في كتب اللغة ما وسعه ، وتوفر له منها زاد كبير . وللفظ العربي عنده جرس متميز ووزن خاص ، إن خرج عنه نفرت منه الأذن ولم تقبله الأسماع . أما الأسلوب فله فيه ذوق مبرهف وحكم دقيق ، وكيف لا وهو منشيء أساليب ومبتكر استعمالات . درس الأدب العربي في عمق ، وتبعه في عصوره المختلفة ، وقارنه بالأدب الأجنبية ، ووقف على تأثيره فيها وتأثره بها ، وكان إمام مذهب في الأدب المعاصر :

ولم يكن علمه بالإنجليزية أقل من علمه بالعربية ، درسها منذ الصبا ، وعاش معها طويلا في قراءاته وخلواته . أحاط بنثرها وشعرها ، وألم بدقائقها ومزاياها ، وعرف منها مواطن الضعف والقوة . ولم يغب عنه جانب من جوانبها ، في نحوها وصرفها ، في إملاؤها ورسم حروفها ، في بلاغتها ونظم أساليبها . ترجم عنها ، وعرف ببعض كتابها وأدبائها . وعقد بينها وبين العربية مقارنات دقيقة وممتعة أفاد منها القراء ، وحظي بها الجمعيون بوجه خاص .

ولم يتيسر للكثير ما تيسر له من اطلاع وقراءة في الأدب والاجتماع ، والعلم والفلسفة . قرأ في العربية كما قرأ في الإنجليزية ، ولا يكاد يظهر مؤلف إلا ويسارع إلى اقتنائه والوقوف على ما فيه . وبدا أضحى وسوعيا في عصر تقسيم العمل وتحديد مجال النشاط ، وأبى إلا أن يكون - إلى جانب الأدب - فيلسوفا يعارض الفلاسفة ، وعالما يجادل العلماء في الكيمياء والطبيعة ، والحيولوجيا وعلوم الأحياء . وكأنه لم يكن يقنع في عالم الثقافة بالقيود والحدود ، ولا يسلم بالتخصص الضيق ، ويكاد يرجع كثير من جدله واختلاف الرأي معه إلى هذه الناحية . ولا شك في أن القراءة المستنيرة تفتح آفاقا جديدة ، وتهدى إلى أمور كثيرة :

\* \* \*

بهذا الزاد الوفير من لغة وأدب وعلم وفلسفة ، أدى العقاد رسالته في مجمع اللغة العربية فأحسن أداءها . اشترك في كثير من لجانها ، وكان منارا يهتدى به في مجلسه ومؤتمره . اتصل بلجنة الأدب منذ البداية ، وصاحبها حتى النهاية . وقضى في جوائز الشعر باطراد ، وقدم من أجازوا غير مرة في حفلات المجمع السنوية لتوزيع الجوائز ، وكم أتاح له هذه الفرصة أن يعرض آراءه في فنون الشعر المختلفة . ويمكن أن ترد دراساته وبحوثه الجمعية إلى أبواب أربعة : لهجات وفقه لغة ، نخط ورسم كتابة ، أدب ونقد ، تأريخ وترجمة .

وقد عني بدراسة اللهجات ، وله فيها آراء وملاحظات ، وبخاصة ما اتصل باللهجات أعالي الصعيد وأسوان التي احتفظت بأصول عربية لم تنفذ إليها في يسر مظاهر الحضارة الحديثة . ففي اللهجات العامية تستعمل الأضداد بقدر لا يقل عن استعمالها في الفصحى : يقال طرب بمعنى فرح ، وطرب بمعنى حزن ، ويقال للإناء الفارغ أنه « مليان » ، كما يقال في الفصحى المفازة للبيداء . وفي العامية إبدال مجرى ذلك الإبدال الذي قال به النحاة الأقدمون ، فيقال في بعض لهجات الصعيد زعق زعيقاً ودبح ديبحاً ، وكسر كسيراً ، وهو في أوزان الفصحى التزويق والتدبيح والتكسير ، وفي العامية أخيراً أوزان ملتزمة للأفعال والمصادر ، ففي إقليم أسوان يأتون بالمصدر من فاعل على فاعال ، مثل جارب حارابا .

وكم كان العقاد يدعو إلى دراسة اللهجات قديمها وحديثها ، لأنها تعين على فهم التطور التاريخي للغة ، وتربطها بالأحداث السياسية والاجتماعية . وكان من أول المصريين الذين انضموا إلى لجنة اللهجات في المجمع ، واستمر فيها حتى النهاية ، وطلب إليه أن يدرس لهجة أسوان وهو بها جدي خبير .

وفي دراسة العامية ما يساعد على تقريبها من الفصحى ، ولا شك في أن مسافة الخلف بينهما تضيق باطراد ، ويعين على ذلك اليوم شيوع الصحافة والإذاعة والمسرح والسينما . وفي هذا التقريب ما ييسر فهم الفصحى لغير المتعلمين ، وما يسمح بأن تدخل في صميمها مفردات نافعة من ألفاظ الحضارة ، ويمكن إجراؤها مجرى المفردات الفصيحة بدون تعديل أو ببعض التعديل :

وفيه بوجه خاص ما يقضى على تلك الدعوى التي تردد من حين لآخر ، والتي ترمى إلى تغليب العامية على الفصحى ، أو الاكتفاء بها في الكلام والكتابة ، وما أشبهها بالفتنة ثنام حيناً ويوقظها من يوقظها . ومن الغريب أن أنصار هذه الدعوى يستشهدون عادة باللاتينية واللغات المتفرعة عنها ، وهو استشهاد يؤدي إلى عكس ما يراد منه . ذلك لأن هذه اللغات في نشأتها ليست مجرد عامية اللاتينية بل هي لغات مستقلة نشأت كل واحدة منها نشأة خاصة بها ، وأصبحت في حكم اللغات المتفرعة على الآرية الجرمانية ، أو على السامية في عهودها الأولى :

وحقيقة الأمر أن ليس ثمة فصحي بدون عاميتها ، أو إن شئت هناك لغة ثقافة وكتابة ، وأخرى لغة تخاطب وحياة شعبية ، وكلما ارتفع مستوى الثقافة العامة ضاقت المسافة بينهما . وثقافة العلوم والآداب لا تستغنى عن لغة خاصة ، لا يحدها زمان ولا مكان ، بل تبقى على الدهر ولا تقف عند بيئة معينة : واللهجة الشعبية بطبيعتها موقوتة ، تتحول من جيل إلى جيل ، ومن بلد إلى بلد ، بل قد تتعدد في البلد الواحد : ولا حرج من أن تستخدم في بعض الفنون المحلية والموقوتة في المسرح والسينما ، لموضوعات لا تبقى مع الزمن ولا تهم سائر الأقطار . أما الفصحى فهي لغة الثقافة الدائمة ، وسبيل الاتصال بين الشعوب العربية جميعها من الخليج إلى المحيط :

ومن هذه الدراسة اللغوية ، نود أن نشير أيضاً إلى موضوعين فيهما جدة وطرافة وأولهما موضوع « السيمية » ، وهو من الدراسات الحديثة في المنطق واللغة : ويقوم على تلمس علاقة بين حروف الكلمة ومدلولها ، بين اللفظ ومعناه . ولا شك في أن هناك كلمات في شتى اللغات نشأت عن الحكاية الصوتية ، وتدل لذلك بلفظها على شيء من معناها فالسيف سمي سيفاً لأنه يشق ، والقلم قلماً لأنه يعلم ، ويسمى الريشة في الاصطلاح الحديث لأن أداة الكتابة عند الإفرنج كانت تتخذ من الريش : وعندما تكلم الإنسان الأول كانت اللغة مزيجاً من الأصوات الطبيعية كالتأوه والصياح والضحك ، ومن أصوات الحكاية في مقطع أو في عدة مقاطع ، ومن ملامح الوجه وإشارات الرأس واليدين ، ومن طبقات الصوت ومباغ مافيه من الخفوت والإشباع . ثم انتقل الإنسان من تجسيم الكلمة على هذا النحو إلى تجريد المعنى ، وفي مرحلة التجريد هذه يتعذر أن تعقد صلة بين الصوت والمعنى : وإذا كانت هناك كلمات تدل على شيء من معناها فإن هناك أخرى لا تلحظ فيها هذه الصلة وليس بين حروفها ومدلولها أية علاقة ، ونحطى إن حاولنا أن نطبق السيمية على مفردات اللغة جميعها : والمرء يتكلم ويفكر ، ولتفكيره شأن في لغته كما أن لكلامه شأن في تفكيره ، والألفاظ التي توحي بها أفكار معينة لا يلحظ فيها المنطق ولا الصوت مطلقاً :

والواقع أن الدراسات السيمية لا تزال بادئة ، ولم تصل بعد إلى المذهب المفضل والنظرية المقررة ، وإن فتحت باباً مفيداً من أبواب الدرس والبحث ، ووجهت النظر إلى ضرورة مراجعة وسائل التعبير وتنبيه اللذهن إلى أخطائها : ويرجى أن يصقلها الزمن كما صقل غيرها من دراسات أخرى :

وعالج العقاد أيضاً موضوع « الزمن في اللغة العربية » ، ويلاحظ بحق أن علامات الزمن في الأفعال دليل ارتقاء اللغة . « فاللغة التي تدل على الزمن بعلامات مقرررة في الفعل أعرق وأكمل من اللغة التي خلت من تلك العلامات ، وبمقدار الدلالة تكون العراقة والارتقاء » . وقد شاع بين اللغويين الغربيين أن اللغات السامية — ومن بينها العربية — ناقصة في دلالة الأفعال على الأزمنة ، ويحرص العقاد على أن ينقض هذه الدعوى من أساسها مبيناً أن في العربية ألفاظاً تدل في دقة على لحظات الليل والنهار ومواسم السنة المختلفة . ومن علامات تطورها أن الفعل الماضي هو الأصل ، ويأتي الفعل المضارع بالتصريف . وفي لغات أخرى من أرقى اللغات يشيع استعمال المضارع أولاً ، ويؤخذ منه الماضي بإضافة حرف أو مقطع أو تغيير الصيغة . وقسمة الزمن فيها إلى ماضٍ ومضارع أوضح وأدق من قسمته إلى ماضٍ وحاضر ، لأن الحاضر شيء نبحث عنه فلا نجده ، أو نجده على الدوام متصلاً بالاستقبال . وهذا ما فطن له نحاة العرب ، وسموه مضارعاً يدل على الحال متصلاً بالاستقبال . « فاللغة العربية لغة الزمن بأكثر من معنى واحد : لغة الزمن لأنها تحسن التعبير عنه ، ولغة الزمن لأنها قادرة على مسايرة الزمن في عصرنا هذا وفيما يليه من عصور » .

وفي الخط العربي جمال وروعة ، ويعد بحق بين الفنون الجميلة ، ويؤدي المعاني والأصوات أداءً صادقاً . ولم يحل رسم الكتابة قط دون تقدم العرب ونهوضهم في الماضي ، ولا يمكن أن يحول اليوم . وليست صعوباته أشد من صعوبات لغات أخرى يتكلمها ملايين من الناس ، ففي الإنجليزية مثلاً حروف تكتب ولا تنطق ، وأخرى تنطق على وجوه متعددة ، ولا أدل على هذا من أن معجماتها تحرص على أن تضبط نطق الكلمة ، ودرجة امتداد الحركات فيها ، وموقع النبرة في مقاطعها .

ولم يتردد العقاد في أن يقف موقفاً حاسماً من استعمال الحروف اللاتينية يوم أن أثير موضوعها في مجمع اللغة العربية ، فرفضها رفضاً باتاً ، وعارض في ذلك عبد العزيز فهمي وهو خصم عنيف ، ورد على حججه المفحمة بحجج أخرى لا تقل عنها بياناً وقوة . وأعلن أن الحروف اللاتينية تقطع صلتنا بالماضي ، بل وبالبلاد العربية في الحاضر ، وهي صلة وثيقة وعزيزة ، تقوم على وشائج شتى وتراث خالد :

وإذا كان في الحروف اللاتينية ما ييسر القراءة ، فإنها لا تعين في شيء على تيسير الكتابة ، وهي الهدف الأصلي . ذلك لأنها لا تستطيع أن تؤدي الأصوات العربية كلها ، ولا بد أن تضاف إليها حروف أخرى تزيد الأمر تعقيداً ، وتشغل حيزاً أكبر في المطبوع والمكتوب . حقاً إنها تعين على رسم الحركات من فتح وضم وكسر ، وفي الإمكان تحقيق ذلك بواسطة علامات الشكل العربية المألوفة . والمهم هو ضبط الكلمات قبل كتابتها ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بفهم اللغة نفسها ومعرفته قواعد نحوها وصرفها :

والواقع أن ما في الكتابة العربية من صعاب لا يرجع لا إلى الحروف ولا إلى الحركات ، وإنما مرده إلى طبيعة اللغة نفسها . لأنها لغة إعراب واشتقاق ، تختلف فيها الكلمة من الماضي إلى المضارع ، ومن الفاعل إلى المفعول . وأولى بنا أن نختصر قواعد النحو والصرف ، لكي يحيط بها أوساط الناس ، ويقاربوا الصواب جهد المستطاع . وتكفينا مقاربة الصواب ، لأن العصمة من الخطأ لن تتيسر في لغة ما ، ولن تتيسر أبداً في عمل يتناوله جميع الناس من خاصة وعامة .



وللعقاد دراسات في الأدب نغم بها المجمعون ، واستمعوا إليها في شوق ورغبة ، ونكتفي بأن نذكر اثنتين منها . فعرض « لموقف الأدب العربي من الآداب الأجنبية في القديم والحديث » . وعنده أنه « يمكن أن يقال على وجه الإجمال أن تأثيره بها في الزمن القديم كان على أكثره من ناحية الحضارة ، وأن تأثيره بها حديثاً كان على أكثره من ناحية الثقافة » .

ويراد بناحية الحضارة كل تأثير يأتي من ملابسة الأمم في أصول المعيشة وعادات المجتمع ، ولا يستلزم الاطلاع على آداب لغاتها . وقد اعتر العرب بلغتهم كل الاعتزاز في الجاهلية ، ولم يتجهوا نحو تعلم لغة أخرى . ثم جاء الإسلام ، ونزل القرآن بلغتهم ، فأضاف الاعتزاز بالعقيدة إلى الاعتزاز باللسان . ولكن العرب خالطوا حضارات مختلفة ، وإن لم يتكلموا بلسنتها ، وأخذوا عنها ما أخذوا . وكان لهذه المخالطة أثر في الأدب ، وأغلب الظن أن أوزان القصيد ومعانيه قد أفادت قديماً من حضارة الفرس والروم . ولأمر ما شاع بحر الرمل والبحر الخفيف والبحر المتقارب لأول مرة في الحيرة ، حيث امتدت آثار الحضارة الفارسية ، وهي أبحر تستخدم في الرقص والإيقاع . ولا شك في أن أثر الحضارات الأجنبية بعد الإسلام كان أشد وأعظم ، لتشابك العلاقات واتساع الرقعة وتنوع المراسم والعادات . فدخل في أغراض الشعر كثير من مظاهر الحضارات التي تجمعت في بلاد الدولة الإسلامية ، ومنها وصف المهرجانات والمواسم ورحلات الصيد .

ويراد بناحية الثقافة كل تأثير يأتي من الاطلاع على آداب الأمم في لغاتها والتوفر على دراستها ، وأوضح ما يكون ذلك في عهد النهضة العلمية والبحث والتمحيص . وقد نشط البحث العلمي ، صدر الدولة العباسية ، ولكن الاتصال الثقافي بين الأدب العربي والآداب الأجنبية في العصر الحديث أقوى وأوضح . وكانت اللغتان الفرنسية والإنجليزية أقرب مسالك الثقافة الأوروبية إلى البلاد العربية : فقرأ أدباء العرب كتب القوم ، وهي تضيف مزايا التعبير العلمي إلى التعبير الأدبي . وكان من أثر ذلك دقة في الأداء ، وتخصيص للفظ بمعناه ، واتساع أفق الشعر والنثر .

وكيفما كانت أسباب هذا الاتصال ، فإن العربية بقيت لغة حية قوية ، لها قوام ثابت ولغذاء متجدد ، تأخذ عن غيرها دون أن تفنى فيه .

واستوقفت العقاد أزمة الشعر التي لفتت أنظار نقاد الأدب الغربي ، ورأوا أنها تصعد إلى « الثمانينات » من القرن الماضي ، وحاولوا ردها إلى أسباب مختلفة . فذهب بعضهم إلى أنها وليدة

تدهور حضارى ، وانحطاط اجتماعى ، وبلبلة فى الأفكار ، واضطراب فى المثل والمبادئ . وردها بعض آخر إلى قيام المجتمع الصناعى الذى يتوارى فيه اللوق المطبوع والشعور المستقل والخيال الطموح .

ويلاحظ العقاد بحق أن أزمت الشعر كثيرة فى جميع الأمم ، إلا أنها ليست كآزمات العلم فى دلالتها الاجتماعية . فقد يبلغ شاعر القمة فى عصر ما ، ولا يستلزم ذلك أن يظهر بعده فى العصر التالى شاعر أعظم منه ، وليس فى عدم ظهوره ما يدل على أزمة أو على نكسة عامة . ولعل الأمر يرتبط هنا بالآفراد أكثر مما يرتبط بالهيئات والجماعات وما الشعر إلا باب من أبواب الفن يتطلب عبقریات واستعداداً خاصاً .

وهو أيضاً تعبير عن العواطف الإنسانية ، وتلطيف للواقع بالأخيلة الصادقة والأحلام الرفيعة . وقد شاركه اليوم فى ذلك أمور شتى ، ووجد الناس منفذاً لعواطفهم ومسرحاً لأخيلتهم فى كثير مما يرون ويسمعون من مخترعات العصر الحديث ، فى المسرح والسينما والمذياع والتلفزيون ، والصحف المملوءة بالأخبار الطريفة والحوادث المثيرة والمغامرات المشوقة . وفى كل هذا ما يصرف عن الشعر ، أو يغنى عنه .

• • •

أما التاريخ والترجمة فقد ساهم فيهما العقاد بنصيب وافر ، وكم استقبل فى مجمع الخالدين من زملاء ، وكم ودع آخرين !! وكانت أحاديثه فى الاستقبال والتأبين دراسات ممتعة وتاريخاً جامعاً .

وشاء به القدر أن يستقبل إبراهيم المازنى ، أخا الصبا وزميل الشباب والكهولة ، وأن يودعه ولم يمض على استقباله عام أو بعض عام . وفى استقباله يقول : « ليس من حق أن أسميها كلمة تقديم ، فإن المازنى مقدم ومتقدم ، له من بحوثه وقصائده ومقالاته وقصصه رسائل شتى . تتقدم به إلى كل مكان تصل إليه لغة الضاد . وليس من حق أن أسميها كلمة تعريف ، فإننى لو ذهبت أعرف الناس بالمازنى ، لم آمن أن أسمع من العالم العربى كله ، كلمة يستعيرها من الفرزدق ، ليقول لى : العرب تعرف من عرفت . . . لكنى أستطيع أن أقول عن المازنى شيئاً جديداً فيما يتصل بى ، وشيئاً طريفاً فيما يتصل بالمجمع » . وقد قال عنه فعلاً ، وأفاض فى القول .

ويوم أن أبنته تفتحت أمامه أبواب الكلام مرة أخرى ، وبدأ يقول : « رحم الله أخانا المازنى ، وغوخص الله الأدب والبلاغة خيراً فيه . لقد كان منذوراً للأدب بكل مانفعته اليوم من معنى هذه الكلمة ، وقد كان الأقدمون إذا قيل لهم عن أحد من الناس إنه منذور لهذا المعبود أو هذا الحرم ، فهموا من ذلك أنه قائم فى خدمة معبده طول حياته ، وأنه لا يملك أن ينحرف عن خدمته باختياره ، لأن

أرواح المعبود وجنوده ترده إليه إذا انصرفت وجهته عنه ، فلا تبقى من نفسه بقية لغير الوفاء بنذره ، وهكذا كانت صلة المازني بالأدب ، صلة نذر وقسمة . علم منذ صباه الباكر أنه يهوى الكتابة وصناعة القلم ، ولكنه علم كذلك أنها صناعة لا تجدى على صاحبها شيئاً في معيشتة . فخيّل إليه أن يعطى مطالب العيش حقها ، فلم يلبث غير قليل حتى تبين له أنه للأدب وحده ، وأن الأدب يلاحقه أينما ذهب ، فلا يتركه حتى يعيده إلى جواره .

ثم يفصل القول في المازني الأديب : الشاعر النائر ، الصحفي والمعلم ، الروائي والقصصي ، المؤلف والمترجم . يحلله في كل ذلك ، ويبين خصائصه ومميزاته . وليس في مقدور كثيرين أن يؤرخوا للمازني مثلاً أرخ ، ولا أن يصفوا إنتاجه على نحو ما فعل . وسيتبقى تأريخه له مصدراً هاماً من مصادر الأدب المعاصر .

\* \* \*

وإلى جانب هذا كله ، في مناقشات العقاد وتعليقاته آراء وملاحظات قيمة ، وتحفظ بها لحسن الحفظ محاضر الجميع وملفاته . وقد تزامننا نحو ثمانى عشرة سنة ، وأشهد أنه لم تثر أمامه مشكلة من المشاكل الكبرى في الأدب واللغة إلا واتخذ فيها موقفاً وأدلى برأى واضح . ويتميز باتجاه عام ومنحى ثابت ، يقدس العقل ويحكمه ويسير وراءه ، منطق صارم وحجته بالغة . وفي سعة اطلاعه ووفرة معلوماته ما غذى حواراً وجدله بغذاء لا ينفذ . وكان دون نزاع أميل إلى المحافظة ، فلا يسلم بالشعر الحديد أو المنشور ، ولا يشعر بحاجة إلى تيسير نحو أو كتابة . وهو على كل حال ممن يرون أن طبيعة الأشياء تأبى الطفرة ، وإن كان لابد من تجديد فليؤخذ بحكمة ، وليؤكل إلى ذوى الرأي والخبرة . وهو لهذا يرضى لنفسه أن يجدد ويبتكر ، في حين يتردد كثيراً في قبول تجديد الآخرين . غدتى اللغة والأدب بنشاطه الجهم وإنتاجه المتصل بخارج الجميع وداخله .

وفي الهيئات العلمية والأدبية — عادة — اتجاهات واضحة المعالم وجهات بينة الملامح ، ولقد كان العقاد جهة قوية في مجمع اللغة العربية . لا يكاد يثار أمر إلا وتشرئب الأنظار إليه ترتقب ما يبديه وما يلاحظه . واليوم ، ونحن نفتقده ، نذكره دائماً بما خلف من درس نافع ورأى قيم .

## ٧ - العقاد المؤمن (في ذكره السنوية الأولى)

سيداتي ، سادتي :

باسم الله أفتتح هذا الحفل ، وباسم الإسلام والعروبة نحني جميعاً ذكرى عباس العقاد ، وللفقيد الكريم جوانب شتى وميادين متعددة ، سيتحدث عنها أصدقاؤه وزملاؤه ما وسعهم الحديث ، وسيردها تلاميذه ومريدوه جيلاً بعد جيل .

وبودي هنا في هذه القاعة وفي جمعية الشبان المسلمين أن أشير فقط إلى العقاد المؤمن ، ولن يتسع المجال لذكر كل ما خلف من آيات إيمانه . ولقد كان رحمه الله مؤمناً عميق الإيمان ، فهم الدين فهماً حقيقياً ، ودافع عنه دفاعاً مجيداً . صدق به قلبه ، واقتنع به عقله ، في وقت شككت فيه المادية في كثير من أصول الأديان الثابتة .

\* \* \*

كان العقاد يرى أن الدين ضرورة اجتماعية ، تسمو على المصلحة الوطنية والحاجات الحيوية . وجد قبل وجود الأوطان ، ولا يغنى عنه سد الحاجات المادية على اختلافها . وهو أبقى وأفسح من الزمان والمكان ، تستمسك به الأجيال ويتوارثه الخلف عن السلف ، وتؤمن به جماعات بشرية من بيئات وأجناس متعددة .

والإيمان عنده ظاهرة طبيعية في حياة الأفراد والجماعات ، هو الأصل وما عداه الاستثناء . فغير المؤمن إنسان غير طبيعي ، هو شاذ في حيرته واضطرابه ، شاذ في يأسه وانعزاله . هو الشذوذ بعينه ، ينكره مجتمعه ، ولا يقوى على أن يواجهه بكل ما يجول بخاطره . في حين أن الإيمان ركن ركين المؤمنين ، ورابطة وثيقة بين الأخوة في الدين .

والفلسفة المادية مهما تنكرت للأديان وأنكرتها ، تنتهي إلى آراء تريد بها أن تكون ديناً وعقيدة . ولكنها في الواقع عقيدة وإهية لا تقوى على الزمن ، ولا تصيد لأحاديث الدهر . وما إن تحل بالمادى محنة أو تنزل به كارثة حتى يفيق من غفلته ، ويخرج من ماديته ليلوذ بعالم الروح ، عالم الأمل والطمأنينة ، عالم النور والهداية . ومن نعم الله على خلقه أن يجدوه في ساعات الشدة . وأن يلجأوا إليه في الضراء .

والعقيدة الإسلامية ملاذ المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها ، تمنحهم ما تمنحهم من أمل ورجاء وثقة وطمأنينة ، وتربطهم برباط أخوة الإسلام الوثيق . هي عقيدة العدل والمساواة . عقيدة الإخوة والمحبة ، عقيدة التعاون والتعاضد . عقيدة القلب والعقل ، عقيدة الدين والدنيا . تفتح للمسلمين أبواب المعرفة ، وتبحث على البحث والنظر . تسمح لهم بقبول ما يستحدثه العلم والفن على مر الزمن ، ولا تحرمهم شيئاً من خير العلم والحضارة .

ونحن عرض العقاد للدين والعقيدة في كتبه ومؤلفاته ، في أحاديثه وإذاعاته ، في مقالاته ومساجلاته ، في عبقرياته وفلسفاته . ونكتفي بأن نشير منها إلى كتابين أثنين ، هما : « الله » ، « الفلسفة القرآنية » .

ففي الأول أثبت بوضوح أن التوحيد أشرف العقائد الإلهية ، وأجدرها بالفكر الإنساني في أسنى مراتبه ، وأن الإله الواحد ذاتٌ تخالف جميع الذوات . هو خير مطلق وكمال مطلق ، وليس لعقولنا المحدودة أن تحيط بهذا الكمال . ولا يتنافى كماله مع وجود الشر في العالم ، لأن في وجوده حكمة بل ومصلحة . ففي الآفات عظة وعبرة ، وهي بلا نزاع سبيل من سبل الارتقاء وتنازع الأجاء . وللآلام غاية ، ولا شك في أنها وسيلة من وسائل التهذيب والتطهير .

وفي « الفلسفة القرآنية » ، يشرح العقاد مبادئ الإسلام السامية ، ويبين أن دعوته قامت على الحق والحرية ، والعدل والمساواة ، وحددت علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، ورسمت للحكم نظاما هي خير ما تساس به الجماعات .

ويحاول العقاد أيضا أن يرد على الشبه التي أثرت حول بعض التعاليم الإسلامية ، إن في الزواج والطلاق ، أو في الرق والقصاص . ويظهر مدى تلاقى هذه التعاليم مع أرقى المبادئ الفلسفية والاجتماعية ، ويبرهن على أنها سبقت اتجاهات العلم الحديث . ويقرر في اختصار أن الفلسفة القرآنية خير ما تتكفل به الأديان من عقيدة تعمر الضمير ، وتطلق للعقل العنان في سبيل الخير والمعرفة ، وتحقيق سعادة الأرواح والأبدان .

\* \* \*

هذا هو عباس العقاد المؤمن ، وليس ثمة شيء أخلد لذكره من أن نردد بعض آرائه ، ونوجه النظر إلى دراساته .

أما العقاد العربي فبحال القول فيه ذو سعة ، فقد كان عربيا بروحه ودمه ، بقلبه ولسانه بصوته وقلمه . ولا أدل على عروبه من هذا الحفل الحافل الذي جمع ممثلين لتسعة أقطار عربية ، وإنا على يقين من أن الأقطار الأخرى تشاركنا في هذه الذكرى بكل ما فيها من وفاء وإخلاص .

رحم الله العقاد العربي المؤمن رحمة واسعة ، وجزاه عن الإسلام والعروبة خير الجزاء .

## ٨ - الشيبى فى مجمع الخالدين (فبراير ١٩٦٦)

السيد الشيبى ربيب بيت من بيوت الأدب واللغة ، وشيخ من شيوخ العراق الأجلاء ، ورائد من رواد الفكر المعاصر ، وعلم من أعلام النهوض والإصلاح .

دخل مجمع اللغة العربية من أكثر من باب واحد ، فهو شاعر وأديب ، محقق ومؤرخ ، وشاعرت الأقدار أن يشغل المكان الذى خلا بوفاة لغوى العراق الأسبق ، الأب أنستاس الكرملى ، فكان خير خلف لخير سلف .

دخله عام ١٩٤٨ ، وارتبط به بأوثق رباط . فلم يتخلف قط عن مؤتمر من مؤتمراته ، ولم يتوان عن دعوة من دعواته . اختير لبعض لجانه ، ورأس عدداً من جلساته . ساهم مساهمة جادة فى بحوثه ودراساته ، واشترك فى مناقشاته وتعليقاته . أحب المجمع ، وأحبه المجمعون جميعاً على السواء .

وهنا عرفته ، فعرفت فيه الوقار والجم والسماحة العذبة ، ونعمت بأنسه ومجلسه ، وفهمت من نظراته الخاطفة وبسمته الناطقة ، أفدت من خبرته وتجربته . وكنا جميعاً فى القاهرة نرتقب مؤتمر المجمع السنوى لنلقاه ، فنجدد العهد ، ونواصل الدرس .

### ١ - الشيبى الشيخ :

عرفته شيخاً كله حماس وقوة ، وشباب وفتوة . يسبق الركب ، ويصعد الجبل وتتوق نفسه دائماً إلى كشف الحديد . وقل أن نرى شيخاً فى حب استطلاع ، يسأل ويستفسر ، ويحقق ويدقق فى آيات الكون وصنع الإنسان . يقبل على الرحلات ، ويحرص على زيارة المعاهد والمصانع ، وقد اشتركنا فى كثير من ذلك ، فكان دائماً المبكر فى الحضور ، والسباق إلى الهدف : لا ينعى بأن يشاهد ويلاحظ ، بل يأتى إلان يسجل ويدون . وكأنما كان يحرص على أن يكتب عن رحلاته ، لكى يشاركه الآخرون فى مشاعره وإحساساته . وقد خلف لنا صحائف حافلة بالتحليل والتصوير لبعض رحلاته ، فيها تفصيل دقيق ، واستيعاب تام ، ورسم كامل للوحة تريك المنظر وكأنك تعيش فيه .

\* \* \*

### ٢ - الشيبى الزميل :

وعرفته زميلاً يضطلع بالواجب ، ويؤدى الأمانة ، يعد العدة ، ويتأهب لكل جلسة ، ليقرأ ويبحث ، ويحقق ويراجع . ثم يصغى لما يقال ، فيؤيد ما يؤيد عن بينة ، يرفض ما يرفض عن اقتناع لا يصدر إلا عن روية ، ولا يعرض لما لا يعرف ، وله فى محاضر المجمع ملاحظات قيمة وتوجيهات نافعة ، وقل أن تخلو جلسة من استدراك له أو تعليق .

ودون أن ندخل في تفاصيل ذلك ، نكتفي بأن نشير إلى شيء منه . دعا غير مرة إلى توحيد المصطلح العلمي في كل الأقطار العربية ، وذلك بإحياء القديم منه ، وكثيراً مانبه إلى كتب قديمة في مصطلحات العلوم والفنون ، وكان يدعو المجمع إلى تحقيقها ونشرها ، مثل « كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري ، و « كتاب جامع أشات النبات » للشريف الإدريسي و « كتاب تقويم القديم وعقبى النعيم المقيم » لفخر الدين وزير الصالح أيوب ، وهو معجم في الحرف المصرية . ومن وسائل توحيد المصطلح عنده سهولة لفظه ، ويسر نطقه ، بحيث يمكن تداوله ، وقديماً عاب البلاغيون الألفاظ الثقيلة والمستهجنة :

ومن الألفاظ الثقيلة بعض المصطلحات الأعجمية والدخيلة التي ينبغي أن نتخفف منها ما أمكن : ولانلجأ إليها إلا عند الضرورة القصوى . ولم يكن الشيببي ممن يرحبون بالتعريب : بل كان يمت فيهِ — على حد تعبيره — سياسة الباب المفتوح التي تقضي بتدفق الكلمات الأجنبية حتى لتكاد تغطي على الألفاظ العربية الأصيلة .

وكانت دعوة التوحيد عزيزة لديه إلى حد أنه أراد بها أن تشمل أبواب الثقافة على اختلافها وكم نوه بالعلاقات الثقافية بين مصر والعراق في الماضي والحاضر . ووجه الدعوة إلى عقد مؤتمر للمجمع اللغوي في بغداد ، وألح في طلبها ، ولم ير زملاؤه بدا من أن يلبوا طلبه ، إيماناً منهم بأن ذلك سبيل من سبل التعاون اللغوي ، ويوم أن تحققت رغبته أبت الأقدار إلا أن تحرم من هونه ومشاركته .

وكان يرى بحق أنه ينبغي توحيد نطق أسماء الأعلام وتوحيد رسمها وصور كتابتها في العالم العربي جميعه ، لأنها باب من أبواب البلبلة والاضطراب . فتتطق نطقاً مختلفاً ، وترسم رسماً مبيناً من إقليم لآخر ، ولا بد لنا من توحيدها ، سواء أكانت أسماء أشخاص أم أسماء أماكن ، وسواء أكانت قديمة أم حديثة . وكتب التاريخ والجغرافية المدرسية مملوءة بهذا الاختلاف والتباين ، وما أجدرنا أن نتخلص منه ، ونلتقي في أسماء الأعلام على كلمة سواء .

### ٣ - الشيببي الباحث :

وعرفت الشيببي الباحث ، فعرفت فيه طول النفس وحب الاستقصاء . وكم كان يعز على أن أشير عليه أحياناً بشيء من الاختصار والتركيز : كان يميل دائماً إلى الاستيعاب ، فيلم بجميع أطراف الموضوع الذي يعالجه ، ويأتي على دقائقه ، وله ولوع بسرد النصوص والنقل عن القدامى والسابقين ، يستهويه ذكر الوقائع والأحداث ، ويعول على التاريخ كل التعويل . ويحرص في هذا كله على وضوح المعنى وسهولة الأسلوب ، يكتب كما يتكلم في غير مائتق ولا تكلف :

وهو مكثّر بقدر ما هو مطيل ، تنوعت دراساته وتعددت أبحاثه ، وقد يعالج الموضوع الواحد من زوايا مختلفة . ويكفى أن نشير إلى أنه في نحو خمس عشرة دورة من دورات المجمع استطاع أن يغذيه بخمسة وثلاثين بحثا ، وكثيرا ما كان يقدم في المؤتمر الواحد بحثين أو ثلاثة ويمكن أن ترد هذه البحوث إلى أبواب ثلاثة : أبحاث ، ، ومصطلحات ، وتعريف ببعض الأشخاص والكتب :

وقد عني باللهجات عناية كبرى ، فعرض لشيء من تاريخ اللهجة المصرية ووقف طويلا عند أصول اللهجة العراقية ، وأشار إلى بعض اللهجات في جنوب الجزيرة العربية . ولم يرقه مجال تعدد هذه اللهجات وتباينها في العالم العربي ، لأنها مبعث لبلة واضطراب . ودعا جاهدا إلى درسها والبحث عن وسائل توحيدها ، أو تقريب بعضها من بعض على الأقل : وعنده أن أنجع وسيلة لذلك أن ينشر التعليم بين أبناء العروبة جميعا ، لافرق بين مدينة وقرية ، ولا بين حاضرة وبادية . وفي الإذاعة الناطقة والمرئية وسيلة أخرى لتسديد النطق وتقويم الألسن ، وما أوجدنا أن نأخذ بذلك كله ، كي يصبح شعارنا : « لغة واحدة » « وثقافة واحدة » ، « وأمة واحدة » .

ولم تكن عنايته بالمصطلحات أقل من عنايته باللهجات ، وكان يرى أنه ينبغي الكشف عن تراثنا العلمي ، ففيه مافيه من مصطلحات أغفلناها ، واستعمالات أهملناها ، وحاول أن يكشف بنفسه عن مصطلحات قديمة في الطب وعلوم النبات ، والأدب والقومية . ولاحظ بحق أن المستعمرين والدخلاء أفسدوا لغتنا العلمية ، وقضوا على كثير مما استقر من أمورها . فحرّف الأعاجم بعض أسماء الأشخاص والبلدان ، وطغت الألفاظ الأيوبية زمنا على اللغة المصرية . وكان للتركية أثرها في لغة الدواوين والشئون الإدارية . وقد بدأنا نتدارك ذلك ، ونعود بالعربية إلى سالف مجدها :

وفي مجال التعريف ينوه الشيببي تارة بأعلام مشهورة ، ويكشف الحجاب أحيانا أخرى عن أمور خفية ، فيعرض مثلا لابن خلكان ، ويطيل الحديث عنه ، فيشرح منهجه التاريخي ويبين طريقته في التراجم ، ويوضح وسائله في الضبط والإتقان . وقد لفت صاحب « كتاب وفيات الأعيان » أنظار الباحثين من قديم ، وأقبل عليه العرب والمستعربون ، وعد كتابه في مقدمة المصادر التي يعول عليها في التاريخ للرجال . ويوجه فقيدنا النظر إلى مخطوط أشرنا إليه من قبل ، ولم ينشر بعد ، وهو « كتاب جامع أشتات النبات » للإدريسي ، وما أشبهه بمعجم في علوم النبات قد لا يجد له نظيرا في العربية يعرض المصطلح ، ويعرفه ، ويبين مقابله في

لغات مختلفة بين شرقية وغربية . وللشيبى بحوث أخرى « فى المعجم المساعد » للكرملى ، وفى « كتاب النيروز » لابن فارس ، وستبقى مجموعة بحوثه فى « مجلة المجمع » ذخرا للدارسين والباحثين :

هذا هو الشيبى المحمى ، أنخلص للغة وتفانى فى خدمتها ، ورأى فيها دعامة كبرى من دعائم القومية . فقدناه ونحن أحوج مانكون إليه ، وسعينا إليه فى بلده وعاصمة وطنه ، لنؤكد أو اصر الأخوة بين خدام اللغة فى مجمى بغداد والقاهرة ، وأبت الأقدار إلا أن يكون سفرنا لتوديعه الوداع الأخير . تغمده الله برحمته ، وجزاه عن العربية والعروبة خير الجزاء .

---

## ٩ - مع أمين الخولي ( مايو ١٩٦٦ )

رحمه الله رحمة واسعة ، فقد كان أمة وحده ، أمة في قوله ، يدلي بالكلمة فتحفظ عنه ، وتعزى إليه ويرسل الحملة فتصير مثلاً ، تحيا بحياة الأحداث ، وتردد في شتى المناسبات ، وكان أمة في علمه له مسلكه الخاص وطريقته المستقلة ، عرف بزيه كما عرف بمنحاه في الحياة ، يأبى التقليد والمحاكاة ، ويمقت المحاملة والمسايرة في غير اقتناع ، وكان أولاً وأخيراً أمة في رأيه ، يخرج به على المؤلف ، ويعارض الشائع والمشهور ، يعتد به ويدافع عنه ، وما أبلغ حجته ، وما أعظم إقناعه .

\* \* \*

عرفته أول ما عرفته في مدرسة القضاء الشرعي ، فكان على قمة الهرم ، وكنت في قاعدته : ولكن ثورة سنة ١٩١٩ أثبت إلا أن تجمعنا في سلك واحد ، فكنا نلتقي للتشاور والتداول . نعد العدة ، ونهيء أنفسنا للنضال والجهاد ، وقد خرجنا هاتفين محتجين . وإن أنس لا أنسى يوماً قمنا فيه بمظاهرة كبرى . لقينا فيها ما لقينا من بطش الجنود البريطانيين وعدوانهم . وكان صوته المدوي ينسى المتظاهرين آلامهم . وكأني به لا يزال يهتف :

اضربونا بالمدافع — مالأمر! الله! دافع!

اضربونا بالرصاص — فالحياة في القصاص!

وتعلمت له في درس من دورس الأخلاق . وأشهد أنه لم يكن يعرف حين ذاك لغة أجنبية . ولم ينح بعد منحى فلسفياً . ومع ذلك استطاع بذهنه الوقاد وفطرته السليمة أن يفلسف كتب الأخلاق القديمة ، فيبحث فيها عن أصول ومبادئ ، ويقىمها على أسس ودعائم ، ويصوغها في ثوب قشيب جذاب ، حتى بدت أشبه ما تكون بالدراسات الأخلاقية الحديثة التي تعنى بالطبائع البشرية ، وتحاول أن ترسم المثل الإنسانية . ومنذ ذلك التاريخ وهو ينفر<sup>١</sup> من الحفظ والتلقين ، ويعنى العناية كلها بقوة الحجة ووضوح الشخصية .

ثم افترقنا لفترة غير قصيرة . واختير ليسهم في تمثيلنا السياسي الأول في ألمانيا وإيطاليا وأتيحت له الفرصة أن يرى الغرب بعينه ، وأن يعيش بين أهله ، وتفتحت أمامه آفاق فسيحة . ولم نلتق إلا عام ١٩٣٥ ، وعلى بساط العلم مرة أخرى ، في كلية الآداب بجامعة القاهرة . التقينا هناك لقاء الزملاء ، وكانت أول كلمة قالها لي : ليس شيء أحب إلى الأستاذ من أن يزامل تلميذه . كان يتولى التدريس بقسم اللغة العربية ، وكنت أضطلع به في قسم الفلسفة . وشاءت المصادفات أن يكون بيننا طلاب مشتركون ، فكانوا لا يملون الحديث عن نظراته العلمية وأفكاره الفلسفية . وفي الحق أنه كانت له آراء في التفسير والبلاغة يعز عليهم أن يكشفوها . وقل من الباحثين من يهتدى إليها . تعنيه دائماً القضايا الكبرى والمنهج العلمي الدقيق . ويعرف كيف يبرز ما في الفكر الإسلامي من أصالة وابتكار . وليته اتجه نحو نشر دروسه جميعها في البلاغة وعلوم القرآن

إنها ولا شك ثروة علمية يعتد بها ، ولكنه فيما يظهر كان يؤثر الرسائل الصغيرة التي يعرض فيها رأيا جديدا ، أو يدافع عن قضية معينة .

وقدر لنا أن نفرق ثانية وبعد زمالة دامت سبع سنوات . وكان فراقنا هذه المرة أطول . فلم نلتق إلا سنة ١٩٦١ ، وفي مجمع الخالدين . وهناك استقبلناه في شوق إليه وتعويل عليه . ويعلم الله أنه حقق آمالنا كلها ؛ قضى معنا خمس سنوات أو تزيد قليلا ؛ فكانت كلها إنتاجا متصلا ونشاطا فياضا ؛ أغدق فيها ما أغدق على المجمع من ثمار ؛ انضم إلى لجنة الأصول وكان مقررها الذي يحمل رسالتها ويعبر عن رأيها ؛ ولم يمر مؤتمر من مؤتمرات المجمع الخمسة الماضية إلا وله تحقيق في ترجيح رأي لغوي ؛ أو كشف عن رخصة تيسر أمر العربية على الباحثين والدارسين ؛ وأسهم في لجنة معجم ألفاظ القرآن . وأعد جزءا من أجزائه ؛ ونأمل أنه يخرج إلى القراء قريبا ؛ واشترك في عدة لجان أخرى ؛ فكان له في لجنة الأدب توجيه وتقويم . وفي لجنة القانون ملاحظات ومقترحات ؛ وكانت لجنة المعجم الكبير ترقب مشاركته وإسهامه ؛ أما المجلس فكان له فيه ركن يعرف به ، ويشع منه ضوءه ؛ وإذا ما تخلف يوما أحسنا بغيابه ، ويأبى الله إلا أن أحرم من زمالته ؛ وأن يغيب عن ذلك الغياب الذي لا رجعة بعده ؛ افترقنا أخيرا وإلى الأبد ؛ وفقدته على غرة وكان ملء السمع والبصر .

\* \* \*

#### أيها الأمناء

إن أستاذكم كان صاحب رسالة ، ولا شك في أنه لقمكم إياها ، وكانت رسالته دعوة حارة وصادقة إلى التجديد والإصلاح . كان ينشد تجديدا شاملا في المظهر والمخبر ، وأذكر أن مشكلة توحيد الزى شغلنا معا فترة طويلة منذ نحو أربعين سنة . كان يؤمن بالإصلاح إيمانا جازما ويريد به أن يستوعب مظاهر حياتنا على اختلافها ، فينصب على العادات والتقاليد ، ويشمل الأنظمة والقوانين ، والفكر واللغة . فنأدى بإصلاح الأسرة ، وكتب في إصلاح الأزهر ، ورسم سبلا في إصلاح النحو وتطوير اللغة . وكان يمجت الجلود الزائف والتقليد الأعمى ، ويرى أن الدين متين وأن الشريعة سمحة ، وقد قبلا ويقبلان كل تجديد وإصلاح لا يتعارض مع الأصول الكبرى والمبادئ المقررة ، ومن آخر مؤلفاته : « المحددون في الإسلام » . أما مجرد محاكاة الغرب والافتتان ببدعه ومستحدثاته ، فلم يكن أقل تحاملا على ذلك من حملته على السلبية الحاملة التي تؤدي إلى الفناء . كان يهدف إلى إصلاح ينبع من صميمنا ، ويربط حاضرا بماضيينا ويبنى على معالم الحضارة الإسلامية التي تعتمد على أصول تختلف كل الاختلاف عن الحضارة الغربية .

#### أيها الأمناء

هذه هي الرسالة ، وإنها لإمانة في أعناقكم ، وإن في قيامكم عليها لتخليدا للذكرى أستاذكم فوق كل تخليد .

## ١٠ - على عبد الرازق (نوفمبر ١٩٦٦)

سيدى الرئيس ، سيداتى ، سادتى :

نجتمع اليوم لنؤين شيخا جليلا ، وعالما فاضلا ، وفى التأين عظة وعبرة ، نؤين رجلا استطاع أن يقول كلمة الحق ، برغم بطش الملكية واستبدادها ، ولاتى فى سبيلها مالاتى ، ولا قيمة لقوم يضيع الحق بينهم . نؤين تلميذا من تلاميذ الأستاذ الإمام ، وهم نخبة صالحة حملت المشعل وأنارت السبيل ، ورسمت مناهج للإصلاح والتجديد . نؤينه هنا فى هذه القاعة ، ليرد إليه شيئا من اعتباره ، والتاريخ يصلح ما أفسد أحيانا . فبالأمس تنكرت له هيئة كبار العلماء وأنكرته . وها هو ذا الأزهر جميعه يودعه اليوم الوداع الأخير فى تكريم وتبجيل . ويرحب بتأيينه فى هذه القاعة ، ليحشر فى زمرة محمد عبده ، ويسير فى وفده ميتا ، كما سار فيه من قبل حيا .

ولاسبيل إلى نهوض سياسى أو اجتماعى ، مالم تمهد له حياة فكرية يقظة سليمة وقد قدر لهذه الأمة أن تنبعث فيها فى القرن الماضى حركة من حركات الفكر والثقافة ، غداها فى البداية أمثال الشيخين حسن العطار ورفاعة الطهطاوى ، ثم قام على أمرها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، ولم تلبث هذه الحركة أن آتت أكلها ، وأخرجت لنا قادة فكر ، نذكر من بينهم قاسم أمين ، وفتحى زغلول ، ولطفى السيد ، والشيخين محمد شاكر ومصطفى المراغى ، وتلاميهم رجيل آخر من الأصدقاء والمريدين ، كونوا مدارس مختلفة فى الفقه والتشريع والأدب واللغة ، والفلسفة والدين . وفى مقدمة هذا الرجيل الأخوان مصطفى وعلى عبد الرازق ، وهما صنوان لا ينفصلان ، تزاملا طول حياتهما ، وكان فارق السن بينهما ضئيلا ، وتبادلا الرأى فيما عندهما من أمر ، وخضعا لظروف متحدة أو متشابهة .

وقد عرفت على عبد الرازق القاضى والمحامى ، والنائب والشيخ . والوزير والسياسى ، وعرفت فيه فى مجمع اللغة العربية الأديب واللغوى :

ويطول بي الحديث إن عرضت لذلك كله ، ويكفينى هنا أن أقول كلمة :

(١) عن البيئة التى نشأ فيها .

(٢) وعن حياته ومؤلفاته .

(٣) وشيئا عن نزعه وآرائه .

(١) بيئته :

نشأ فقيدنا فى بيت عريق من بيوت العلم والقضاء ، تصعد أضوله إلى نحو قرن ونصف . له دون نزاع شأن يذكر فى الحياة الفكرية والثقافية فى النصف الأول من هذا

القرن ، يلتقي فيه الشرق بالغرب ، والمصري بالعربي ، ويدور حديثهم حول الماضي وأمجاده والحاضر في آماله وأهدافه . يعالجون ألوانا من فنون الأدب واللغة ، ويتعمقون قضايا في الدين والفلسفة وما كان أشبه مجلسهم بمنتدى يؤمه كبار العلماء ، ويثار فيه أدق المشاكل وأعمق الآراء ، ولا يستطيع مؤرخ الحياة الثقافية المعاصرة في مصر أن يغفل ما كان « لبيوت آل عبد الرازق » فيها من أثر. في هذه البيئة الخاصة شب على عبد الرازق وترعرع ، أخذ عنها ، وأفاد منها ، وسمع فيها دعوات تناصر القديم وأخرى تؤيد الجديد :

وإلى جانبها بيئة عامة ، ملأها الأستاذ الإمام « محمد عبده » حياة وقوة ، وفجر فيها ينابيع للإصلاح والتجديد فكان يدعو إلى النهوض بالأدب واللغة ، ويقوم معوج الأفكار الدينية ، ويصور الإسلام بصورته الحقة ، ويحرر الفقه والتشريع من قيوده ، ويحاول بوجه خاص أن يصلح التعليم الديني : عاش في الأزهر ، وعرفه حق المعرفة ، ووقف على كتبه وطرائق التدريس فيه ، ورأى أنها أصبحت لا تلائم العصر ، ولا تحقق النهوض المنشود . وأخذ يغير الكتاب والطريقة معا ، وضرب لذلك مثلا من درسه وبجته ، فكان يدرس في البيان « دلائل الإعجاز » لعبد القاهر الجرجاني ، بدلا من « تلخيص المفتاح » للخطيب القزويني ، ويفسر القرآن على نحو يختلف عما درج عليه البيضاوي : وكل ذلك في عبارة طليعة ، وفكر واضح ، وروح صادقة ، ونقد أخاذ ، فاستجاب له الشباب ، وأقبلوا عليه ، وتعلقت به أرواحهم وعقولهم واستطاع أن يرى في حياته بعض ثمار غرسه ، وتضاfer نفر من بعده على إنجاز ما أوصى به ، فأنشئ معهد الإسكندرية الديني قبل موته بعام واحد ، وقام على أمره الشيخ محمد شاكر أحد تلاميذه ، وشاء أن ينهج به نهجا جديدا : وأنشئت مدرسة القضاء الشرعي بعد موته بعامين وهدفها الأول تخريج جيل جديد من رجال الدين . وتوالت دعوة الإصلاح في الأزهر نفسه منذ فجر هذا القرن ، وبدت لها صور متلاحقة ، آخرها « جامعة الأزهر » الناشئة التي تستضيفنا اليوم :

في هذا الجو نشأ على عبد الرازق ، واتصل بالأستاذ الإمام عن قرب ، تتلمذ له مع أخيه مصطفى ، وراه في بيته يزور والده ، وقد ربطت بينهما صلات ود وزمالة في مجلس شوري القوانين - واتصل أيضا بلطفي السيد في « الجريدة » ، وكانت تضطلع بنشر تعاليم أخرى لجمال الدين ومحمد عبده . تميز بحرية الرأي وصراحة القول ، ووضوح الكلمة وسمو الأسلوب ، وفنادي بالإصلاح والتجديد . نشأ فقيدنا في هذا الجو ، وتابع السير في حياة مليئة بالأحداث ، ولا نستطيع هنا إلا أن نرسم خطوطها الكبرى .

### (ب) حياته ومؤلفاته :

ولد على عبد الرازق بأبي جرج ، من أعمال محافظة المنيا في أخريات العقد التاسع من القرن الماضي (١٨٨٨م) وسلك سبيل أخيه مصطفى في التعليم ، فألحق بكتاب القرية حيث تعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب ، وحفظ قدرا من القرآن الكريم ، ثم وجه إلى الأزهر ، ففرغ له ، وأولع به ، وأقبل على درسه ، واتصل بكبار شيوخه ، وبخاصة الشيخ أبو خطوة ، وكان والده — وهو أزهري قديم — يتذكر معه ومع أخيه مصطفى بعض كتب الشعر والأدب . واستطاع فقيدها أن يتابع في الوقت نفسه دروس الجامعة المصرية القديمة وتتلمذ فيها للشيخ وليمان وسانتلانا من كبار المستشرقين .

ولاشك في أن على عبد الرازق كان مخلصا للأزهر الإخلاص كله ، يتعصب له ويدافع عنه ، وكان يرى أن إنشاء مدرسة القضاء الشرعي لم يكن إلا إصلاحا جزئيا مغالى فيه ، وكان الأولى أن ينصب الإصلاح على الأزهر نفسه ، فتهذب نظمته وكتبه وطرائقه ، ولم يرقه أن يقبل أخوه مصطفى ، وهو الأزهري المرموق ، التدريس في مدرسة القضاء الشرعي ، وما زال به حتى استقال من وظيفته . واشترك الأخوان في إضراب الأزهر الكبير في عام ١٩٠٨ ، وجدا في تحديد مطالب الأزهريين ، وكانا قريبين كل القرب من الحلول التي انتهى إليها الموقف حين ذاك . وتابع على دراسته في الأزهر إلى أن حصل على شهادة العالمية بعد أخيه بثلاث سنوات ، وعقد على الفور لنفسه حلقة درّس فيها متبرعا علم البيان ، وهذه أولى خطواته في التدريس والتأليف ، ثم أريد به أن يضم الثقافة الغربية إلى ثقافته الشرقية ، ويظهر أنه لم يكن راغبا في ذلك كل الرغبة . وكان يعيب على شقيقه مصطفى ، الذي سبقه إلى أوروبا ، ولعه ببعض تقاليد الغرب وعاداته . وإذا كان مصطفى قد سافر إلى فرنسا ، فجلدير بعلى أن يذهب إلى إنجلترا : وفي عام ١٩١٢ شد رحاله إليها ، وبدأ يدرس في أكسفورد علمي الاقتصاد والاجتماع ، ولم يبق بها إلا ثلاث سنوات ، واضطر إلى العودة تحت ضغط ظروف الحرب العالمية الأولى . وليته استطاع أن يقيم أكثر من هذا ، لكي يفهم الثقافة الغربية على وجهها ، ويقف على أسرارها ودقائقها .

وبعد عودته أخذ يضطلع بأعباء الحياة ، ويلدق حلوها ومرها ، فعين قاضيا بالمحاكم الشرعية واستمر في القضاء إلى أن ظهرت محنة الخلافة . ونحن نعلم أنه بعد أن ألغى مصطفى كمال نظام الخلافة في تركيا ، شاء الاستعمار البريطاني أن يبحث لها عن مواطن آخر ، ويتخذ منها أداة لمطامعه وكانت مصر راغبة فيها ، وبأبي مصري إلا أن يقف في سبيل هذه الرغبة ، وأعان على عبد الرازق في جرأة وصراحة أن نظام الخلافة ليس من الدين في شيء ، ولم ينص عليه في كتاب ولا سنة . وما كان محمد صلى الله عليه وسلم خليفة ، ولا ملكا ، وإنما كان مجرد رسول يبلغ آيات ربه « فلنذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » ، « وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا » . ومات النبي دون أن يعين خليفة من بعده ودون أن يحدد نظاما معيننا للحكم : ثم كانت الخلافة ولم تلبث

أن جرت على المسلمين ما جرت من خصام وفرقة ، وتحولت إلى ملك وراثي يعدل حيناً ويظلم أحياناً . ويقول على عبد الرازق : « إن ما يسمى عرشاً لا يستقر إلا فوق أعناق البشر ، وإن ذلك الذي يسمى تاجاً لا حياة له إلا بما يأخذه من حياة البشر ، ولا قوة له إلا بما يغتاله من قوتهم ولا عظمة ولا كرامة إلا بما يسلب من عظمتهم وكرامتهم ، وما أكثر ما يرتكب الملوك من شرور وآثام ، ثم يحاولون أن يكسوها بكساء الدين . »

صبيحة جزئية حقاً ، وحملة عنيفة موجهة مباشرة إلى الجالس على عرش مصر . وكيفما كانت حججها العقلية والنقلية ، فإنها تحمل دون نزاع طابعاً سياسياً . وقد أثارت ما أثارت من جدل ، أيدها فريق ، وعارضها آخرون ، وطغت فيها السياسة على الاعتبارات الدينية والتاريخية ورأت هيئة كبار العلماء — نزولاً عند رغبة أولى الشأن — أن تخرج على عبد الرازق من زمريتها . وكان لابد تبعاً لهذا أن يفصل من القضاء ، وإن عارض في ذلك عبد العزيز فهمي وزير العدل ، واضطر إلى التخلي عن الوزارة قبل أن يوافق على فصل قاض لا ذنب له إلا أنه رفع صوته جهره بما يؤمن به . وحارب على عبد الرازق في نواح كثيرة ، ولكن يكفيه فخراً أنه جهر بما كان يتهامس به آخرون ، وقال كلمة لم يجرؤ عليها أحد سواه .

ثم دارت الأيام دورتها ، وانغمس فقيدنا في السياسة ، ويظهر أنها لم تكن من ميوله الأولى ، برغم أنه نشأ في بيت كبير من بيوتها ، وربما كان لهنة الخلافة شأن في هذا الاتجاه الجديد . فانتخب عضواً في مجلس النواب ، ثم جاوزه إلى مجلس الشيوخ . واختير وزيراً للأوقاف ، وأضحى قطباً من أقطاب حزب الأحرار الدستوريين . وفي وسع مؤرخه أن يكتب صفحات عن حياته السياسية وما خالطها من أحداث . ويتحصن السياسيون أحياناً بشيء من الحذر والحيلة والشك والريبة ، ولا يقنعون بظواهر الأمور ، ويأبون إلا أن ينفذوا إلى ما وراء الستار . ولقد انغمس فقيدنا في السياسة إلى حد أنه طبع بطابعها ، وبدأت آثارها في تفكيره ومسلكه ، فكان إلى الشك أميل ، وإلى الحذر أقرب ، حتى في مواطن لا تدعو إلى حذر أو ريبة .

انتخب على عبد الرازق عضواً في مجمع اللغة العربية عام ١٩٤٨ ، ويبدو أنه صادف هوى من نفسه ، وعاد به إلى ما كان يطمئن إليه . وإذا كانت بعض أعباء السياسة قد صرفته عنه في البداية قليلاً ، فإنه تفرغ له في الخمس عشرة سنة الأخيرة ، ووقف عليه كثيراً من وقته وجهده . فاشترك في أربع من أهم لجانها ، ولم يتخلف إلا نادراً عن جلسات مجلسه ومؤتمره . وله في ذلك كله ملاحظات دقيقة ، وتوجيهات نافعة ، ومناقشات ممتعة . اكتمل ذوقه ، واتسع اطلاعه ، فلا يحكم إلا عن إحساس وشعور ، ولا ينطق إلا عن بينة . وفي محاضر المجمع ومجلته صور من هذا الذوق السليم والحكم الدقيق .

لم يمتحن الفقيه التدريس ، وإن تآقت نفسه إليه ، فتطوع له عاما أو بعض عام على حصوله على شهادة العالمية ، ودعى إليه في عدة مناسبات فلبى . درس تاريخ الأدب في الجامعة الأمريكية إبان نشأتها ، وانتدب ، وهو قاض بالإسكندرية ، للتدريس بمعهدا الدينى ، وبعد ذلك بنحو عشرين سنة ، ألقى سلسلة من المحاضرات في قسم تخصص الشريعة بكلية الحقوق في جامعة القاهرة ، ومنذ خمس سنوات فقط حاضر في معهد الدراسات العربية العليا ، ودارت محاضراته حول موضوع محبب إليه ، وهو « حياة محمد عبده » ، وله نشاط قديم في الصحافة الأسبوعية والشهرية ، يكتب مايكتب على انفراد ، أو بالاشتراك مع أخيه مصطفى :

بيد أنه لم ينشر كل إنتاجه ، وفي مخلفاته بحوث ودراسات نرجو أن تخرج إلى النور ، ويخيل إلينا أن التدريس كان يستحثه على التأليف ، فأخرج أول ما أخرج :

١ — « أمالى على عبد الرازق » ، وهى رسالة في علم البيان وتاريخه ، جاءت ثمرة لتلك الدروس التى تطوع بها عام ١٩١١ — وتمتاز بوضوح الأسلوب ، وسعة الاطلاع ، يستعرض فيها تاريخ علم البيان ، ويوضح بعض قضاياها . وأسوة بالأستاذ الإمام يميل إلى المتقدمين ، ويرى أن علم البيان الحق ما قال به عبد القاهر الجرجاني ، أما السكاكى فقد حججه ، ووضعها في قوالب جامدة ، ولو ترك مفتوحا لضممت إليه أسرار جديدة .

٢ — وفي عام ١٩٢٥ ، ظهر كتاب « الإسلام وأصول الحكم » الذى أشرنا إليه من قبل ، وهو كتاب رأى ، عالج فيه مشكلة سياسية شغلت الأذهان ، أعد له منذ سنين ، وكان هدفه أن يكتب في تاريخ القضاء ، ورأى أن يمهّد له بشرح نظرية الخلافة والحكم في الإسلام : وقد عول فيه على عدة مصادر عربية وأجنبية ، واستعان ماوسعه بالتاريخ والنصوص الثابتة : وعالج فيه ثلاث قضايا أساسية . فلاحظ أولا أن لاهياة للمجتمع بدون حكومة تنظمه وتدبر شئونه ، وماالخلافة إلا ضرب من نظم الحكم ، وإن لم ينص عليها كتاب ولاسنة ، ولاحظ ثانيا أن الخلفاء والملوك في الإسلام شاعوا أن يجعلوا من الخلافة والملك مقاما دينيا يستظلون بظله ، ويحتمون وراءه . ودعا أخيرا دعوة صادقة إلى طلب العلوم الحديثة والحد في تعلمها ، لكي نستعيد بها مجد الماضى ، وننافس في الحاضر ، وعنده أن « لاشئ في الدين يمنع المسلمين من أن يسابقوا الأمم الأخرى في علوم الاجتماع والسياسية كلها » ، ولانزاع في أن كتاب الاسلام وأصول الحكم يعد من الأحداث الكبرى في حياتنا الفكرية المعاصرة .

٣ — وفي عام ١٩٤٧ ، أخرج على عبد الرازق كتاب الإجماع في الشريعة الإسلامية وهو جملة المحاضرات التى ألقاها على طلاب دبلوم الشريعة بجامعة القاهرة ، ويحاول فيه أن يوضح حقيقة الإجماع ، وإمكان حدوثه ، وحججه ، وحكمه ، ومزله بين أصول الفقه . وهو

خريص دائماً على الجمع أو النقل ، وربما زاده كتاب الإسلام وأصول الحكم حرصاً : فينقل عن السابقين نقلاً أميناً في وقوف على المصادر ، وإطلاع واسع ، وتحرير للمواطن الخلاف :

٤- وبعد وفاة شقيقه الشيخ ، أخرج عام ١٩٥٧ « من آثار مصطفى عبد الرازق » ، وله فيه نبذة طويلة عن تاريخ حياة أخيه تشتمل على نقد وتحليل ، وتستكمل أحداثاً ووقائع لاسيما لنوقوف عليها عن طريق السماع أو الرؤية :

ويعنى على عبد الرازق العناية كلها بوضوح الأسلوب ، ودقة العبارة ، فيتخير ألفاظه ويصني جملة ، ويقسم بحوثه إلى أبواب وفصول ، وقد يبالغ في هذا زيادة في الضبط والتقسيم وهو مولع بالضبط والتحقيق ، يضبط أسماء الأعلام كلما صادفها ، ويحقق تاريخ الميلاد والوفاة ، يصعد إلى المصادر الأولى فيما ينقل ويروي ، ويعزو كل قول إلى صاحبه ، ويكاد تأليفه أن يكون مجرد رواية خالصة : وإن بدت منه إشارة أو ملاحظة ، وجح أن وقف عليها في قراءاته ، وكأنما يعز عليه أن يعزو شيئاً إلى نفسه :

#### (ج) نزعتة وآراؤه :

على عبد الرازق محافظ بفطرته ، سلقى في ميوله وتفكيره ، لآراء السابقين وزن كبير عنده ، يجلها ويتمسك بها ، ويتردد كثيراً في التعليق عليها أو العدول عنها ، ولم تغير بيئة الإصلاح والتجديد التي عاش فيها كثيراً من هذه الفطرة ، ولم تخرج به إقامته القصيرة في إنجلترا عن مألوفه وعادته يقول بالإصلاح ولكن في هوادة ، ويأخذ بالتجديد ولكن في تحفظ : ويظهر أنه مر بمرحلتين متميزتين : مرحلة شباب وفورة تحاول أن تغير وتبدل وأن تصلح وتجدد ، ومرحلة كهولة وشيخوخة تمنح إلى الهدوء والسكينة ، وتنفر من المجهول وغير المألوف ، وكأنما كانت محنة الخلافة حداً فاصلاً بين هاتين المرحلتين :

ودون أن نعرض لآرائه الاجتماعية والسياسية نكتفي بأن نشير إلى شيء من آرائه في الأدب واللغة . وسنقف عند كلمته الأولى في مجمع اللغة العربية . فيها يتحدث عن آراء الفتوة والشباب فيقرر « أن في قواعد النحو كثيراً من التكلف يجعلها معقدة معسرة . . . وأن في الإمكان استنباط قواعد جديدة أحسن ضبطاً وأقرب تناولاً » . قال هذا قبل أن يظهر إحياء النحو لإبراهيم مصطفى ، وقبل أن تفكر وزارة المعارف في تكوين لجنة لتيسير النحو ، وقبل أن يعرض مجمع اللغة العربية لهذا الموضوع ، ويقر مقترحات هذه اللجنة كلها تقريباً .

ويلاحظ أيضاً أن علماء البلاغة حصروا أبحاثهم في تلك الأبواب التي نعرفها في علم المعاني والبيان والبديع ، والأمر أوسع من ذلك ، وحسن الكلام وروعته يأخذان صوراً شتى ، ويخضعان لأغبيات كثيرة . وليست البلاغة بمقصورة على العربية وحدها ، بل لكل لغة بلاغتها ، وجدير بنا

أن نقف على أوجه البلاغة وأسرارها في لغات أخرى ، ففي ذلك ما يفتح أمامنا آفاقاً جديدة في البلاغة العربية نفسها . والواقع أن البلاغة فن من الفنون الجميلة التي تتوارد على إدراك جماها والتأثر بها أمم مختلفة .

تلك خواطر - أو أطيايف كما سماها على عبد الرازق نفسه - كانت تجول بذهنه أيام شبابه ، وقد استذكرها حين انضم إلى زمرة الخالدين ، ويظهر أنها استعبدت فقط لمجرد الذكرى . ولم يكن لها أثر ملحوظ في عمله المجبى ، بل على عكسها كان يسير ، يحمل راية السلف ، ويستمسك بالقديم . وقد قال عن أخيه مصطفى : « هو رجعى في أكثر نواحيه ، ولكن في حدود النظر الذكى والفطرة السليمة ، فلا تنسرب إليه خرافة ، ولا تشوبه شائبة من شوائب الشرك الخفى ، وهو تقدمى في بعض نواحيه ، ولكن مع الاستمسك بكثير من التقاليد الموروثة ، ومع الرجوع إلى سنن من سلف ، واتباع أحسنها . ولعله كان في جملة الأمر إلى المذهب الرجعى وحب القديم أقرب » .

وعندى أن هذا القول يصدق على فقيدنا أكثر من صدقه على الشيخ الأكبر ، نعمدهما الله برحمته ، وأجزل لها الجزاء عما قدما للعلم والدين .

## ١١ - حسن حسنى عبد الوهاب (يناير ١٩٦٩)

منذ أسبوعين أو يزيد قليلا ، كان من حظى أن أزور تونس الخضراء موفداً من مجمع اللغة العربية ، وذلك أداء لواجب مقدس ، وتوديعاً لراحل عظيم ، هو المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب وتلك أول مرة يوفد فيها المجمع إلى بلد آخر من ينوب عنه في إحياء ذكرى أحد الخالدين ، وإن فقيدنا بالحدير بكل تقدير وتكريم .

وأشهد أن تونس اشتركت كلها في وداعه حكومة وشعباً ، شيوخاً وشباباً ، كتاباً وشعراء ، صحافة وإذاعة . ودعت فيه الابن البار ، والشيخ الحليل ، والخلق السمع ، والعلم الغزير . ودعت فيه الرائد الصادق ، والمصلح الحكيم ، والإمام الذى خلف وراءه التلاميذ والأتباع . ولقد قضيت فى نادى أبى القاسم الشاذلى نحو ثلاث ساعات استمع لأصدقائه وأبنائه يرددون مآثره ، ويلهجون بأباده . وزرت ذلك المعرض الذى جمعت فيه مخطوطاته ، وأريد به أن يمثل مراحل حياته ، فجاء آية من آيات الوفاء والإخلاص . وفى الحلق أنه أحب تونس فأحبته . ووقف عليها حياته كلها فتعلقت به . قضى عمره يتحدث عنها ، ويحكي أمجادها ، ويسهم بعقله وقلمه فى نهوضها . واليوم أود أن أقول كلمة مصر قبل أن أقول كلمة المجمع والمجمعيين ؛ فقد كان حسن حسنى عبد الوهاب مصرياً بقدر ما كان تونسياً . عدت مصر وطنه الثانى : عرف من شئونها ما لم يعرفه كثيرون ، وتوافرت له فيها صداقات قل أن يحظى بها أحد سواه من أصدقاء مصر الكثرين . زار القاهرة منذ عهد مبكر ، وأحبها لحنه لتونس أو القيروان ، ولا غرابة ؛ فالقاهرة المعزية التى نخفل بعيدها الآن هذا العام يمكن أن تعد بنت القيروان . وكان يتردد عليها كلما سئمت له الفرصة ، ويعطىب له المقام فيها . ألم بدقائق تاريخها ، وعرف أحياءها القديمة التى قد لا يعرفها بعض أبنائها . وكان يروقه أن يقف إخوانه ومواطنوه التونسيون على آثارها ، وأن يزور معهم مختلف معالمها .

وقد سئل مرة : كيف وجدت مصر؟ فكان جوابه ، على نحو ما صنع مغربي سابق هو المقرئ صاحب « نفع الطيب » : « من لم يزور مصر لا يعرف عز الإسلام » . ولقد أعزته مصر بقدر ما أعزها ، فاخترته عام ١٩٣٢ من بين شيوخ المغرب وعلمائه ، ليكون أحد مؤسسى مجمعها . ونشرت المطبعة الأميرية عام ١٩٤٤ فى طبعة ثانية كتابه « تاريخ الأدب التونسى » ، بعد أن انقضى على طبعته الأولى فى تونس نحو خمس وعشرين سنة . وفى عام ١٩٥٠ منحه جامعة القاهرة ، أو جامعة فؤاد الأول حين ذلك ، درجة الدكتوراه الفخرية فى اللغة العربية والدراسات الإسلامية .

سيداتي ، سادتي

إن مجال القول في الراحل الكريم ذو سعة ، ومن العسير أن يوفي حقه في موقف كهذا :  
وحسبي أن أعرض لنشأته ، وأنوه بشيء من نشاطه الإداري والعلمي ، وأقف قليلاً عند حسني  
عبد الوهاب مؤرخ الحضارة :

#### ( أ ) نشأته :

إن حياة فقيدنا خصبة وممتعة ، طويلة وعريضة ، « وخيركم من طال عمره وحسن عمله » ،  
ملئت كلها بالجد والعمل والبحث والدرس ، وآتت ثماراً يانعة ، وخطت بتونس خطوات فسيحة  
نحو النهوض والتقدم . ولد في عهد الاستقلال ، وعاش طويلاً تحت حكم الاحتلال ، وأقر الله عينه  
بأن يستعيد الوطن استقلاله في حياته ، وأن تنعم أمته بالحرية قبل مماته ، وكان في هذا كله مثال  
المواطن الصادق الذي يخدم وطنه برغم الظروف ، ويرعى حقوقه ومصالحه إزاء اضطهاد الغاصب  
المستعمر :

وهو سليل أسرة من أسر تونس العريقة التي كان لها شأن في الأدب والسياسة . ولد عام ١٨٨٤  
ونشأ تنشئة إسلامية عربية ، فألحق في سن مبكرة بكتاب سيدي الموحّد ، ونقل بعد قليل إلى  
المدرسة الابتدائية ، حيث حفظ الربع الأخير من القرآن ، ودرس شيئاً من علوم الدين واللغة ،  
وتعلم مبادئ اللغة الفرنسية ، ثم ألحق بالمدرسة الصادقية ، وكانت بعد « الزيتونة » منارة العلم  
في تونس ، تجمع بين الثقافتين التقليدية والعصرية ، وتضم الرعيل الأول من المجددين والمصلحين ،  
وما إن أتم دراسته بها حتى سافر إلى فرنسا ، والتحق « بمدرسة العلوم السياسية » بباريس ،  
حيث توسع في دراسة الاقتصاد والسياسة والقانون ، وكان مولعاً بتتبع كبار الأساتذة والمحاضرين ،  
واتصل بنفر منهم ، أمثال شاركو المشهور Charcot . عاين أو يزيد قضاهما في باريس طالباً  
ومحصلًا ، فضم إلى ثقافته العربية الثقافة الفرنسية ، واكتمل نضجه ، وتأهب لما هو مقبل عليه  
من أعباء جسام . وشاءت الأقدار أن يموت والده ، وهو في سن العشرين ، فاضطر أن يعود  
إلى وطنه عام ١٩٠٤ ، ليؤدي واجبه نحو أهله وقومه :

#### ( ب ) نشاطه الإداري :

وما إن عاد إلى وطنه حتى دعي إلى خدمة بلده ، فأنخرط في السلك الوظيفي ، منتقلاً بين  
إدارات مختلفة : التحق أولاً بإدارة الفلاح مشرفاً على شئون الزيف والزراعة ، ومنها إلى الإدارة  
الاقتصادية التي تعنى بشئون المال والتجارة : ثم انتقل إلى إدارة المحفوظات التي كانت في حاجة  
ماسة إلى التنسيق والتنظيم ، فوضع لها نظاماً سارت عليها إلى اليوم . تجارب ولا شك متنوعة ونافعة ،  
أهلته لأن يشرف على شئون الولايات في الأقاليم : وقضى في ذلك نحو خمس عشرة سنة ، وتلك  
لاحية تعين على النهوض بالقاعدة ، وخدمة عامة للشعب على نطاق أوسع : فتولى بالتتابع أمر عدة  
ولايات تونسية ، وحاول أن ينهض بها ثقافياً وعمرانياً : فأسس المدارس والمكتبات وعيّد الطرق ،

وزود القرى بوسائل الإضاءة ومياه الشرب الصالحة . وكان يضرب من نفسه المثل للإرشاد والتوجيه فكان يلتقي على أهل ولايته محاضرات مختلفة ، ويدخل معهم في حوار مشترك ، وكثيراً ما أهدى المكتبات التي أنشأها في الولايات بعض كتبه الخاصة . وبرغم بلوغه السن القانونية عين مديراً لمصلحة الأوقاف ، فحملها من أيدي الطامعين والمعتدين . ثم اختير وزيراً للقلم فأشرف على شئون الداخلية ، وتولى أمر التراسل مع الدول والهيئات الأجنبية . أربعون سنة أو يزيد قضاه في خدمة بلاده ، وتصريف بعض الشئون العامة ، وبذل فيها من نفسه وماله وصحته ، وخطا بأتمته نحو الاستقلال والحرية :

وفي عام ١٩٤٧ حق له أن ينال حظه من الراحة ، وأن يعفى من هذه الأعباء الثقيلة : خير أن حماس التحرر والاستقلال اجتنبه إلى ميدان الجهاد والعمل المضني ، ففي عام ١٩٥٧ دعى في شيخوخته ، وكان مملوءاً بالنشاط دائماً ، إلى الإشراف على « المعهد القومي للآثار والفنون » ، وقد وقف عليه خمس سنوات كاملة ، كانت مثار نشاط لا ينقطع ، أعانه عليه تلاميذه ومحبه . فنقل مصلحة الآثار من مقرها القديم البالي إلى دار فخمة كان يسكنها قائد الجيش الفرنسي ، وأسس خمسة متاحف : أربعة منها للآثار الإسلامية ، وخامسها في قرطاجنة للآثار الرومانية .

#### (ج) نشاطه العلمي والأدبي :

لقد كان فقيداً يعرف دائماً كيف يلازم بين عمله ودرسه ، فلم يفته أن يفيد الطلاب والتلاميذ من درسه النافع وعلمه الغزير ، ولم ينقطع عن البحث والكتابة منذ أتم دراسته في باريس ، وعلى الرغم من أعباء وظائفه لم تحرم من دروسه المدرسة الخلدونية ، ولا المدرسة العليا للغة والآداب العربية بتونس ، وامتد نشاطه العلمي إلى ما وراء تونس ، فدعى إلى إلقاء محاضرات في معهد الدراسات الإسلامية بباريس .

وعنى بالكتابة والتأليف منذ أوائل هذا القرن ، وبقي على ذلك إلى أن لقي ربه . وكانت مكتبته أحب شيء لديه ، فهي صومعته التي كان يأوي إليها للبحث والتأمل : كتب بالعربية كما كتب بالفرنسية ، وغذى الصحافة التونسية والأجنبية ، وأمد دائرة المعارف الإسلامية بعدة فصول ، وشجع تلاميذه وأبنائه ، فقدم لكتبهم ، وعلق على بحوثهم ، وكان مورداً غلباً لا ينقطع .

أخرج عشرات من الكتب والرسائل في الأدب واللغة ، والتاريخ والسياسة ، والاقتصاد وعلم النبات : ويمكن ردها إلى بابين هامين : تحقيق وتأليف : وقد أولع منذ شبابه الباكر بجمع النفائس من تحف ومخطوطات ، وفي مكتبته قدر من المخطوطات النادرة ، كشف عنها ، وجهد في استنساخها أو الحصول على صورة منها ، وأخرج منها قدراً فيه جادة وطرافة : وقد سلك في تحقيقه مسلكاً علمياً دقيقاً جمع الأصول وراجعها ، وبني عليها ما ينشره . وكان يحرص على أن يقدم لتحقيقه ، وأن يشرح غامض النص ، ويبين فكرته الأساسية . استطاع أن ينشر تسعة تحقيقات

كشفت عن ذخائر مدفونة ، وبرهنت على ما امتاز به من حسن الاختيار ورهافة الحس . وحسبى أن أشير إلى مثلين اثنين : أولهما « التبصير بالتجارة » للجاحظ ، والجاحظ بحر زاخر ، لا نزال نكشف عن جوانبه المجهولة ، وقد عاش النصف الأول من حياته في البصرة بين تجارها المهرة الذين كانوا يربطون الشرق الأقصى بالشرق الأدنى . أما النص الثاني فهو « ملقى السبيل » لأبي العلاء المعري ، وهو رسالة صغيرة وضعها الشاعر الفيلسوف في أخريات حياته ، فخرج فيها من الشك إلى اليقين ، وأرسل آيات في الوعظ والحكم ، وقد حرص المحقق على أن يقارن بينه وبين شوبنهاور ، شيخ المنتشائين في الفكر المعاصر .

وفي ميدان التأليف أخرج الفقيد عدة كتب ورسائل بالعربية والفرنسية ، ومنها ما قصد به معونة طلاب الدراسة الثانوية ، « كخلاصة تاريخ تونس » ، و « المنتخب المدرسي في الأدب التونسي » ومنها ما اتجه نحو تحقيق بعض الأحداث التاريخية ، « كاستيلاء المسلمين على صقلية » ، و « نهوض الموسيقى العربية بالشرق والمغرب » وأود أن أشير بوجه خاص إلى كتاب أخرجه في السنوات الأربع الأخيرة ، وهو « ورقات عن الحضارة العربية بتونس » ، ظهر منه جزآن ويعد الجزء الثالث والأخير للطبع الآن . وهذا الكتاب وثيق الصلة بكتاب آخر شغل به الفقيد طويلا ، وسماه « كتاب العمر » . والأمل معقود على أن ينشر هذا الكتاب قريبا ، كي نعيش مع الراحل الكريم في تأملاته ، ونتابعه في بحوثه ودراساته .

وأسلوب الفقيد من السهل الواضح ، ينفر من الغريب والغامض ، ويتحاشى الصنعة والتكلف . ويتخير ألفاظه ويزنها بميزان دقيق ويؤثر الجملة القصيرة ذات الدلالة المباشرة . وهاكم نموذجا من عباراته العذبة يتحدث فيه عن البحر المتوسط ، فيقول : « إن هذا البحر المتوسط لشأن عجيب ! مهد الحضارة ، ومبعث الرسائل ، ومنبع الشعر والفن والسحر . البحر المتوسط قلب الدنيا النابض وفلك العالم الدائر ، وقطبه المنير . على ضفافه الهادئة المعتدلة ، نشأت مدنيات ومدنيات ، قديمة وحديثة ، وظهرت آيات التفكير البشري ، وعجائب الحقائق ، ونبتت معجزات سرمدية » .

وفقيدنا علم بين المستشرقين ، عرفهم وعرفوه منذ ستين سنة أو يزيد ، اشترك معهم لأول مرة في مؤتمر الخرطوم عام ١٩٠٥ وتوثقت صلاته بشيوخهم ، أمثال جورج براون بين الإنجليز ، ونولدكه بين الألمان ، وجولد زيهر بين النمساويين ، وأسين بلاسيوس بين الأسبان ، وماسنيون بين الفرنسيين . وحرص على أن يشهد مؤتمراتهم بانتظام ، وكان له فيها إسهام ملحوظ . وإن أنس لا أنسى موقفه في مؤتمر كوبنهاجن عام ١٩٠٨ من لامانس وشيخو فيما كتبا عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان لرده عليهما صدى كبير بين جميع المؤتمرين :

وللراحل الكريم تاريخ حافل في مجمع اللغة العربية ، عاش نفعه منذ نشأته إلى اليوم ، فأسهم في تأسيسه ووضع نظمته ، واشترك في كثير من لجانها ، ورأس بعض جلسات « مؤتمره » ولن أعرض في تفصيل لما قدم للمجمع من رأى وبحث ، وقد عرضت لشيء من ذلك في حديثي بتونس عن « حسنى عبد الوهاب المجمعى الرائد » . وأكتفى بأن أشير هنا إلى موقفه من الاقتراح الخاص باتخاذ الحروف اللاتينية لرسم الكتابة العربية ، وكان واضحاً وصريحاً في معارضته له كل المعارضة ، لأنه يرى الكتابة العربية موفية بجميع الغرض المطلوب منها ، وهو التعبير عن مخارج الحروف في لغة « الضاد » ، وفوق هذا ، استعملت هذه الكتابة في لغات غير لغتنا ، فكتبت بها الفارسية والأردية ، كما كانت تكتب بها التركية ، ويكتب أهل الملايو بحروف عربية - وأكثر من هذا استطاع العرب قديماً أن يكتبوا الأسبانية بحروف عربية ، ويحرص الأسبان اليوم على أن يصححوا لغتهم ويكملوها في ضوء ما كتب بالعربية .

#### ( د ) حسنى عبد الوهاب مؤرخ الحضارة :

لقد كان مؤمناً بالإيمان كله بوطنه وأمه ، فكان يرى أن البلاد التونسية قسمت للبحر المتوسط قسمين مستويين ، وكانت همزة وصل بين الشرق والغرب ، وأفادت من الحضارة الإنسانية المختلفة . وأخذت عن القرطاجنيين الملاحة ، والتجارة ، وغرس شجرة الزيتون المباركة ، وعن الرومانيين سن القوانين ، وتنظيم المدن ، وتعبيد الطرقات ، وعن البيزنطيين الترف ، والتأنق في المأكل والملبس ، وعن العرب الدين ، واللغة ، ومكارم الأخلاق . أخذت ذلك كله واستوعبته ، وهضمته وجعلته تونسياً خالصاً . وقد وقف حياته على درسها ، والكشف عن ماضيها ، فأرخ لها وحقق بعض الكتب المتصلة بها ، مثل : « وصف إفريقية والأندلس » لابن فضل الله العمري « ورحلة التيجاني » في البلاد التونسية وطرابلس . وكتب ما كتب عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، وكان « كتاب العمر » الذي لم نقف عليه بعد ، وقف عليها .

والتأريخ للحضارات أمر جد عسير ، يستلزم درسا واسعا ، وقراءة مستفيضة ، وإلماما ، وقد توافر كله لحسنى عبد الوهاب ، وكان حجة في الحضارة الإسلامية عامة ، والحضارة التونسية خاصة تتبع دقائقها ، وأحاط بتفاصيلها . وكم يذكرني بمواطنه التونسي الكبير عبد الرحمن بن خلدون ، كانا معا إمامين في العمران وطبائع البشر . وعندى أن حسنى عبد الوهاب تأثر كثيرا بسلفه ، وحاكاه في صنيعة ، وإذا كان صاحب « المقدمة » هو مؤرخ الحضارة العربية الأولى في القرن الرابع عشر ، فإن فقيدنا يعد من أئمة مؤرخيها في القرن العشرين .

سيداتي ، سادتي :

هذا هو حسنى عبد الوهاب فقيد تونس ومصر ، بل فقيد الأمة العربية جمعاء ، كان رائداً ومجدداً في حياته ، ومثلاً يحتذى بعد مماته . اختط لنفسه خطة ، والتزمها طوال ستين سنة أو يزيد ، وما أخرجنا إلى رسم الخطة واطراد السير . تغمدته الله برحمته ، وجزاه عما قدم لدينه وعرويته خير الجزاء .

## ١٢ - مصطفى جواد اللغوي (فبراير ١٩٧٠)

هناك أناس يقفون أنفسهم على الدرس والبحث ، يولعون بهما ، ويجدون فيهما لذة ومتاعاً لا يعدلهما متاع آخر . يبحثون وينقبون ، يقرءون ويطلعون ، يحققون ويراجعون ، يشرحون ويعلقون ، يكتبون ويؤلفون . ذلك همهم وتلك غايتهم ، لا يرجون وراءها جزاء ولا شكوراً ، وكأنما خلقوا ليعطوا ، وسواء لديهم بعد هذا ما يأخذون ... ومصطفى جواد واحد من هذا النصف القليل قضى حياته كلها في الدرس والبحث ، وحببت إليه العربية وعلومها منذ شرح الشباب ، فعكف على درسه ، وأعد لذلك العدة اللازمة : حصل ماحصل في مدارس العراق ومعهده ، ثم سعى إلى مصر في منتصف العقد الثالث من هذا القرن ليتزود من الفرنسية بزيادة ، وقدر له أن يسافر إلى باريس وأن يحصل على الدكتوراه في أخريات العقد الرابع . فأكملت ثقافته وتوافرت وسائل بحثه ، وضم إلى العربية لغتين أجنبيتين هما الفارسية والفرنسية ، وتنوعت قراءته ، واتسع إطلاعه . ثم أخذ ينتج ، وإنتاجه غزير ومتنوع ، فيه أدب ولغة ، تاريخ وجغرافيا ، تجلج تحقيق وتعليق ، وينصب قدر منه غير قليل على التأليف . أربعون سنة أو يزيد قضاه في تتبع الحركة الأدبية واللغوية في العالم العربي جميعه فلا يكاد يظهر كتاب أدبي أو لغوي إلا وله فيه رأى وله عليه تعليق ، وحظيت مجلات المحام العلمية واللغوية بكثير من آرائه وتعليقاته ، ومجلة الجمع العلمي العراقي منها الحظ الأوفر .

\*\*\*

ومجال القول في الفقيه الكريم ذو سعة ، وبودي أن أقف قليلاً عند مصطفى جواد اللغوي ، وقد اتهم رحمه الله بشبهات عالم اللغة الضليع : قراءة مستفيضة ، وإطلاع واسع ، وذاكرة قوية ، وفهم دقيق ، وتفكير عميق ، ومقارنة للنصوص والروايات ، واستخلاص لبعض النتائج والأحكام وانتهى إلى طائفة من الآراء والمبادئ التي كان لها شأنها في نهضة اللغوية الحاضرة .

فكان يؤمن بأن اللغة متطورة بتطور الزمان والمكان ، ومن الظلم أن نقول بمجمودها ، أو أن نقف بالفاطمة وتراكيها عند أوضاع ثابتة . وعنده أن فكرة التطور هذه ليست بجديدة ، فقد تنبه إليها القدماء ، وعلى رأسهم الزمخشري الذي كثيراً ما فرق في « الأساس » بين لغة نجد ولغة الحجاز . ولم يفت أصحاب المعاجم المتأخرين أن يшиروا إلى ما جد من ألفاظ وأساليب . وما اللهجات إلا صورة من صور التطور المكاني ، وما المولد والمغرب إلا صورة من صور التطور الزمني . وزاد مصطفى جواد في التدليل على ذلك كله وفير ، وفي « مجلة الجمع العلمي العراقي » أمثلة منه متعددة ونحاضة في مقال : « مبحث في سلامة اللغة » :

وإذا كانت اللغة متطورة فمن الغلو أن نقول بلغة مثالية لا تقبل سواها وأن نقصر الفصحى على عصر بعينه ونرفض ما عداه : وعلى عكس هذا اللغة في تطورها كل متصل الأجزاء يكمل لاحقه سابقه ، ويرتبط حاضره بماضيه . والوقوف باللغة عند عصر معين جمود . وتضييق للمدى نشاطها ، وتحديد لجمال حياتها وحيويتها : وكثيرا ما يستشهد مصطلحي جواد بشعر القرون المتأخرة ونثرها وبزعم دعوته إلى التجديد يؤثر شأن بعض اللغويين ، استعمال أمثال المقرئ والسيوطي على استعمال المعاصرين .

ومأذام باب الاجتهاد في اللغة قد فتح ، أو أنه لم يغلق قط ، فمن حقنا أن نجد في متنها وتراكمها ، وأن نعدل بعض قواعد نحوها وصرفها . ويلاحظ مصطلحي جواد بحق أن العلم والخصاصة جاءا بمعان ومدلولات كثيرة لابد لها من ألفاظ تؤذيها . وواجبنا أن نفتش أولا عن مصطلحاتنا القديمة في العلوم والفنون والآداب ، ولعل فيها ما يسد الحاجة ، وهذا أمر كثيرا ما نفعله ، مع أن لنا فيه تقاليد متصلة ، فوضع العرب معاجم في المصطلحات بدأت في عهد مبكر : كفتاح العلوم « للخوارزمي الذي وضع في القرن الرابع الهجري . ثم تلاحت في القرون التالية ، ومن أهم ما يظهر منها « كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم » للتهانوي ، وهو من رجال القرن الثاني عشر الهجري . وأحيا بعض الباحثين المعاصرين هذه السنة كالأب أنستاس الكرمل في بغداد والأمير الشهابي بدمشق ، والدكتور أمين المعلوف ببغداد والدكتور شرف ، والدكتور أحمد عيسى بالقاهرة ، فإن عز علينا أن نجد في الاستعمال القديم ما يسد الحاجة ، فلا ضير في أن نصنع ألفاظا جديدة وسبيلنا إلى الاشتقاق والتعريب . ولا شك في أن اللفظ المألوس والشائع المشهور ، وإن كان دخيلا أو مولدا ، خير من الغريب والمهجور . والمصطلحات الجديدة ذات حظوظ مختلفة ، فمنها ما يقدر له البقاء والانتشار ، ومنها ما يحل محله غيره ولا يحظى بحياة طويلة .

والنحو والصرف متطوران تطور اللغة نفسها ، وفي وسعنا أن نجد فيهما ونعدل . والنحو في الساعات الحية ، وفي مقدمتها الفرنسية ، متغير ومتطور ، ونعني بتطوره أنه لم يلتزم فيه دائما آراء النحويين السابقين ، وقد بذلت في وضع النحو العربي جهود كبيرة ، وقام على أمره أئمة أعلام ، إلا أن بعض أحكامه غير مستوعب ومنها ماضيق الواسع ، ولا أدل على هذا من اختلاف مدارس ومذاهبه ، وفي وسعنا أن نتدارك بعض ما فات وأن نبدع في النحو كما أبدع قدامى النحاة . ويحاول مصطلحي جواد في كتابه « المباحث اللغوية في العراق » أن يقدم نماذج لما يمكن أن يستدل على النحو القديم ويلاحظ أنها في مؤلفاتنا المدرسية تميل إلى نحو البصريين ويأسف لهذا ، ويراه من أسباب جمود النحو وعده غاية لا وسيلة ، وعنده أن في نحو الكوفيين ما يفضل آراء البصريين .

وليس مشكلة الصرف بأهون من مشكلة النحو ، فالعبد به سر جموده ، وتغيبه أحيانا . والصرف الشباب عنه . فيه قضايا شائعة لا يمكن أن تقبل على علاقتها ، كالقول مع البصريين بأن

المصدر أصل المشتقات ، وقصر الاشتقاق عليه ، وكأفعال المطاوعة التي يعدها مصطفى جواد خرافة عجيبة ، لأن المطاوعة تنصب على المفعول لا على الفعل . ورفض الصرفيون النسبة إلى الجمع ، مع أنه مقصود أحيانا لذاته ، وورد السماع به كالشعوبى والأنصارى والحواليق : وأغفلوا بعض أوزان تدعو الحاجة إليها كأسماء الآلة والأداة ، ومنعوا بعض الصيغ مع أنه لا غبار عليها : والعربية وهى لغة اشتقاقية ، جديرة بأن تيسر هذا كي يؤدي — ما أمكن — كل معنى بلفظ خاص به . وقدم مصطفى جواد لمؤتمر مجمع اللغة العربية فى دورته الثالثة والثلاثين سبعة مقترحات شاركه فى بعضها جمعيون آخرون ، وترمى إلى تيسير الاستعمال العصرى . وقد أقر المجمع منها ثلاثة ، وهى أولا جواز لحوق التاء بصيغة فعول بمعنى فاعل وجمعها جمع تصحيح للمذكر والمؤنث ، فيقال فخور وفخورون ، وفخورة وفخورات . وثانيا قياس صيغة فعيل للدلالة على المشاركة ، مثل جليس وخليل وأكيل ووكيل : وأخيرا إباحة جمع فعل على أفعال ، فيقال مجد وأنجاد وبحث وأبحاث وكثيرا ما أنكر هذا على الكتاب والمؤلفين :

وقد عاش مصطفى جواد مع المعجمات العربية زمنا غير قصير ، درس قديمها ، وعلق على حديثها ، وعرفها معرفة حقة . ولاحظ على المعجمات القديمة قلة تبويبها ، ونقص تنسيقها ، وقصورها فى تناول الألفاظ المولدة والمعربة ، ومنها ما لا يخلو من تحريف وتصحيف . وكثيرا ما قنع أصحابها بمجرد الأخذ عن سابقهم دون تجديد أو تمحيص ، وهم يعنون فى الغالب بالمفردات أكثر مما يعنون بالحمل والتراكيب ، مع أن للجملية قيمة استعمالية هى القيمة الحية للغة وتأخذ اللغات بعضها عن بعض جملا وأساليب ، كما تأخذ ألفاظا ومفردات . وقد سرى إلى العربية المعاصرة سيل من الأساليب ، الأجنبية ، ويحرص مصطفى جواد على أن يثبتها ، وبخاصة ما كان منها موضع نقد أو ملاحظة ، وهو لا ينكر هذا الأخذ من حيث المبدأ ، ولكنه لا يقبله على إطلاقه ، ويدعو واضعى المعجمات الحديثة إلى أن يتعقبوا هذه الأساليب والتعابير ، ويدلوا برأيهم فيها . وقد لا نتفق معه فى بعض ما أقره ، أو فى بعض ما رفضه ، ونعتقد أن الأسلوب الجديد ثروة لغوية مكتسبة ، ما دام لا يتعارض مع أصول العربية وقوانينها :

ويؤقت مصطفى جواد طويلا عند نقطة سبق إليها ، وهى أن المعجمات اللغوية القديمة لم تستوعب مفردات اللغة وتراكيبها جميعها ، بل فاتها منها قدر ملحوظ ، وعلينا أن نتلمسه فى كتب الأدب والتاريخ والعلم والفلسفة . وهذا ما دفع مستشرقين كبيرين إلى محاولة تكملة المعجمات العربية واستدراك ما فاتها ، وهما لين ( ١٨٧٦ م ) الإنجليزى ، ودوزى ( ١٨٨٦ م ) الهولندى . وقد شغل مصطفى جواد بذلك منذ سن مبكرة ، وتابعه طوال حياته ، وأخذ يسجل ما لفت نظره وجمع جملة صالحة من المستدركات تبلغ أن تكون مجلدة كبيرة ، فيها شواهد لغوية ، ونكت نحوية ، ودقائق صرفية ، وقد عرض نماذج منها فى مؤتمر الدورة الثانية والثلاثين لمجمع اللغة العربية

الذى عقد ببغداد عام ١٩٦٥ . وبقدر ما نعلم لم ينشر هذا المعجم المستدرك بعد ، وليس شئ أبلغ في الوفاء لمؤلفه ، ولا أنفع في تخليد ذكره من نشر معجمه هذا .

لا أظننى فى حاجة أن أشير فى ضوء ما تقدم إلى أن مصطفى جواد لغوى حق ومعجمى صادق أسهم مع كبار المعجميين فى حمل راية النهوض بالعربية ، وجعلها وافية بحاجات العصر ومقتضياته ، آمن بخصبها ومرونتها ، ولمس قدرتها على الوفاء بمطالب العلم والتكنولوجيا . أحاط بها ، واستوعب نصوصها وشواهداها ، فإذا ما عرض جديد ناقشه فى ضوء الماضى حتى ليخيل إلينا أنه يقول مع القائلين : « ما ترك الأول للآخر شيئا » . ولكنه فى سعة أفقه ينفذ من ناحية أخرى إلى ما ينبغي ابتداعه وابتكاره وما يجب إضافته وتجديده . فهو مثال حسن للغويين الذين يجمعون بين المحافظة والتجديد .

وقد عده مجمع اللغة العربية بالقاهرة من قديم شريكى له فى مهمته وسعد أخيرا بزمالته وعضويته والتقى معه فى كثير من آرائه وأخذ بقدر من مقترحاته ، واعتز بما أدى من أمانة ، وما حمل من رسالة . وهو يشارككم تمام المشاركة فى رزئه ، ويبحث إليكم مرة أخرى بخالص عزائه . عوضنا الله جميعا فيه خيرا ، وجزاه أحسن الجزاء بما قدم لأمتة ولغته .

---

## ١٣ - محمد الفاضل ابن عاشور (فبراير ١٩٧١)

لودع اليوم شيخا جليلا ، وزميلا كريما اختطف منا على عجل ، وحرمانا من علمه وفضله  
ويجئ الجوج ما نكون إليه .

والموت تقاذ على كفه جواهر يختار منها الجياد

لودع الفاضل ابن عاشور ، وقد كان فاضلا حقا ، سماه كذلك ، جده لأبيه ، وكأنا كان  
يكنه الحجب . فجاء ابن ابنه فاضلا في زيه وسمته ، يملأ العين جلالا ووقارا ، والقلب  
تقديرا واحتراما ، وفاضلا في قوله وعمله ، حديثه جد لا هزل فيه ، ومسلكه قدوة حسنة ،  
أدب جم ، وتواضع بالغ ، وعطف ورأفة ، وبذل للنفس والمال في سبيل الخير والناس .

ولودع عالما كبيرا ، إماما من أئمة الأدب واللغة والفقه والتشريع ، ورائدا من رواد الإصلاح  
والتجديد : وكم نعمنا نحن هنا بأدبه الرقيق ، وبجته العميق ، ودرسه الواسع : لا يعني إلا بدقائق  
الأمور ، ولا يعرض إلا للمعضلات ، كان حجة في تراثنا الإسلامي جميعه ، وبخاصة ما خفي منه  
من أخبار المغرب وبلاد الأندلس ، ومحيطا بثمار الثقافة الغربية وما انتهت إليه من علم وفلسفة ،  
فاستكمل وسائل الدعوة إلى الإصلاح والتجديد ، واضطلع بها في إيمان ويقين وجد وإخلاص ،  
حريصا على أن يربط الحاضر بالماضي ، وأن يلازم بين الجديد والقديم .

ومجال القول فيه ذو سعة ، وفي سيرته عبرة ، وفي علمه نفع كبير : وحسبنا الآن أن نورخ  
له في اختصار ، وأن نعرض لشيء من جوانب نشاطه وثقافته الواسعة .

• • •

ولد الفقيد الكريم في الثاني من شوال عام ١٣٢٧هـ ، الموافق ١٠ من أكتوبر عام ١٩٠٩م ،  
ونشأ في بيت علم وفضل ، وتعلم لوالده ، وهو إمام في علوم الدين واللغة ، قبل أن يتعلم المعلم  
آخر . تعلم له في صباه ، فبدأ تحت إشرافه في حفظ القرآن ولما تجاوز الثالثة ، وفي تعلم القراءة  
في بعض كتب المطالعة المصرية ، وحفظ بعض المتون كالأجرومية والألفية وهو في السادسة : ووجه  
في العاشرة إلى تعلم اللغة الفرنسية على أيدي معلمين خصوصيين في منزله . وكأنا أريد به أن تقصر  
طفولته على بيته وأسرته ، فلم يدخل المكتب الابتدائي ، ولم يعرف من الأطفال إلا أبناء الأقارب :  
وفي الثالثة عشرة من عمره بدأ يدرس القراءات والنحو والفقه والتوحيد . وفي العام التالي التحق بجامع  
الزيتونة ، وبقي به إلى أن تخرج فيه ، ومنذ ذلك لم تنقطع صلته به ، تولى التدريس به في  
سن مبكرة ، وبقي يتدرج طبقة بعد طبقة إلى أن أصبح أستاذا ، وقد جاوز الأربعين بقليل ، ثم

عنيدا للكلية الزيتونية للشرعية وأصول الدين عام ١٩٦١ ، ولكنه لم يبعد قط عن والده وأستاذة الأول ، عاش إلى جانبه طول حياته ، واستمع إلى دروسه في الأدب والتفسير والحديث بجامع الزيتونة مدة خمس سنين ، ودرج طول حياته على أن يقرأ بين يديه كل ليلة من ليالي رمضان بعد صلاة التراويح قدراً من كتب الحديث والرجال واللغة ، كالبخاري ومسلم ، والإصابة والنهاية ، ولسان العرب وقد نعت بلقاء الأب والابن ، وأشهد أني لم أر مثله ابناً هو يهر أبه وصورة كاملة له .

وإلى جانب هذه البيئة الخاصة تفتحت أمامه آفاق شتى ، واتصل بالحركات الثقافية في العالم الإسلامي عامة ، وفي شمال إفريقية خاصة ، ولم يفته أن ينهل من خياض الثقافة الغربية . رحل إلى فرنسا لأول مرة وهو في سن السابعة عشرة ، وكان لهذه الرحلة أثر كبير في نفسه ، ثم توالى رحلاته إلى أوروبا وبعض بلاد الشرق الأدنى واشترك في عدد غير قليل من الندوات والمؤتمرات ، ودعى للتدريس في كثير من المعاهد والجامعات وأسهم في عدة هيئات ، كالرابطة الإسلامية بمكة والجامعة الإسلامية بالمدينة ، وجمعية الجامعات الإسلامية بفاس ، واختير عضواً بمجمع اللغة العربية عام ١٩٦١ ، وعضواً بمجمع البحوث الإسلامية في العام التالي .

وللقاهرة في نفسه منزلة خاصة ، يحن إليها عن بعد ، ويطيب له المقام فيها عن قرب . يتابع نشاطها الثقافي ، ويجد في لقاءاتها الفكرية متاعاً لا يعادله متاع : « ولا أزال أذكره وهو واقف بيننا في العام الماضي يقول : « حياك الله يا أرض الكنانة » ، وبارك لك في هذا الجارى من صعيدك إلى شطتك يتدفق خيراً ، ويترقرق رياً ، ويتألق نورا ، ويرفع طهراً وصفاً . وهل يجد أليف عهدك - يامصر - خيراً من نيلك السعيد ، يحينك به وهو الذي تحين به أنت كل وافد عليك ، كما كان آل جفنة فيما شهد حسان ، يسقون قاصدكهم : « بنودي يصفق بالرحيق السلسل » . فهذه تحيتك - يامصر - تعود إليك ، لانجد أحسن منها حتى تحملك بها » .

اضطلع الفاضل بالافتاء والقضاء ، إلى جانب عمله في الكلية الزيتونية للشرعية وأصول الدين ، وكان التدريس أحب إلى نفسه : « حاضر في القرية كما حاضر في المدينة وخطب في العامة كما خطب في الخاصة » ، وكان محبوباً إلى طلبته ومستمعيه ، يحرسون على حضور درسه ويسارعون إلى استماع خطبه ومحاضراته : « وجل مانشر من مؤلفاته إنما هو مجموعة دروس ومحاضرات ألقاها أو بحوث أعدها لندوة أو مؤتمر ، فدعى عام ١٩٥٥ إلى معهد الدراسات العربية العليا بالقاهرة وألقى سلسلة من المحاضرات أخرجت في كتاب كبير تحت عنوان : « الحركة الأدبية الفكرية بتونس » ونشر له « مجمع البحوث الإسلامية أخيراً بحثاً قيمياً : « في التفسير ورجاله » : وله في مجلة مجمعكم ومجموعات محاضراته بحوث لها وزنها وقيمتها ولو تخفف من بعض أعبائه وهد في أجله لغدى المكتبة العربية بغذاء أوفر : وله دراسات بالفرنسية قدمها في بعض المؤتمرات

الدولية : ويغلب على الظن أن له مخلفات لم تنشر بعد ، ونعتقد أن أصدقاءه وتلاميذه لن يترددوا في إخراجها إلى النور ، كى يفيد منها القراء و الباحثون .

هذه في مجال هي حياة الفقيه التي كانت ملأى بالنشاط والعمل ، غنية على قصرها بالدرس والبحث ونود أن نقف عند ثلاثة فقط من جوانبها :

#### ١ - الفاضل ابن عاشور مؤرخ الفكر الاسلامي :

في وسعنا أن نقرر أن تاريخ الدراسات الإسلامية على اختلافها لم ينل بعد حظه ، ولم يكتب كتابة دقيقة مستوعبة ، فلم يكشف هن أصولها ، ولم تتضح مراحل نموها وتطورها ولم تعرف آثارها في الحركات الفكرية الأخرى ، ولم تبين أسباب جمودها وتخلفها : ولا تزال في ذلك كله حالة بوجه خاص على ابن خلدون في « مقدمته » ، وقنعنا في الغالب بالصورة الأخيرة التي وصلت إليها : وقد أحس بهذا النقص فقيدنا ، كما أحس به معاصرون آخرون ، ومكنته ثقافته الواسعة من تدارك شيء منه : ومن أوضح ما حاوله في هذا الباب مؤلفه الذي أشرنا إليه من قبل « تفسير ورجاله » والذي ظهر بعد موته بقليل ، ويقع في نحو ١٨٠ صفحة من القطع الصغير : ويعالج هذا المؤلف تاريخ علم التفسير منذ نشأته إلى اليوم ، من ابن عباس إلى محمد عبده و « تفسير المنار » ، ويوضح مناهج التفسير المختلفة من أخذ بالمأثور ، أو بالنظر والمعقول أو من جمع بينهما ، ويربط التفسير بموضوع إعجاز القرآن الذي كان له شأن في نمو هذا العلم وتدفع أبحاثه وطرائقه ، وفسر هذا الإعجاز على صورتين ، فقليل بالإعجاز الغيبي ، والإعجاز العلمي : والإعجاز البلاغي ، ويعرف المؤلف بكبار المفسرين وأهم كتبهم في المراحل المتلاحقة ، ويقف طويلاً عند بعض الأعلام ، كالطبري والزنجشري والرازي والبيضاوي بن القدامي ، وكالألوسي<sup>٣</sup> ومحمد عبده بن المحدثين : وله في كل هذا ملاحظات دقيقة ومقارنات شائقة :

ويمكن أن يضاف إلى هذا بحثان آخران لا يخلوان<sup>٢</sup> - على قصرهما - من جدة وطرافة ، وهما أولاً : « الاجتهاد ، ماضيه وحاضره » وقد ألقى في المؤتمر الأول<sup>١</sup> لمجمع البحوث الإسلامية ، ويستعرض فيه باختصار الأدوار التي مر بها الاجتهاد والتشريع الإسلامي منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا . فيشير إلى كبار المجتهدين من الصحابة والتابعين ، وإلى نشأة المذاهب الفقهية الكبرى ويعرض لاختلاف المجتهدين ، باختلاف طبائعهم وميولهم ، ومدى تفهمهم للنصوص من كتاب أو سنة ، وتباين العادات والتقاليد من بلد إلى آخر : وقد عرف من قديم تسامح ابن عباس وتشدد عبد الله بن عمر ، واختلاف تشريع المدينة عن تشريع العراق والشام ومصر : ويلاحظ فقيدنا بحق أن المشرعين من الصحابة والتابعين ورجال القرنين الثاني والثالث للهجرة كانوا أكثر منا طلاقة وحرية في قياس الأشباه والنظائر واستنباط الأحكام الشرعية : ويوم أن استكملت المدارس الفقهية بحوثها ، واستقرت أصولها وفروعها ، قنع أتباع كل مدرسة بالأخذ عنها ، وضاق منذ القرن الرابع مجال الاجتهاد والاستنباط في التشريع ، وذهب

إمام الحرمين في القرن الخامس إلى أن ليس ثمة موضوع لم يعرض له الفقهاء السابقون : وتوسى الاجتهاد أو كاد ينسى ، واستمسك العامة والخاصة بالتقليد ، الأمر الذي لم يرق ابن تيمية ولا تلميذه ابن قيم الجوزية في القرن الثامن ، ورفضوا معا تقليد المذاهب الأربعة ، ودعوا إلى الرجوع إلى ما كان عليه السلف : وظهرت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بوادر دعوة إلى شيء من التحرر على أيدي الدهلوي في الهند والشوكاني في اليمن ، وعززها الأستاذ الإمام في القرن الرابع عشر ، وتركت عليها اتجاهات عملية تختار من المذاهب السابقة أنسبها للظروف الحاضرة : ولا شك في أن العالم الإسلامي كان عرضة منذ الماضي لاعتبارات وأوضاع جديدة لم يعرفها السلف ، ولا بد من مواجهتها بتشريع واجتهاد طليق على نحو ماصنع الأوائل : ولم يكن الاجتهاد " التشريع " منذ بدأ من عمل العامة والدهماء ، وإنما اضطلع به الخاصة ، وحسبنا لو تكوّن — كما يرى الأستاذ الكبير الطاهر ابن عاشور والد الفقيه — مجلس إسلامي يضم كبار فقهاء المسلمين في العالم أجمع لمواجهة التطورات الحديثة ، وما أشبه هذا المجلس بمجمع البحوث الإسلامية في مصر :

وأما البحث الثاني فيدور حول « السند التولسي في متن اللغة » ، وقد نشر في الجزء التاسع عشر من مجلة المجمع — وفيه عرض شامل للدراسات اللغوية وشيوعها في الأندلس وشمال إفريقيا من القرن الرابع إلى آخر القرن الثامن الهجري ، ثم انتقل السند إلى مصر ، وتلقاه ابن حجر والسيوطي والمرئسي الزبيدي : ويشهد هذا البحث مرة أخرى على مدى تمكن الفقيه من تاريخ الثقافة العربية في نواحيها المختلفة ، وعلى مدى معرفته لكبار الرجال ، إن في الفقه ، أو في الأدب أو في اللغة :

## ٢ - الفاضل ابن عاشور المجمع :

لا ترجع صلة فقيدنا بمجمع اللغة العربية إلى عام ١٩٦١ فحسب ، يوم أن اختير لعضويته العاملة بل تصعد إلى أبعد من ذلك — فقد كان يتتبع نشاطه منذ إنشائه ، وكان يعتز باشتراك عضوين عاملين فيه كانا من أحب الناس إليه ، وهما الخضر حسين ، وحسن حسني عبد الوهاب ، واشتركا والده أطال الله بقاءه ، في بحوثه وأعماله بالمراسلة : وكان يعتز أيضا بشيوخ المجمع الآخرين من عرب ومصريين ، ويقدر ما انتهوا إليه من اقتراحات وقرارات ترمي إلى تطويع اللغة لحاجات العصر ومقتضيات العلم والحضارة الحديثة : كان يؤمن بهذه الرسالة إيمانا جازما قبل أن يدخل المجمع ، ويوم أن دخوله لم يتردد في أن يسهم فيها بكل ما وسعه من علم وخبرة : ولقد قضى معنا عشر سنوات كاملة كلها خصصها وإنتاج ، ولم يتخلف عن مؤتمر من مؤتمراتنا إلا لضرورة قاهرة : وأخذ الكلمة في افتتاح مؤتمر الدورة الثلاثين والدورة السادسة والثلاثين ، وأبهر فقيه تونس الكبير الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في الدورة الخامسة والثلاثين : وغدّى المحلة ببحث قيم سبق أن أشرنا إليه ، وقدم للمؤتمر بحثين هامين في الدورة الثلاثين والدورة الرابعة والثلاثين ، أولهما : « تحرير أفعال التفضيل من رتبة قياس نحوى فاسد » ، والثاني : « المصطلح الفقهي في المذهب المالكي » : وإن نهت عند

ملاحظاته الدقيقة وتعليقاته النافعة على بحوث وموضوعات عرضت في المؤتمر الماضية ، ويكفي أن  
لنؤه بهاتين الدراستين :

فأما الدراسة الأولى فوليدة مجربة لرجل عاش مع القواعد النحوية والصرفية زمناً غير قصير ،  
ولم ينس ما فيها من أقيسة جاوزت الحد ، واستنتاجات لم تكن على تحر تام للاستعمال القديم ، لا سيما لدى  
البصريين المحدثين : ورأى أن فيها « مجالاً للنظر ، وأن من الخير أن نقلها ، وأن نتحرر من وثاقها  
ما أمكن توسيعاً للغة ، وتيسيراً على طلابها » . ومن أوضح الأمثلة على ذلك أفعل التفضيل وهو من  
التضاريف التي تتجلى فيها عبقرية العربية ، ويشيع استعماله اليوم لتقدير النسب وضبط القيم ، وتفضيل  
صفة أو أمر على آخر : ولكن النحاة ضيقوا أوزانه ، وأثقلوه بشروط كثيرة تعقد استعماله : وفي بحث  
جاء غنيق حاول الفاضل ابن عاشور أن يفك هذه القيود ، وأن يبين ما في هذه الشروط من تزيد  
وتعسف : وقد استقبل الجمعيون بحثه بحماس وتقدير بالغين ، وقضت لجنة الأصول بالجمع في نظره  
زمناً طويلاً ، وعقبت عليه بدراسات أخرى متعددة : وانتهت إلى الأخذ بكثير مما قال به من تيسير  
أمر هذه الصيغة ، وتمكين الناس من استعمالها في طلاقة . وعنده أن باب الاجتهاد مفتوح في النحو كما  
هو مفتوح في التشريع ، وعلينا أن نيسر قواعده ، للدارسين والباحثين ، لأن اللغة ملك أبناء العروبة  
جميعاً . ونحن نريد بهم أن ينطقوها ويكتبوها في يسر : وقد كان الفقيه ينوي أن يتقدم إلى الجمع  
برسائل لتعلم النحو بطريقة تضمن تطهير العربية من اللحن ، ولا شك في أن هذا أملنا جميعاً وغايتنا  
المنشودة .

وأما الدراسة الثانية فبيان لنشأة المصطلح الفقهي في الإسلام ، وأنه ضرب من الوضع أدى إلى  
تكوين مجموعات من الحقائق العرفية التي تتميز من الحقائق اللغوية — وتعرض الفقيه لتاريخ  
المصطلح الفقهي في المذهب المالكي ، مبيناً أنه نشأ في القرن الثاني على أيدي مالك بن أنس إمام دار  
الحجرة ، وورث الحركة الفقهية النشيطة بالمدينة في عهد الصحابة والتابعين ، وقد جرت بمئاته  
السليقة وقوة الارتجال : وفي « الموطأ » قدر لأبأس به من هذه المصطلحات توارثه تلاميذ مالك  
من بعده ، وغلبوه وصقلوه : ثم أخذ المذهب المالكي ينتشر في أقطار مختلفة مما أدى إلى اتساع لغة  
التعبير الفقهي وتنوعها : وفي القرن الثالث وضع سحنون « المدونة » التي تشتمل على أربعين ألف  
مسألة ، وتعلم الموسوعة الأولى في الفقه المالكي ، فزادت المصطلحات وضرباً ودقة : وچاء  
أبو زيد القيرواني ، فوضع في القرن الرابع عدة كتب ساعدت على الضبط والتحديد ، ونلخص  
« المدونة » ، ففتح باب الملاحظات التي شاعت في القرون التالية : ومن أهمها ما صدره فقههاء مصر  
المالكيون كابن الحاجب والقرافي في القرن السابع ، وخليل في القرن الثامن : ولم يترجم هؤلاء الفقههاء  
بوضع المصطلحات ، بل عرفوها وجهلوا ما وسعهم في ضبط هذه التمرينات ، وانضم إلى هذا  
« كتب القضاء والأحكام » ، والنوحي والفتوي ، التي طبقت المصطلحات النظرية تطبيقاً عملياً :

وتوافر بهذا ثروة لغوية فقهية أفاد منها أساتذة الحقوق وعلماء القانون في العصر الحاضر ، وعليها عولوا فيما ترجموا وألفوا . ويذهب الفاضل إلى أن للفقه المالكي خاصة شأنها فيما ترجم من كتب القانون من الفرنسية وإليها بشمال إفريقية في المائة سنة الأخيرة :

ولانزاع في أن الفقه كان أسبق الدراسات الإسلامية إلى تكوين لغته الخاصة ، وعنها أخذت دراسات إسلامية أخرى نشأت معه أو ظهرت بعده ، وقد لوحظ أن في النحو والمنطق مثلاً ألفاظاً يمكن ربطها إلى المصطلح الفقهي : وحيد الوعولج على هذا النحو والمصطلح الفقهي في المذاهب الأخرى وجمع في قوائم ثابتة ، وتتبع تطوره في المراحل المتعاقبة في ذلك ما يعين على ربط المصطلحات الفقهية بعضها ببعض ، وما يمكن من إحياء ما ينبغي إحياءه منها :

### ٣- الفاضل ابن عاشور أحد رواد الإصلاح والتجديد :

وغتاما لا بد لنا أن نقول كلمة عن الفاضل ابن عاشور المصلح ، ودعوة الإصلاح في تونس .  
قديم العهد ، تصعد إلى أخريات القرن الماضي ، وتخذو حذو حركات النهوض في العالم الإسلامي ، وفي مصر خاصة ، تتصل بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وجمعية العروة الوثقى ، وكان لهذه الجمعية فرع في تونس ، يتلقى صحيفتها ويروج دعوتها وعلى رأسه الشيخ محمد السنوسي الذي ظف بالبلاد الإسلامية ، واتصل بكبار مفكرها ، وعد عنوانا لعصره في الدعوة إلى النهوض والتجديد ، وكان على علاقة مستمرة بالأستاذ الإمام : ويوم أن عطالت جريدة العروة الوثقى سافر محمد عبده إلى تونس عام ١٨٨٤ : وأقام نحو أربعين يوما ، أتى فيها أعضاء العروة الوثقى من التونسيين ، وتبادل الحديث معهم في شئون الإصلاح الديني والاجتماعي . وكان لزيارته أثر كبير ، وما إن سافر إلى بيروت حتى أخذت سلطات الاحتلال تنكرا بأنصاره ونخاسة السنوسي .

وقد تهدأ دعوات الإصلاح أحيانا لكي تتفادى العاصفة ، ثم لا تلبث أن تستأنف نشاطها ، وفي عام ١٨٩٦ أنشئت الجمعية الخلدونية على هدى من تعاليم الأستاذ الإمام ، لنشر العلوم العصرية باللغة العربية من جغرافيا وتاريخ واقتصاد ، وعلوم طبيعية ورياضية : وأقبل عليها طلاب الزيتونة وزغبوا في أن يمتد هذا التعليم إلى معيهم ، واستجاب المسئولون لذلك ، وأنجذت حركة الإصلاح تقوى وتشدد . متأسية بما كان يجري في مصر على أيدي محمد عبده وما كان ينشر في «مجلة المنار» وغذاها في أول هذا القرن شاب من طلبة الزيتونة والخلدونية ، غريب الشكل والنزعة والمنطق والقلم وهو عبد العزيز الثعالبي : عاش في مصر زمنا ، ثم عاد إلى تونس يردد أفكار جمال الدين ومحمد عبده ، ويدعو إلى فهم الدين والوجود : وفي هذا كله مادفع محمد عبده إلى أن يزور تونس مرة أخرى في عام ١٩٠٣ ، قبل وفاته بعامين ، واهتزت لزيارته أنذية العلم والأدب ، والتفت حوله

رجال الإصلاح ، ومن بينهم شاب في الرابعة والعشرين هو الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور والد الفقيد ، أطال الله بقاءه ، وكان من أبرز مدرسي الزيتونة ، شباباً وذكاء ، وعلمياً وأدبياً ، وعنده الأستاذ الإمام سفير دعوته في الزيتونة :

في هذا الجو نشأ الفاضل ابن عاشور ، وربى في بيت من بيوت شيوخ الإسلام ودعاة الإصلاح وكان طبيعياً أن يسير في ركب أبيه . وفي سن العشرين أخذ يتصل بحركات الإصلاح ، فانغمس في العمل بالجمعية الخيرية ، وارتبط بالجمعية الخلدونية ، وبدأ يحاضر فيها إلى جانب الشيوخ الكبار ، واتصل أيضاً بجمعية قدماء الصادقية ، وهي دعامة جديدة من دعائم الإصلاح في تونس ، ربي أعضاؤها على أساس من الثقافة الفرنسية ، ولكنهم مالبتوا أن مزجوها بالثقافة العربية ، وتلاقوا مع الخلدونيين في الدعوة إلى الإصلاح . ولقد كان الفاضل مؤمناً بالحضارة الإسلامية الإيمان كله يراها حضارة تعتد بالإنسان كل الاعتداد ، وتقوم على دعامة روحية دون أن تهمل شأن المادة ، وكان ملماً بالمأما دقيقاً بأسرارها ، ومتفتحاً لما في الحضارة الغربية من جوانب نافعة . وكان همه أن يلاثم بين هذين الطرفين وأن يبين أن تعاليم الإسلام لا تتعارض في شيء مع النهوض بالحاد والتقدم السليم ، نفذ إلى روح الإسلام ، وأدرك في وضوح رسالته الخالدة ، وأخذ ينشرها بلغة العصر ، فقرب المسافة بين القديم والحديث ، وربط الماضي بالحاضر ، وحبَّب إلى الشباب الذين رأوا في درسه ما تطمئن إليه قلوبهم ، وما تدعو إليه حاجة النهوض والتقدم :

أخذ بما ارتآه الأستاذ الإمام من أن النهوض الحق هو ما قام على دعائم ثقافية سليمة ، فعُدل مناهج الدراسة بكلية الشريعة وأصول الدين : وما إن تولى رئاسة الجمعية الخلدونية عام ١٩٤٥ ، حتى أنشأ بها معهد البحوث الإسلامية ، ونظم مؤتمر الثقافة الإسلامية عام ١٩٤٩ ، وكان مضرب المثل في درسه وبحثه ، في حديثه وكتابته ، لا تكاد تعرض مشكلة من مشاكل الحضارة إلا واجهها مواجهة تامة ، وقدم لها الحلول السليمة ، وجهد ما وسعه في أن يوفق بين تعاليم الدين ومقتضيات الفكر الحديث : وكان يرى أن الثقافة الإسلامية إن فهمت على وجهها لم يبق محل للاختلاف عليها ، وهي خير وسيلة لجمع كلمة المسلمين وضم شملهم ، وقد أنفق جهداً غير قليل في الدعوة إلى الإخاء والوحدة : وحدة المغرب الكبير ، ووحدة العالم العربي ، بل وحدة المسلمين عامة :

\*\*\*

هذا هو الفاضل ابن عاشور الإنسان الذي أسر القلوب بإنسانيته ، والمسلم الصادق الذي وقف حياته على خدمة الدين ونصرته ، والفقير الضليع في فقهه ، واللغوي الحجة في لغته . فقدناه ، وفقدنا مرشداً حكيماً ، عرف كيف يجذب الناس في دعوته : فقدناه ، وفقدنا طرازاً من دعاة النهوض والتجديد الذين ليس من اليسير أن نجد من يخلفهم أو يحل محلهم . بكته تونس ، وبكته معها مصر أحر البكاء ، وبكاه كل من عرفه من أبناء العروبة والإسلام . تغمدته الله برحمته وأسكنه إفسيح جناته ، وألهمنا وآله الصبر والسلوان .

## ١٤ - طه حسين مكافحا ( ديسمبر ١٩٧٣ )

هناك أناس خلقوا للكفاح ، يستعذبونه ويستطيّبون كل شئ في سبيله . يرون فيه أداء للواجب وإرضاء للضمير ، وسبيلا ناجعا للنهوض والإصلاح ، ويضربون فيه مثلا للجرأة والشجاعة : « طه حسين » مكافح مناضل ، تلك ظاهرة ملحوظة في حياته كلها ، كافح في صباه وشبابه ، كما كافح في كهولته وشيخوخته ، وبرغم مرضه في سنيه الأخيرة بقي قوله وفكره يحملان شارة الكفاح والنضال . كافح وناضل في ميدان العلم والتعليم ، في ميدان الأدب واللغة ، في ميدان الوطنية والسياسة . وكلفه كفاحه ما كلفه من عنت ومشقة ، وجلب عليه ما جلب من خصومة وعداء ولا يخلو الكفاح أحيانا من غلو وشطط . وكان يرى أن الرجل ليس رجلا إذا استقامت له الحياة كلها ، فلم يكن له فيها خصم ، إنما الرجل كل الرجل هو الذي تستقيم له حياته كما يريد هو أن تكون وكما يريد ضميره القوى النقي أن تكون ، وكما يريد عقله الذكي أن تكون .

ويطول بنا الحديث إن وقفنا عند جوانب كفاحه المختلفة ، ويكفي أن نعرض نماذج منها . كافح في صباه بعد أن فقد بصره ، وكأنما شاء أن يعوض ما حرمته الطبيعة منه ، فحفظ القرآن كله ولما يبلغ العاشرة . واستمر يكافح ليتزود علميا وثقافيا بأكل زاد ، ويتسلح بأجود الأسلحة ، فالتحق بالأزهر وهو في حدود الثالثة عشرة من عمره وتلمذ على كبار الشيوخ حين ذلك أمثال الشيخ بخيت ، ومحمد العدوي ، ومصطفى المراغى ، وسيد المرصفي ، ولم يفته أن يستمع إلى آخر درسين ألقاهما الأستاذ الإمام في الرواق العباسي . وكان يتابع دروسه صباحا ومساء ، لا يكل عملا ولا يدخر وسعا ، وقد عرف بين شيوخه بالجد والتحصيل ، وقوة الحجّة والخلق في الحوار والجدل ، وانتهى به جدله أن طرده شيخ الأزهر مع زميلين له ، ولم يعد إلى درسه إلا بعد أن شفع له لطفى السيد الذي رحب به في « الجريدة » وشجعه ، وأخذ على عاتقه رعايته وتوجيهه .

وما أن فتحت الجامعة المصرية القديمة حتى طرق بابها ، وتابع دروس كبار أساتذتها ، فاستمع لأحمد زكي ( باشا ) ، وأحمد كمال ( باشا ) ، وإسماعيل رأفت ( بك ) ، ومحمد الحضري ، ومحمد المهدي بن المصريين ، ولخويدي ولتمان ، وسانتلانا من الأوربيين ولم ينقطع مع هذا عن الدروس الأزهرية ، وكان يستصحب أحيانا أستاذه وصديقه « سانتلانا » إلى درس الشيخ سليم البشري في التفسير ، ودفعه ولوعه بالجدل إلى أن يناقش بحضور الضيف الأجنبي الشيخ البشري في مشكلة الجبر والاختيار ، وكان له أيضا حوار وجدل مع بعض أساتذته في الجامعة ، وأثار غضب الشيخ محمد المهدي الذي رفع أمره إلى مجلس الجامعة ، وطالب بفصله ودفعته دراسته الجامعية إلى تعلم اللغة الفرنسية ، ولقى فيها عتبا كبيرا ولكنه لم يجتودها إلا أثناء مقامه في فرنسا وختم مطافه في هذه الجامعة بتقديم رسالة « في ذكرى أبي العلاء » للحصول على الدكتوراه ،

وثالثها بتقدير «جيد جداً» ، وكان يمكن أن يحصل على تقدير «فائق» لولا حفيظة الشيخ المهدى الذى لم ينس حملات تلميذه السابقة ، وما أن نشرت هذه الرسالة حتى أثارت ضجة ، واتهم صاحبها بالإلحاد والزندقة ووجه سؤال إلى الجمعية التشريعية يطالب بحرماته من حقوقه الجامعية ولو لم يتدخل سعد زغلول : وكان رئيس الجمعية التشريعية حين ذلك ، لطفى على مستقبل الشاب ، النابه الجري .

ولم يقف طه جستان عند هذه الغاية ، بل تابع الكفاح وواصل الدرس والبحث فأوفدته جامعته إلى فرنسا فى أواخر عام ١٩١٤ تحت نيران الحرب العالمية الأولى وقضى فى مؤبليه نحو عام ثم اضطر للعودة إلى القاهرة بسبب ضائقة مالية ألت بالجامعة المؤقتة ولكنه لم يلبث أن سعاد إلى فرنسا بعد شهرين ، واستأنف درسه هذه المرة فى باريس نفسها واتصل بكبار أساتذة «الهربون» فى الاجتماع والتاريخ أمثال «دوركاي» ، «ولفى بريل» ، «وسينيوبوس» وأولع بالحضارة اليونانية والرومانية ، وبدأ فى دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية وتمكن من الأخيرة بوجه خاص ، واستطاع أن يدرك فى يسر نصوصها ويستخرج منها مدلولاتها وتزود بزيادة وفير من الأدب الفرنسى وفى عامين اثنين حصل على الليسانس فى الآداب وبعد ذلك بنحو عام أو يزيد تقديم برسالته فى «ابن خلدون» للحصول على الدكتوراه من جامعة باريس فتوافقه له بذلك درجتان فى الدكتوراه ، إحداهما من القاهرة والأخرى من باريس ولم يبق إلا أن يعود إلى وطنه ليؤدى رسالته .

وقد عاد إلى مصر فى أواخر عام ١٩٢٩ وسنه ثلاثين سنة بعد أن اكتمل بضججه العلمى والفكرى وبدأ اتصالاً طويلاً واسع المدى متعدد الألوان عمر نحو أربعين سنة ، وعول فيه بخاصة على بحر الكلمة ، وشيطان العقل ، وبداية المنطق . كافح داخل الدرس وخارجه ، فلم يستهن بدرس ألقاه ، بل كان يحفل له بما وسعه ، ويعده أكمل إعداد ، ولا يظنه ألقى درساً يوماً دون إعداد . ولم يتهاون مع واحد من تلاميذه ، أخذهم جميعاً بالجد ، وحاسبهم على أعمالهم فى غير هواية وتخرج منهم على يديه جيل اعتمدت عليه حياتنا الجامعية والثقافية ، وكان لمحاضراته العامة عجب هوى كبير يرقبها ، ويقبل عليها فى حماس . أخذ مستمعوه بأسلوبه ، وفتنوا بنعمة صوته وحاكوه فى كثير من التعبيرات ، وكان لهذه المحاضرات صدى كبير لدى الخاصة والعامة ، وفى عام ١٩٢٦ أخرج كتاب «الشعر الجاهلي» الذى لم يكن شيئاً آخر سوى سلسلة من المحاضرات ألقاها بكلية الآداب ، وما إن ظهر هذا الكتاب حتى أثار حملة شعواء اختلط فيها الأدب بالسياسة فعارضة من عارضه على أعمدة الصحف . ووضعت حداً كتب للرد عليه ومناقضته ، وقدم استجواب إلى مجلس النواب يرمى إلى محاكمة مؤلفه وطرده من الجامعة ولولا معارضة «عدلى يكن» رئيس الوزراء وهو من نعرف فى شخصه ومنزلته لكان لهذا الاستجواب شأن

آخر. ولم تكذب تسكن العاصفة في البرلمان حتى هبت في النيابة العامة، فحقق مع المؤلف وبحث أقواله وآراؤه ولا يبدو أنه وجد فيها ما يدينه واكتفى بمنع تداول كتابه في الأسواق وبرهن طه حسين في ذلك كله على صلابته ورباطة جأش بالغتين وخاض معارك في جبهات ولم يمسسه منها شيء يذكر، بيد أنه لم تكذب تمر هذه الأزمة حتى تلتهأ أزمة أخرى في الجامعة كانت أشد عنفاً فعورض في تعيينه عميداً لكلية الآداب وأجل إلى حين، ويوم أن عين استمسك باستقلال الجامعة ودافع عنه بكل قواه، ولكن دكتاتورية «إسماعيل صدقي» لم تتردد في أن تعدو على هذا الاستقلال، فأبعدته عن عمله، وأحالة على المعاش :

وكأن طه حسين أيضاً في ميدان الصحافة، وصلته بها قديمة العهد، ترجع إلى أوائل هذا القرن. نشى فيها على أيدي رائدين عظيمين هما : عبد العزيز جوايش ولطفي السيد، فجمع بين التطرف والاعتدال، ولعله كان إلى التطرف أميل، وقد كتب أول ما كتب في «مجلة الهداية» بتوجيه من «عبد العزيز جوايش» الذي وكل إليه أمرها. وشجعه على ما اتفق إليه نفسه من نقد جريء وجدل عنيف. واضطر رائده هذا إلى أن يهجر مصر على غير انتظار، فلجأ إلى رائده الثاني وأفاد منه كثيراً. وألحق أن الحرية على قصر عمرها كانت مدرسة كبرى تخرج فيها طائفة من أعلام الفكر والقلم، وكان لها أثر عظيم في حياتنا السياسية والاجتماعية والأدبية والثقافية، ونعتقد أنه لم يكشف بعد تماماً عن أثرها في اللغة وأسلوب الكتابة المعاصر، فقد أتمت ما بدأه «رفاعة الطهطاوي» و«محمد عبده» من التخلص من السجع والجناس والمحسنات اللفظية، وتخرج فيها طه، وهيكمل، وعزبي، ومنصور فهمي، والزيات، الذين كانوا قدوة في الأداء الفني السائغ السهل. وقد أخذ على طه حسين شيء من التكرار وبالغ في ذلك خصوصاً ومنافسوه، ولو كان في وسعه أن يكتب لتفادي منه الكثير، على أن هذه هنة هينة إلى جانب سلاسة أسلوبه وعدوبته، ولعله تأثر في هذه السلاسة بشيء من الأدب الفرنسي، ولكن أسلوبه من أصنى الأساليب العربية المعاصرة، ولا يحمل أي طابع أجنبي، وهو أقرب ما يكون إلى أسلوب كبار كتاب الصدر الأول، أمثال «عبد الحميد»، و«ابن المقفع»، و«الحافظ».

وبعد أن رجع فقيدنا من أوروبا عاد إلى شرقه القديم، واتصل بصحيفة «السياسة»، وهي إلى حد ما امتداد «للجريدة» وأسرتهما واحدة تقريباً، وفيها التقى «طه حسين» بزميله القديم «هيكمل» واشترك معه في إدارة الصحيفة، وناب عنه أحياناً في رئاسة تحريرها. وكان له في «السياسة الأسبوعية» مجال فسيح، وكم كان قراؤه ينتظرون في شغف «حديث الأربعاء» الذي فتح أبواباً ثقافية متعددة، وقاد حركة نقدية نحية شديدة، وكم نود أن نحيبها. وإذا كان طه حسين قد كتب في «الجريدة»، و«السياسة» هلوياً، فإنه بعد إحالة على المعاش أصبح محترفاً، وطلب إليه الوجد عام ١٩٣٣ أن يرأس تحرير صحيفة «كوكب الشرق»، وأصبح يؤيد حزبا سياسيا طامحا

نحاربه في عنف . غير أن تعاونه مع «حافظ عوض» ، صاحب امتياز هذه الصحيفة لم يدم طويلاً واضطر أن ينفصل عنه ، وأن يشتري «صحيفة الوادي» ، وأن يديرها لحسابه الخاص نحو عام ، وكبدته خسائر فادحة . ثم قنع بعد هذا بمواصلة الكتابة للصحف هاوياً مرة أخرى في بحوث ودراسات أدبية ، وربما كانت له علاقة منتظمة ببعضها «كالجمهورية» و «الأهرام» في العشرينات الأخيرة .

وكافح طه حسين أخيراً في ميدان السياسة ، وما أقساه من ميدان ! ورحم الله الأستاذ الإمام الذي قال فيه قولته المشهورة ولا أظن أن فقيدنا كان مذهبياً متحزباً تحزب التبعية والانقياد فيما أخذ به من اتجاهات سياسية ، وإنما هي تيارات ، أو عبارة أدق صداقات جاراها يميناً تارة ويساراً تارة أخرى ، وما كان أشد تأثيره بهذه الصداقات ، وما كان أسرع استجابته لها . وقد نال من هذه التيارات ما نال من صعود وهبوط ، وتقدير واستنكار ، وحظى بالغضب والرضا السامى في لحظات متباعدة أو متلاحقة . وكان شأنه في البداية شأن كل مواطن مستنير عاش في جو الثورة العربية وأدرك حركة «مصطفى كامل» ، فهو ينكر الاحتلال البريطاني ، ويطالب بالاستقلال .

وفي اتصال فقيدنا «بعبد العزيز جوايش» و «لطفى السيد» ما اجتذبه نحو السياسة ، كما اجتذبه نحو الصحافة ، على أن لا نلاحظ له في الحقيقة نشاطاً سياسياً واضحاً طوال مرحلة الدراسة والطلب ، لا في مصر ولا في فرنسا . ولم يبد هذا النشاط إلا يوم أن انضم إلى صحيفة «السياسة» ، واندمج مع أصدقائه الأحرار الدستوريين ، وحسب معهم . وانتهى به عمله الصحفي إلى الدخول في مهاترات حزبية ما كان أغناه عنها ، وأثارها شعواء ضد الوفد والوفديين ولم يعف سعد زغلول من حملته برغم ما كان له من أياد عليه . ونتساءل هل اشترك فعلاً في التنظيم الداخلى لحزب الأحرار ؟ وهل عد من أعضائه ؟ أغلب الظن أنه كان مجرد صديق ومناضل خطير ناصر الحزب مناصرة كبيرة . ولم يختلف عن ذلك كثير أيوم أن انضم إلى صفوف الوفديين ، وخمل رأيهم ، ودافع عن مواقفهم وأصبح أحد وزراءهم . وود كثير من أصدقائه أن لو عاش للأدب والثقافة وحدهما : وقد وصل فهما إلى القمة وأحرز مجداً يزيد على مجده كثير من السياسيين وودوا بخاصة أن لو لم يغفل في المضمار السياسى ذلك الغلو الذى أساء أحياناً إلى مقامه فى الأدب وبين الأدباء .

وفى عام ١٩٤٠ دخل طه حسين مجمع اللغة العربية فى زمرة كريمة من قادة الفكر والرأى ، نذكر من بينهم «لطفى السيد» و «عبد العزيز فهمى» ، «والشيخ المراغى» ، «وهيكل» ، «ومصطفى عبد الرازق» : دخله وقد تجاوز الخمسين ، وحق له أن يركن إلى شئ من الهدوء والراحة : ولكن أنى له وسجيته الكفاح والنضال . وهكذا نراه يعنى بالتنسيق والتنظيم ، ويسهم فى كثير من اللجان . ويحاول جهده أن ينهض بالعربية لتلائم حاجات العلم ومتطلبات الحضارة ، ويدخل مع زملائه فى جدل محكم وحوار ممتع : اشترك على أثر دخوله فى مكتب المجمع الذى عهد إليه بتعديل اللائحة الداخلية : وكان همه أن يبرز فيها شخصية المجمع ، ويؤكد استقلاله : وكم طالب بأن تكون له مطبعة خاصة : واقترح أن تضم إليه مطبعة دار الكتب بقسمها الأدبى ولا يزال المجمع يعانى من شئون الطبع ما يعانى إلى اليوم : وأراد «لمعجم ألفاظ القرآن» أن يقوم على

أساس من المنهج التاريخي ، وأن يسلك به ماسلك في كتب العهد القديم ، وكان له في ذلك حوار متصل مع الشيخ المراغي . ولا نزال نذكر ما كان بينه وبين زميله « عباس العقاد » من محاورات كانت تبث في جلساتها نشاطا وحيوية ، وإذاحي وطيسها تدخل فيها « لطفى السيد » فهدأت وسكنت .

وتحمس طه حسين لتيسير النحو تحمسا شديدا ، ورحب بالمشروع الذي بعثت به وزارة المعارف إلى المجمع ، ورغب في أن يوضع له كتاب يوضحه ويطبقه ، وأعلن أنه مستعد أن يتولى بنفسه وضعه . ويوم أن يثس المجمع من إخراج معجم « فيشر » التاريخي ، اتجه نحوه فكرة وضع معجم كبير ، وأبى طه المكافح إلا أن يضطلع بعبد التنفيذ . وهذه مهمة عشت معه فيها ، وزاملته في تنفيذها . وأشهد أنه بدأ أولا في رسم منهج هذا المعجم ، وقضى عدة سنوات يتابع إعداد قدر من مواد ، ويراجعها في أناة وروية . واستطاع أن يخرج منها نموذجا في نحو ٥٠٠ صفحة ، وقد دفع به المجمع إلى الباحثين والمتخصصين ، راجيا أن يوافوه بما يعينهم من ملاحظات وتعليقات وكان هذا النموذج أساسا سار عليه المجمع في إخراج معجمه الكبير . تلك أمثلة من جهوده المتصلة في مجمع الخالدين ، وقد كنا نحس جميعا أنه بماضيه الحافل ركن ركين من أركان المجمع ، وأن رسالة وثيقة الصلة برسائله . ولقد كانت رحلته فيه خصبية طويلة ، بلغت ٣٣ عاما ، وهي أطول رحلة لمصري من الخالدين .

هذا هو كفاح طه حسين ، ولا أظنني أغلو في شيء إن قلت إن حياته كانت كفاحا كلها ، كفاح في الإعداد والتكوين ، وكفاح في البذل والعطاء ، كفاح في الأزهر ، والجامعة المصرية القديمة ، والسربون ، وتلاه كفاح آخر دام نحو خمسين سنة ، تعددت ألوانه وتنوعت سبله ، فشمّل الصحافة والسياسة ، والأدب واللغة ، والعلم والتعليم ، والجامعات الجديدة ، ووزارة المعارف . لحا فيه أحيانا إلى قارعة أو قبلة يلقيها فيز المشاعر ويستلقت الأنظار ، ولا شك في أن كتاب « الشعر الجاهلي » من أولى هذه القنابل ، ثم جاءت مجانية التعليم الابتدائي والثانوي في خاتمة المطاف وقد يكون من كفاحه ما ذهب مع الريح ، ولكن منه قدرا باقيا على الزمن . فهو دون نزاع من الأصوات القوية التي جهرت ، منذ أول العشرينيات الثانية من هذا القرن ، بضرورة فك الأغلال وتحطيم القيود الفكرية ، اعتد بحرية الرأي وتحكيم العقل ، استنكر التسليم المطلق ، ودعا إلى البحث والتحرر ، بل إلى الشك والمعارضة ، وأدخل المنهج النقدي في ميادين لم يكن مسلما من قبل أن يطبق فيها . استن في الكتابة والتعبير لونا عذبا من الأداء الفني حاكاه فيه كثير من الكتاب ، واضحي عميد الأدب غير منازع في العالم العربي جميعه .

وشاء القدر أن يختم حياته بكفاح مرير ، فبلى بيلة طويلة تحملها بصبر الصابرين وجلد المجاهدين سيداتي ، سادتي :

ليس على طول الحياة ندم ومن وراء المرء ما يعلم  
يموت والد ويخلف مو لود وكل ذي أب يتم  
نحمد الله فقيدنا برحمته ، وجزاه عما قدم لأمته ولغته خير الجزاء .

## ١٥ - طه حسين المجمعى

قضى طه حسين فى مجمع الخالدين ثلث قرن تقريباً كانلى حظ مصاحبته فى معظمه، دخله فى نوفمبر من عام ١٩٤٠ ، وبقي به إلى أن لقي ربه فى نوفمبر من عام ١٩٧٣ . دخله فى زمرة من كبار الخالدين ، هم : لطفى السيد ، وعبد العزيز فهمى ، ومصطفى المراغى ، ومصطفى عبد الرازق وهىكل ، وعلى إبراهيم ، والعقاد ، وأحمد أمين ، وعبد القادر حمزة ، عشرة كاملة يعدون حقاً فى مقدمة البناء والمشيدىن ، دخله ولما يمض على إنشائه بضعة سنوات ، فلم يكن قد استقر له عرف ولا اتضح له تقليد وشاء مع هذا الجمع الكرىم أن يدعم أسسه ، وأن يعيد النظر فى خطة عمله . فوضعت له لائحة داخلية جديدة تعتبر نبراساً لما نسير عليه حتى اليوم ، وكونت لجانة المتخصصة . وأثيرت طائفة من المشاكل الكبرى التى تتصل بمتن اللغة ، ونحوها ، وتيسير كتابتها ، ورسم حروفها وبعثت فى الجمع حركة تحاول أن تنهض فى غير طفرة ، وأن تجدد دون عدوان على أصول اللغة . ولا شك فى أن هذه المرحلة فى تاريخ مجمعنا تعد بداية نهوض ملحوظ ، وفاتحة عصر ذهبي أسهم فيه طه حسين بعقله وقلبه ، بلسانه وقلمه ، بإيمانه وحماسة ، بحميتة ونشاطه .

ولقد كان على بيئة من نظم الهيئات والجامع العلمية واللغوية الكبرى؛ يسترشد بها ، ويأخذ عنها ، وكثيراً ما نوه مع أستاذه لطفى السيد بالأكاديمية الفرنسية وما استقر لها من نظم وتقاليد . وكان جامعياً حقاً يؤمن بالبحث والدرس ، ويعول على التخصص ، ويعتد بالمختصين . فربط المجمع بالجامعيين ، عزز الاستعانة بالأساتذة والخبراء . وأيد ما وسعه استقلال المجمع مالياً وإدارياً ، وقد كان يوم أن دخله مجرد فرع من فروع وزارة المعارف يتبعها فى ميزانيته وموظفيه ، ولم يلبث أن أصبح هيئة مستقلة فى شئونها المالية والإدارية ، ولرئيسه فى ذلك سلطة الوزير . وفى مناسبتين متلاحقتين شاء أن يكون للمجمع مطبعة خاصة يشرف عليها وتضطلع بمطبوعاته ، وعرض عليه فعلاً مطبعة دار الكتب مرة ، ومطبعة الكاتب المصرى مرة أخرى ، ولو أخذ مجمعنا بهذا العرض الكرىم لتفادى كثيراً من صعوبات الطبع والنشر التى تصادفنا كل عام . وأملنا كبير فى أن تتوفر للمجمع مطبعة حديثة ملائمة فى مبناه الجديد ، وكم كان فقيدنا الكرىم شغوفاً بأن يرى هذا المبنى الذى دعا إليه غير مرة ، ورأى فيه ما يحقق لمجمع الخالدين مظهراً من مظاهر مكوناته ؛

وطبق طه حسين لأول مرة سُنَّة استقبال المجمعين الجدد خير تطبيق. وتقضى هذه السنة بأن تعقد جلسة علنية يضطلع بها اثنان على الأقل : عضو قديم يستقبل باسم المجمع زميله الجديد ، ويتولى هذا الزميل الحديث عن العضو الراحل الذى حل محله ، وفى ثنايا الحديثين أدب وحكمة ، وعلم وفلسفة . ولطه حسين كلمات استقبال خالدة ، أولاهها تلك التى استقبل بها صديقه عبد الحميد بدوى وقد انهشت من القلب ، فنفذت إلى نفوس السامعين جميعاً . وثلتها كلمات أخرى ليست أقل روعة فى

استقبال تيمور ، وتوفيق دياب ، والأستاذ توفيق الحكيم ، وفضيلة الشيخ الباقورى . والحق أن هذه الكلمات قطع من الأدب الرفيع ، ولوحات أخاذة تصور أصحابها تصويراً دقيقاً ، وتكشف عن بعض الأعلام في حياتنا الحاضرة . وما أجدرها أن تنشر بين الناس ، وأن ينعم بقراءتها الطلاب والدارسون ،

والخالدون دائماً بين استقبال ووداع ، « سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً » . وبقدر ما يحفلون باستقبال الوافدين ، يحرصون على أداء واجبهم نحو الراحلين . وقد اضطلع طه حسين بتوديع أربعة من الخالدين هم على التوالي : عبد العزيز فهمي ، وهيك ، وعبد الوهاب عزام ، ولطفى السيد . عاشرهم جميعاً ، وعرفهم عن قرب ، فكان أقدر المجمعين على الوفاء بحقهم . وكانوا فوق هذا من أحب الناس إليه . وأقربهم إلى قلبه . ولنا لنحس في تأبينه لهيكل بحرقه الصديق ، وهو يتأسى بقول الشاعر .

لا يلبث الترناء أن يتفرقوا ليل يكر عليهم ونهار

وفي تأبينه للطفى السيد ، وكان منه بمثابة الابن من أبيه يتأسى بقول آخر :

ليس على طول الحياة ندم ومن وراء المرء مسا يعلم  
يموت والد ويخلف مولو دوكل ذى أب يتيم

\* \* \*

ويوم أن ذكر المجمع في الاتصال بجمهور المثقفين ، نظم سلسلة من المحاضرات العامة دعا إليها طائفة من العلماء والأدباء وأساتذة الجامعات ، وفتح فيها باب التعليق والتعقيب . وكان طبعياً أن يفتتح طه حسين هذه السلسلة ، وتخبر حديثه « مشكلة الإعراب » ، وهي مشكلة شكها منها قديماً بعض الخلفاء والأمراء ، بله العامة والاهتمام . وأشهد أن طه ، وقد سمعته كثيراً محدثاً ومحاضراً ، لم يقع في لحن قط ، وإن لجأ إلى التذكير أحياناً . ولكنه سبق الاشتراكين جميعاً في الدعوة إلى مجانية التعليم ونشر الثقافة الشعبية ، وكان يشفق على النشء وشباب المتعلمين من فلسفة النحر وصعوباته ، وكثيراً ما دعا إلى تبسيطه . وقد استجابت وزارة المعارف لهذه الدعوة ، ورغبت في تذليل هذه الصعاب وفي عام ١٩٣٠ شَكَاتَ لذلك لجنة كان طه حسين أحد أعضائها ، وانتهت إلى طائفة من القرارات التي لا تمس أصلاً من أصول اللغة . وحرصت الوزارة على نشرها بين العلماء والمتخصصين ولم تخل من نقد وملاحظة . وبعد عشر سنوات أو يزيد ، أحيلت على مجمع اللغة العربية الذي عني بها عناية خاصة . فدرست طريلاً في لجنة الأصول ، ووقف عليها مؤتمر الدورة الحادية عشرة ثماني جلسات ملئت بالأخذ والرد ، والتحليل والتعليل ، وأبلى طه حسين في شرحها وتوضيحها بلاء

خسناً ، ثم أقرها المؤتمر في تعديل يسير . ودون أن أدخل في تفاصيل هذه القرارات ، أود أن ألاحظ أنه ليس من بينها ما يؤدي إلى تغيير جوهري في أصول اللغة ، بل هي مجرد محاولة للتخفيف والتيسير ، وتنصب أساساً على تحديد ما ينبغي تقديمه لصغار الناشئين . ودعا المجمع إلى وضع كتب مدرسية على أساسها تحت إشرافه ، وأعلن طه حسين ، وهو المؤمن دائماً بما يدعو إليه ، أنه مستعد للاشتراك في هذا التأليف . ومع هذا أهمل الموضوع مرة أخرى ، وبقي في طي النسيان نحو ١٥ سنة . ولم يحرك إلا عام ٦١ دون علم المجمع أو عرض الكتب المدرسية عليه . وكم صارخى طه ، رحمه الله ، أنه يخشى فشل التجربة ، لأنه لم يعد لها الأعداد اللازمة ، وهذا ما حدث فعلاً .

سيداتي ، سادتي :

هذا موقف من مواقف طه حسين الإصلاحية والمجمعية إزاء أمر آمن به ودعا إليه ، وله مواقف أخرى لا يتسع المقام لسردها ، ويكفي أن أشير إلى اثنين منها . ويتصل أولهما بالمصطلح العلمي ، وللمجمع فيه جهد عظيم ومتصل . وقد حاول الجمعيون في البداية أن يضعوا بأنفسهم مصطلحات للحقائق العلمية المختلفة ، وربما لجأوا إلى بعض الألفاظ الغريبة والمهملة ، دون اعتداد باستعمال المتخصصين وما اصطلاحوا عليه . وهذا ما أنكره طه حسين ، ودعا إلى البحث أولاً عن استعمال أهل الفن والصناعة ، وللعلم لغة يعرفها أهله ، وواجب المجمع أن يستمع إليهم ، وأن يصدر عنهم ما دامت استعمالهم لا تتعارض مع أصول اللغة ، بل عليه أن ييسر مهمتهم وأن يفسح صدره لاجتهادهم . ولا بأس من التعريب إن دعت إليه ضرورة ، وبخاصة تلك الألفاظ التي ترجع إلى أصل لاتيني أو يوناني احتفظت به اللغات العالمية الكبرى ، والعلم لا وطن له . وهذا ما يسير عليه المجمع اليوم ، ومن الخطأ أن يظن أنه مصنع ألفاظ أو دار لوضع مصطلحات .

وكان طه حسين كبير الرجاء في أن ينجز المستشرق الألماني فيشر مهمته ، وأن يخرج « المعجم التاريخي » الذي تعاقد مع المجمع عليه . ولكن مع الأسف حالت الحرب العالمية الثانية دونه ومتابعة السير ، وعاجلته المنية بعد أن وضعت هذه الحرب أوزارها بقليل . فلم يكن بد من أن يتولى المجمع الأمر بنفسه ، وأن يعد له عدته ، ورأى أن يستبدل « بالمعجم التاريخي » ما سماه « المعجم الكبير » وألف له لجنة خاصة حرص طه حسين على أن يكون مقررها . وقد زاملته فيها ، ووقفت على ما أنفق في سبيل المعجم الكبير من وقت وجهد ، ولم تصرفه الوزارة يوم أن اضطلع بأعبائها عن متابعة تأليفه ، وفي عام ٥٦ استطاع أن ينشر منه جزءاً في نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير عده مجرد تجربة دعا المتخصصين في اللغة من عرب ومستعربين إلى قراءتها ، وتسجيل ما يمكن أن يلاحظوه عليها . وقد رسمت هذه التجربة المنهج ، وحددت الغاية ، وكانت الدعامة الأولى لهذا المؤلف الطويل النفس . ولولا المرض لتابع طه حسين السير ، واستمر في تحمل هذا العبء الثقيل .

• • •

تلكم نماذج من ثمار طه حسين الجمعي ، وسيتبقى ذكره دائماً بين الخالدين .

## ١٦ - مع طه حسين

عشت معه زمنا غير قصير ، وإن لم أكن قد لقيته بعد ، يوم أن قامت معركة الشعر الجاهلي ، ويا لها من معركة ! فقد كانت حامية الوطيس ، اشتبكت فيها جهات مختلفة ، وأثبت طوائف متعددة ، وهي ولا شك حدث هام من أحداثنا الثقافية في بدء العشرينيات من هذا القرن . لم تقف عند الخاصة ، بل امتدت إلى العامة ، وكانت مثار حديث في المجالس والأندية . وبلغت فيها الخصومة أشدها ، والحملة أقصاها ، إلى حد أن رمى صاحب الشعر الجاهلي بالخررج على الأدب واللغة ، بل على الدين . وإمعانا في النكاية أثير موضوعه في مجالسنا النيابية الناشئة ، وأريد أن يحاسب المسيء على إساءته ، وقبض الله للموقف حين ذاك وزيرا للمعارف انتصر لحرية الرأي أولا ، وترك للمتهم البرئ أن يدافع عن نفسه بلسانه وقلمه . وقد فعل ، وخلف لنا في هذه القضية صحائف فيها أدب رفيع ، وحجة بالغة ، وجدل مفحم . وشاءت الأقدار أن يصبح خصم الأدب واللغة عميدا للأدب في العالم العربي جميعه ، ووزيرا للمعارف ، ورئيسا لجمع اللغة العربية . ويوم أن انتقل إلى جوار ربه عند بطلا شعبيا ، وسارت الأمة كلها وراء نعشه ، وخطر ببالي وأنا سائر في جنازته ذلك التباين التام بين الأمس واليوم ، « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

والتقيت به لأول مرة في مؤتمر المستشرقين الذي عقد بهولندا عام ١٩٣٢ ، وكنت لا أزال طالبا بجامعة باريس . ورغبت في أن أشهد هذا المؤتمر الذي شدد له مصر الرحال ، وأوفدت إليه جمعا كريما من رجال العلم والأدب ، وعلى رأسهم سفيرنا في إنجلترا وهولندا ، ولا أظننا حفلنا قط بمؤتمر المستشرقين مثما صنعنا تلك المرة ، وما ذاك إلا لأننا كنا نحمل إليه اقتراح « حروف التاج » التي عني بها الملك فؤاد عناية خاصة . وكانت مظاهرة استلفتت نظر علماء الاستشراق على اختلافهم ، ولكن لم يعد صدها تلك اللحظات التي عرض فيها هذا الاقتراح . ومشكلة الكتابة العربية أوسع بكثير من « حروف التاج » ، وأشهد أن حديثي مع طه حسين لم يدر حولها مطلقا ، ولا أظنه كان مؤمنا بها . والذي تحدثنا فيه بخاصة هو ربط الثقافة الفرنسية بالثقافة العربية ، وشعرنا بحاجتنا الماسة إلى شباب يجيد العربية والفرنسية معا ، كي يتم التبادل على وجه أكمل . وإذا كنا قد شعرنا بذلك في أول العقد الرابع من هذا القرن ، فلما نحس اليوم أننا لم نخط خطوات تذكر في هذه السبيل ، بل بالعكس نحن في ضعف زائد ومستمر .

وما أن عدت من بعثتي عام ١٩٣٥ حتى دعيت للتدريس بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، والتقيت بطه حسين للمرة الثانية ، وبقيت على اتصال به منذ ذلك التاريخ . وإذا كانت عضوية مجلس الشيوخ قد شغلتنى خمس عشرة سنة فيما بين عامي ٣٧ ، ٥٢ ، فلما لم تصرفني عن الحياة الجامعية

بحال : وأعتقد أن العقد الرابع من هذا القرن كان من أزهى عصور جامعة القاهرة ، تؤكد فيه استقلالها ، واستقرت شيئا فشيئا تقاليدها . وكانت كلية الآداب بوجه خاص رائدة في وضع هذه التقاليد ، ورمزا حيا لهذا الاستقلال . وقد أبلى في هذا طه حسين بلاء حسنا ، وناصره أستاذه وراعيه منذ البداية لطفى السيد مدير الجامعة . ورغب رغبة أكيدة في أن تكون آداب القاهرة ، وهو أول عميد مصري لها . على غرار كليات الآداب في الدول العظمى ، فإلى جانب اللغات الحية استمسك باللغات القديمة : شرقية كانت أو غربية ، كالسريانية والعبرية ، واليونانية واللاتينية ، واستعان على ذلك بالمتخصصين من الأجانب ، وأعد العدة للمستقبل بمن أوفدهم إلى الخارج من شباب الجامعيين لتمكن من هذه اللغات : ولاحظ أن المدرسة الثانوية القديمة لا تفي بحاجات النهوض والتقدم ، وليس في خططها ولا برامجها ما يمكنها من الإعداد للتعليم الجامعي ، وفكر في أن تكون للجامعة مدارس خاصة تعد لها ، ولعل هذا هو الذى دفع إلى إصلاح التعليم الثانوى الذى تقرر عام ١٩٣٥ :

وكان مؤمنا الإيمان كله بأن العلم لا وطن له ، وأن الثقافة الإسلامية إبان نهضتها قامت على الأخذ والعطاء في غير ما تحيز ولا تحزب ، « والحكمة ضالة المؤمن ياتقها أتى وجدها » : ولذلك سعى سعيا حثيثا في أن يوفد إلى الخارج من أبناء كلية الآداب أكبر عدد ممكن ، لكى ينهلوا من حياض العلم والمعرفة : ولا شك في أن هذا الرعيل من أبنائه وتلاميذه هو الذى تابع السير وحمل الأمانة إن في الجامعة أو خارجها : وكم كان يعتز بمبعوثيه ويتودد إليهم ، ويحرص على أن يقامهم إن مر بالبلد الذى يعيشون فيه : وما نشكو منه اليوم من فقر أو نقص في التخصصات المختلفة ، إنما يرجع إلى أننا لم نلتزم هذه السياسة ، ولم نتابع السير في هذا الطريق ، برغم توسعنا في التعليم الجامعي : ذلك التوسع الذى يتطلب عدة أقوى وسلاحا أمضى : ورحم الله لطفى السيد الذى كان يقول : نحن في حاجة ماسة إلى قيادات حازمة حكيمة ، والجامعة هى المكان الوحيد لإعداد هذه القيادات :

ولم يقنع طه حسين بمن أوفد من بعوث ، بل حرص على أن تحظى كليته بكبار المتخصصين الأجانب في الدراسات الإنسانية على اختلافها : فدعا نفرا من الفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع ، ومن الأدباء وأساتذة اللغات القديمة والحديثة ، ومن المؤرخين والجغرافيين ، دعاهم لإقامة طويلة أو لزيارة مؤقتة : ومنهم من كان يخاطب طلابنا بلغتهم ، وأغلبهم كانوا يلقون دروسهم بالفرنسية أو الإنجليزية ، ولم يعز على هؤلاء الطلاب أن يتابعوا الدرس ، وأن يفيدوا منه : ويسوعنى أن أقرر أن عامة شباب اليوم لا يتقنون على ذلك ، وزادهم من اللغات الأجنبية جد ضئيل ، وليس في وسع الجامعة أن تتدارك كل ما فات المدرسة الثانوية : وما كان أشبه كلية الآداب حين ذاك بمؤتمر دولي يجمع بين الشرق والغرب ، بين الفرنسي والإيطالي ، بين الإنجليزي والألماني ، وأريد بأقسام

اللغات الأجنبية خاصة أن تغذى بواحد أو أكثر من الأساتذة الناطقين بها الذين ربوا عليها ، وفقهوا أدبها وتاريخها . وربما نكون قد توسعنا في هذا بعض الشيء أو لم نحسن الاختيار أحيانا ، ولكن لاشك في أن هؤلاء الأساتذة الأجانب كانوا همزة وصل نافعة ، ومصدر غذاء جديد ، لهم علمهم وتجربتهم ، ومن الخير أن نفيد من مناهجهم في البحث والدراسة . ويبدو أننا لانرحب الآن بهذا التبادل ولانشجع عليه ، وما أحوجنا إليه بالتقدير الذي تتمسك به الجامعات الكبرى في أوروبا وأمريكا :

\* \* \*

تلك صور من مواقف طه حسين وآرائه ، وبعض جوانب من مظاهر نشاطه ، ومجال القول فيه ذو سعة . ولن يقف الحديث عنه عند ما نكتب ونصور اليوم ، بل سيبقى ما بقى أثره وإنتاجه :

---

## ١٧ - طه حسين ومشكلة النحو

أخذ طه حسين نفسه بضروب من الإصلاح والتجديد في ميادين الأدب واللغة ، والتربية والتعليم ، وأنجز منها ما أنجز ، وعز عليه ما عز . وقد عاش مع النحو العربي منذ شبابه الباكر درسه مع أقرانه في الأزهر تلك الدراسة الطويلة المتصلة ، وشغل به كثيراً وإن كان درس المرصفي في الأدب أحب إلى نفسه . ثم أوفد إلى باريس ، وكان لابد له أن يدرس اللغة الفرنسية ، وأن يتعمق في درسها ، وأضاف إليها شيئاً من اللاتينية واليونانية . وأتاح له هذا أن يقارن بين نحو العربية وأجرومية بعض اللغات الأخرى ، وبخاصة أجرومية اللغة الفرنسية . وبعد أن عاد من بعثته إلى مصر استوقفته الخصومة الثائرة بين أنصار العامية ورجال الفصحى ، وأدرك ما للنحو من شأن في ذلك ، وأحس بالضرورة الماسة إلى إصلاحه وتيسيره :

ولا شك في أن النحو العربي حظي بعناية لم يحظ بها نحو في لغة أخرى ، نشأ في أخريات القرن الأول الهجري ، ونما وتكون في القرنين الثاني والثالث ، واستمر يبسط ويفصل في القرون الخمسة التالية . تعددت مدارس ، وتعاصرت أو تلاحقت ، تألفت تارة أو تعارضت تارة أخرى تأثرت دون نزاع بما حولها من دراسات في الفقه والكلام ، والمنطق والفلسفة ووضعت في النحو كتب شتى : بين منظوم ومنتثور ، بين متن وشرح ، وسما بعضها إلى مرتبة الأمهات كـ «الكتاب» لسيبويه ، و«الألفية» لابن مالك ، «والمغنى» لابن هشام . أولع به خاصة الخاصة ، فوقفوا عليه حياتهم ، وتفننوا فيه ما وسعهم . وامتد النحو إلى الدراسات الإسلامية الأخرى من فقه وكلام وأدب وبلاغة ، فاختلط بها وامتزج فيها . ونستطيع أن نقرر أن الدراسات النحوية كادت تستوعب النشاط الفكري والثقافي في المعاهد العلمية العربية الكبرى طوال القرون الستة الأخيرة :

وقد غلا النحاة في فلسفة النحو كثيراً ، أو ما سمي ميتافزيقا النحو ، أولعوا بنظرية العلية وهي نظرية فلسفية في أساسها ، وأسرفوا في ذكر العلل وأنواعها ، واستخدموا العلة الواحدة في إثبات الشيء وضده . ووقفوا طويلاً عند نظرية العامل ، وهو ضرب من العلة . وتوسعوا في «التوجيهات والألغاز» النحوية ، وعقدوا بعض القواعد التي يصعب استيعابها . ويقال إن الكسائي وهو شيخ الكوفيين ، مات وهو لا يحس «نعم وبئس» ، وأن تلميذه الفراء فارق الدنيا وفي نفسه شيء من «حتى» اللهم إلا إن كان من تحامل البصريين . على أننا لا نزال نشكو حتى اليوم من العدد وتمييزه ، ولا النافية للجنس أو للوحدة ، ومن بابي التنازع والاشتغال .

ولم تسلم هذه الفلسفة وهذا التعقيد من النقد قديماً ، فلاحظ ابن حزم أن «علل النحو فاسدة» ودعا ابن مضاء الأندلسي إلى إلغاء نظرية العامل ، ونشر كتابه «الرد على النحاة» عام ١٩٤٧ ،

وحرص طه حسين على أن يلتقى عنه كلمة في الدورة الثالثة عشرة لمجمع اللغة العربية ، معلنا أن فيه ما يؤيد وجهة نظره من ضرورة إصلاح النحو وتجديده . وسبق لابن تيمية أن خطأ سيوبه في عشرات المسائل ، وخالف ابن قيسم الجوزية في كتابه « بدائع الفوائد » علماء النحو والصرف مخالفة صريحة :

ولم يكن بد لطله حسين أن ينكر هذه الفلسفة لأنها لا تلائم العصر ، ولا تتفق مع سياسة « التعليم للجميع » ، ودعا إلى إصلاح النحو وتيسيره على شباب المتعلمين . وشاءت الأقدار أن يقوم الدكتور بهي الدين بركات على أمر وزارة المعارف عام ١٩٣٠ ، وكان يلتمس ما يكتنف تعليم اللغة العربية من صعاب ، فأمر بتكوين لجنة كان طه حسين أحد أعضائها لتيسير النحو واقتراح قواعد جديدة على ألا يمس أصل من أصول اللغة . ومضت اللجنة في عملها ، وانتهت إلى طائفة من المقترحات التي تخلص النحو من فلسفته ، وتقدمه إلى النش في صورة سهلة ميسرة . والأصل في الأجرومية أن تكون ذات طابع محلي تعليمي ، بعيد عن الفلسفة والتعمق ، والغموض والتعقيد . واستطاعت اللجنة أن تحذف التفاصيل التي لا داعي إليها ، وأن تقتصد في المصطلحات وما أكثرها ، وصوبت إلى صميم القواعد النحوية من تكوين الجملة وأجزائها ، وهونت من أمر الإعراب ، وهو عقدة العقد، وصدرت في كل ما ذهبت إليه عن قواعد مقررة وآراء سابقة، فلم تخرج — كما طلب إليها — على أصل من أصول اللغة ، ولم تغير فيما اتفق عليه النحاة إلا بمقدار ، وتخيرت من مذاهب القدماء أقربها إلى الفكر الحديث ، وأيسرها على الناشئين . وبدا النحو الذي أقترحت أشبه ما يكون بأجرومية بعض اللغات الحية كالفرنسية أو الإنجليزية. ومع هذا أبقى التغيير الوزاري إلا أن تهمل مقترحاتها ، وأن تبقى مطوية في وزارة المعارف عشر سنوات أو يزيد.

ولم تنشر إلا يوم أن أحييت على مجمع اللغة العربية ليدلى فيها برأيه، وقد عكف على درسها طويلا، فتفرغت لها لجنة الأصول زمنا، ووقف عليها مؤتمر الدورة الحادية عشرة ثماني جلسات. ودافع عنها طه حسين في صدق وإيمان ، أراد أن يسلك بها مسلك التنفيذ . فدعا إلى تكوين لجنة لتأليف كتاب تطبيقي لهذه المقترحات، وأظهر استعداداه للاشتراك في هذه اللجنة، بل ما كان يرفض أن يضطلع بالعب وحده. ولكن وزارة المعارف لم تحرك ساكنا، برغم توجيه نظرها مرة ثانية إلى قرارات التيسير في مؤتمر الدورة الخامسة عشرة، وبقي الموضوع في طي النسيان نحو عشر سنوات أخرى :

وفي جلسة علنية من جلسات المجمع شاء طه حسين أن يعرض مشكلة النحو على جمهور المثقفين ، وقد دعت إلى ذلك وزارة المعارف من قبل . فألقى عام ١٩٥٥ بدار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والإحصاء والتشريع محاضرة عنوانها « مشكلة الإعراب »، وشهد لها جمع من كبار العلماء والأدباء وأساتذة الجامعات : ودعا فيها إلى تيسير الكتابة وتيسير النحو معا، وقال : « إن علم

النحو من أحب العلوم العربية إلى نفسي ، لأنني أجد لذة في قراءة الكتب النحوية المعقدة — على ما فيها من فلسفة وتعقيد — مثلما أجد عند قراءتي لشعر رائع لحرير أو لبشار . ولكن «إذا كان هذا النحو مستحبا إلى الاختصاصيين وإلى الذين يفرغون لمثل هذه الدراسات ، فمن الحمق كل الحمق أن يفرض على الشباب في القرن العشرين» أقول من الحمق ومن الخطأ أن نأخذ عقول الشباب بتعلم هذا النحو والخضوع لمشكلاته وعسره والتوائه ، لأن ذلك لا يلائم الحياة الحديثة ولا التفكير الحديث . ولا بد من تيسير النحو تيسيرا يتيح للشباب أن يتعلم العربية في يسر وفي غير عنف ، ولم يفته أن يشير إلى أن المشروع الذي أقره مجمع اللغة العربية يبنى بهذا الغرض ، « وهو نائم في وزارة المعارف منذ أعوام ، ولا يزال نائما إلى الآن في وزارة التربية والتعليم ينتظر من يوقظه » .

والواقع أن في هذا المشروع تيسيرا ملحوظا ، فإنه يرى الاستغناء عن الإعراب التقديري والمحلى ، وعن التفرقة بين علامات الإعراب الأصلية والفرعية ، وعدها كلها علامات إعراب ، وصرف النظر عن الضمائر المستترة وجوبا وجوازا ، وعد الضمائر البارزة المتصلة حروفا دالة على نوع المسند إليه أو عدده ، ولم ير ضرورة للنص على عائد الموصول ، واعتبر التعجب ، والتحذير والإغراء ، ونحوها ، تراكيب تشرح على أنها أساليب ، دون وقوف عند تفاصيل إعرابها . واكتفى من الصرف بتصريف الفعل وصوغ مشتقاته ، وفي الاسم بالثنية والجمع . ولاحظ طه حسين بحق أنه ليس في هذا ما يغضب الله ورسوله ، ولا ما يضير لغة القرآن في شيء . وعندما أنزل القرآن لم يكن النحو موجودا ، وقد تلاه المسلمون قبل أن يعرفوه ، ولا يزالون يتلونه اليوم دون تفكير في القواعد النحوية ، ويعدونه فوق النحو والصرف معا ، والنحاة بصنعتهم هم الذين حاولوا أن يطبقوا قواعدهم على ألفاظ القرآن وجمله ، وربما عز عليهم ذلك أحيانا . ومشروع التيسير في حقيقته لا يلغى علم النحو القديم ، وإنما يكمل أمره إلى الاختصاصيين والمتفرغين ، ولهم أن يكتبوا فيه ماشاءوا ، وأن يبحثوا ويتعمقوا : أما النشء فوفقا به ، وحرصا على وقته وجهده ينبغي أن يعلم العربية من أيسر سبيل ، ونحن نرد له أن يتعلمها في الحقل والمصنع ، في القرية وفي المدينة على السواء .

وحاولت فعلا وزارة التربية والتعليم عام ١٩٦١ أن تضع مشروع تيسير النحو موضع التنفيذ ، ومضت في ذلك نحو عامين : فوضعت في النحو كتب جديدة على أساسه ، ولم تعرض على المجمع كما كان متفقاً عليه ، ولم يشترك في وضعها أحد من أعضائه . وبدأ التلاميذ يتعلمون النحو الميسر ، لافي مصر وحدها ، بل في سوريا أيضا ، وكم كان طه حسين معنيا بهذه المحاولة ، تابعها عن قرب ، تمنى لها التوفيق ، وود أن لو استطاع أن يعززها ، ودفع زميل الشباب أحمد حسن الزيات إلى أن يساندها ولأمر ما عدل عنها ، وأغلب الظن أن فريقا من المعلمين لم يتهيا لتدريس النحو الميسر تهيو التلاميذ

لتعلمه ، ونشهد اليوم شيئا شبيها بذلك فيما يتعلق بتدريس الرياضيات الحديثة . وإذا كان في الكتب التي وضعت عيوب ، ففي الإمكان تلافيها ، والمهم هو الإيمان بفكرة التيسير والعمل على مقتضاها .

والزمن يسير ، ولا بد من متابعة سيره : ونحن لا نزعم مطلقا أن النحو وحده هو السبيل لتعلم اللغة وجل ما يراد منه أن يقوم الألسنة ويعصمها من الزلل . وأهم منه أن يتعلم الشباب اللغة نفسها ، يتعلمونها في البيت والمدرسة ، في لغة الخطاب والقراءة ، كما هو الشأن في اللغات الحية الأخرى . يتعلمونها لا في دروس النحو والبلاغة فحسب ، بل في دروسهم جميعها . وواجب علينا أن نوفر لهم وسائل القراءة السهلة الممتعة في أوقات فراغهم ، فنعد لهم من الكتب ما يتلاءم مع مراحل سنهم المختلفة . وفي كثير من المدارس الأجنبية مكتبة خاصة لكل فصل ، فيها ما يتناسب مع سن تلاميذه ، وهي موضوعة تحت تصرفهم يقرءون فيها أو يستعرون منها ما يشاءون . وتلك قراءة مبعثها الرغبة لا الرهبة ، وهي من أقوى المؤثرات في إتقان اللغة وإحسان العلم بها والتصرف فيها .

وفي صراحة ينبغي أن نجاهر بأن شبابنا بدءوا يستثقلون الفصحى ويبعدون عنها عاما بعد عام ، وعلينا أن نحجبهم فيها ، وأن نقرّبها إليهم ، فنزيل منها الصعاب المتوهمة ، فضلا عن الحقيقية ، وإلا فقدنا الحولة وانقطع بهم الطريق . ولا نزاع في أن النحو لغز المتخصصين ليس علما يقصد لذاته ، وإنما هو وسيلة من وسائل تقويم اللسان والقلم ، وجدير بنا أن نقف بهذه الوسيلة عند أضيق الحدود الممكنة . فنندع جانبا في تعليم النشاء الألفاظ النحوية ، والآراء المتشعبة ، والاستثناءات الكثيرة ، ونقدم للتلاميذ قواعد مستقيمة لا لبس فيها ولا تأويل ، تقتصر على ضبط الحركات ، ولا تتعرض لما لا تتغير ضوره . وقد قطعنا في هذا السبيل شوطا ، وينبغي أن نتمه ، ولم تضق العربية ذرعا قطبأى تجديد أو إصلاح . ورحم الله أبا العلاء الذي قال ، وهو الغواص على دقائق اللغة ، لا يسخط عليك الله ولا المكان ، إذا كنت لا تدري لماذا ضمنت ثاء المتكلم ، وفتحت ثاء المخاطب .

## ١٨ — زكى المهندس (نوفمبر ١٩٧٦)

يعز على حقاً أن أقف الليلة مؤبناً لزكى المهندس ، فقد كنت معه بين عشرة من الخالدين ، دخلوا المجمع سوياً عام ٤٦ ، ثم رحلوا عنه الواحد تلو الآخر ، ولم يبق لي منهم سواه ، وما هو ذا قد جاء دوره ، فلم يتخلف ، وتركني وحدي ، « ولنا لله ، ولنا إليه راجعون » .

وأبى هؤلاء العشرة إلا أن أكون المتحدث باسمهم في حفل استقبالهم وإن كنت أصغرهم أو لأنى كنت أصغرهم ، فتحدثت في الأمس البعيد باسم زكى المهندس يوم أن دخل المجمع وشاء القدر أن أتحدث عنه الليلة يوم أن رحل ، وما أعظم الفقد ، وما أقسى الحديث ! ويزيده قسوة أن زكى المهندس كان أوثق الزملاء صلة بي ، وأطولهم صحبة لي ، وأقربهم إلى قلبي . قضيت معه ثلاثين عاماً كاملة في هذا المجمع ، نعتت فيها بزمالة كريمة ، كلها ود وإخلاص ، ورقة وعدوبة ، وسماحة ، وبشاشة لا مطمع فيها ولا مغنم ، ولا تنافس ولا تزاحم ، فلم نختلف يوماً ، ولم تباعد بيننا الأحداث والتقلبات . وإن بدا شئ من التباين بين أبناء الأسرة الواحدة ، كان زكى المهندس همزة الوصل ، ونقطة الالتقاء ، ومبعث الرضى . اختلفنا مرة فيمن يكون نائب رئيس المجمع ، ويوم أن ذكرت اسمه زال الخلاف ، واتفق الجميع .

ويطول بي الحديث إن شئت أن أعرض لزكى المهندس المجمعى ، فقد كان مؤمناً بالإيمان كله بأن العربية لغة علم وحضارة ، وأنها حية ومتطورة . وفي وسعها أن تسد حاجات العصر ومتطلباته ، وعلينا أن نيسرها في مفرداتها وتراكيبها ، في نطقها وكتابتها ، وأن نتوسع في ألفاظها وأساليبها . وأشهد أنه من أنصار التيسير والتجديد ، لأنه كان يرى أن اللغة تعبر عن الحياة ، والحياة في تطور مستمر . والعربية لغة طيبة مرنة ، قد اتسعت — وما زالت — لكل جديد ، وتصلح للتعبير عن كل مستحدث ، وحركة التطور مطردة ماضية متصلة ، تجري إلى غاياتها في سرعة وقوة .

وكان مؤمناً أيضاً برسالة المجمع ، حريصاً على أدائها ، فأعطاه في سخاء ، ووقف عليه بكل جهوده في سنين طوال « مرحلة النضج والخبرة التامة » ، مرحلة الشيخوخة الحكيمة المتزنة ، أعطاه علماً وعملاً ، توجيهاً ورأياً ، إشرافاً وإدارة . أسهم في معظم لحانه ، وأولع بمجلسه ومؤتمره ، ونذر أن تخلف عن جلسة من جلسات اللجان أو المجلس أو المؤتمر ، ولم تنقطع صلته قط باللجنة الإدارية التي ترعى نشاط المجمع وسير العمل فيه . وأشرف عدة سنوات على مجلة المجمع ، فجدد نشاطها ، ونوع غذاءها ، وجرص على أن تصدر في مواقيتها ، واختير نائباً لرئيس المجمع عام ٦٤ ، وجدد انتخابه بعد ذلك ثلاث مرات . ووقف إلى

جانب المرحوم طه حسين رئيس المجمع في سني مرضه موقف الولاء والإخلاص . وألححت عليه بعد وفاته أن يقبل الترشيح لرياسة المجمع ، فاستعنى ، وأبى إلا يلتقى العيب عن كاهله ، وأشهد أنه لم يضمن على برأى أو مشورة ، ولم يقصر في عون أو مساندة .

\* \* \*

هذا هو زكى المهندس الزميل والرئيس ، المشرف والإدارى ، أما زكى المهندس العالم والدارس فالحديث فيه طويل . وأكتفى بأن أشير إلى موقفه من ثلاث لجان من لجان المجمع كانت أثيرة لديه ، ارتبطت باسمه ، وحببت إليه ، وما أقساها من لجان ، وأعنى بها لجان : اللهجات وتيسير الكتابة ، والأصول .

ودراسة اللهجات ليست من الأمور الهينة ، فهى علم حديث النشأة يرجع إلى النصف الأخير من القرن الماضى ، ويتطلب ضرباً من الانتجاع والرحلة ، ولا بد له أن يستعين ببعض الأجهزة والآلات ولم تكن به بعد الجامعات العربية العناية الكافية ، ومن حقنا أن نعول عليها أولاً كى تمتد اللغويين والمجمعين بمادة يمكن أن يستخلصوا منها ما يستخلصون . وفى العربية لهجات قديمة وحديثة جديرة بالدرس والبحث ، وقد بذر البذرة الأولى للدراسات فى مجتمعاتنا بعض زملائنا الأول . عرب ومستعربين ، ومنهم من كان يعد بين علماء اللهجات .

وأذكر أن الجارم حاول أن يدرس لهجة رشيد مسقط رأسه ، كما أخذ العقاد نفسه بدراسة لهجة أسوان ، ولفريد أبو حديد دراسة مفصلة فى اللهجة القاهرية . وحاول زكى المهندس أن يتابع هذا النشاط ، وأن يغذيه وينميه . فأتجه أولاً إلى الجامعات ومعاهد الصوتيات ، لكى تعنى بدراسة اللهجات المعاصرة دراسة حقيقية ، ولكننا لم نحظ منها حتى الآن برد يعول عليه . ولجأ ثانياً إلى كتب الأدب واللغة آملاً أن يكشف فيها عن بعض اللهجات القديمة ، كنعنة تميم وقضاة ، وكشكشة أسد وربيعة . وبقي حريصاً على أن يكون للهجات درس وبحث فى المجمع ... برغم ما صادفها من صعاب ، وما أحوجنا فى هذا المضمار إلى دراسات ميدانية وبحوث متخصصة تواجه لهجات العالم العربى فى مختلف أرجائه .

واستوقفت مشكله الكتابة العربية المجمع فى انعقاده الأول ، وأخذ يعالجها علاجاً متصلاً منذ سنة ١٩٣٨ ، ورقف عليها دورة كاملة عام ١٩٤٤ لمناقشة مشروع الحروف اللاتينية الذى تقدم به عبد العزيز فهمى . وأعلن المجمع بعد ذلك بقليل عن جائزة محترمة فى مسابقة لتقديم أحسن اقتراح لتيسير الكتابة العربية ، وما إن أعلن عن هذه المسابقة حتى استجاب لها كثيرون ، وأرابت المقترحات التى قدمت للمجمع على المائتين . وقدر لى أن أشارك مع زكى المهندس فى فحص هذه المقترحات ، ولم يكن من بينها مع الأسف ما يحقق التيسير

المنشود ، واتصل عملي مع الفقيه الكريم في لجنة تيسير الكتابة العربية بانتظام ،

والشكيلة في حقيقتها مزدوجة ، هي مشكلة قراءة وكتابة معاً ، وليس من اليسير أن يقدم لها حل يعالج الجانبين معاً. واتجهت اللجنة خاصة إلى معالجة مشكلة القراءة ، فأوصت بالتزام الشكل الكامل في كتب المرحلة الابتدائية ، وبشكل أواخر الكلم في كتب المرحلة الإعدادية ، وبشكل ما يتوقع خطأ التلميذ فيه في كتب المرحلة الثانوية ، ورحبت وزارة التربية والتعليم بذلك. وفي هذا ما ينشئ التلميذ على القراءة الصحيحة والنطق السليم . ودرست اللجنة في تفصيل صور الحروف والهمزات وعلامات الترقيم في صندوق الطباعة العربية ، ورأت الاكتفاء بصورة واحدة للحرف الواحد كيفما كان موضعه في الكلمة وخففت صور الهمزة وعلامات الترقيم فهبطت بصندوق الطباعة العربية إلى ١٣٥ صورة ، واقترب كل القرب من صندوق الطباعة اللاتينية الذي تبلغ صورته ١١٥ .

ووضعت لذلك نموذجاً صادف نجاحاً ملحوظاً ، وأخذ به كثير من دور النشر وسبك الحروف وكم كان زكى المهندس ، وهو أستاذ نخط بقدر ما هو أستاذ أدب ولغة ، عوناً للجنة فيما انتهت إليه من صور وأشكال . ولا شك في أننا نقرأ اليوم أكثر مما نكتب ، ولا تزال مشكلة الكتابة في حاجة إلى معالجة وتيسير ، ولتتناقش بخطط الرقعة كتابة ، ونعرف كيف نمكن أبنائنا من تجويده .

وأما لجنة الأصول فهي لجنة التجديد والتطوير ، لجنة التشريع اللغوي إن صح هذا التعبير ، وواجب المشرع أن يلاحظ الظروف والملازمات ، وأن يسعى جاهداً إلى سد حاجات العصر ومقتضياته .

ولجنة الأصول من أهم لجان المجتمع ، بدأت تعمل في نشاط منذ دور الانعقاد الأول ، وأنتجت بعد بحث وتمحيص ، واطراد إنتاجها دون انقطاع . واستطعننا عام ثلاث وستين أن نخرج ثمار هذا الإنتاج طوال ثلاثين سنة ، من الدورة الأولى إلى الدورة الثامنة والعشرين . أخرجنه في مجلد بعنوان : « مجموعة القرارات الملزمة » ، ويقع في أربعة أبواب : أولها « في أقيسة اللغة وأوضاعها العامة » ، وثانيها « في الترجمة والتعريب وكتابة الأعلام » ، وثالثها « في وضع المعجمات والمصطلحات » ، ورابعها « في تيسير النحر والصرف والكتابة العربية » ، ويشتمل على ما يزيد عن ٢٠٠ قرار .

والتطوير في شد ومدة دائماً بين تيارين متعارضين : تيار التيسير والتجديد ، وتيار الجمود والمحافظة وربما طغى أحدهما على الآخر . وللهجريين حوارهم وجدلهم . وقد تنزع مناقشتهم أحياناً منزعاً نظرياً ، وتسمى عن قصبه أكاديمية ، فتنسى الملازمة بين الماضي والحاضر وتعجز عن سد الحاجة ، وتبطن بالنهوض المنشود . عاش زكى المهندس ١٥ سنة أو يزيد رئيساً للجنة الأصول في هذا الجو

وتحت ضغط هذا التقابل ، وقد واجهه في حضور بديهة وسرعة خاطر ، في مهادنة ومسألة ، في صبر وجلد نادرين . وكثيراً ما امتد بحث الموضوع الواحد في هذه اللجنة شهراً أو شهرين ، تقدم فيها البحوث تلو البحوث ، وتثار وجهات النظر المختلفة ، فكان المخاض عسيراً والوصول إلى قرارات غير يسير . ومع هذا استطاعت أن تخرج في هذه المدة مجلدين متلاحقين « في أصول اللغة » ظهر أولهما عام ٦٩ ، وثانيهما عام ٧٥ ويشتملان على أعمال ١٤ دورة من دورات المجمع ، وفيهما ما يكشف عما بذل في سبيلهما من جهد صادق وعمل دائب ، أشرف عليه زكي المهندس ورعاه . فيها عود على بدء وتدارك لبعض ما فات ، أو تيسير وتجديد في أقيسة اللغة وأوضاعها ، وفي بعض الألفاظ والأساليب العربية والمعرية .

رحم الله زكي المهندس بين العاملين الأبرار ، ورحمه الله بين الزملاء الأخيار ، ورحمه الله بين المخلصين الأوفياء ، والسلام عليكم ورحمة الله .

## ١٩ - جميل صليبا بين رواد الفكر الفلسفي المعاصر ( ١٩٧٦ )

عرفته زميلا كريما ، وأخا صادقا ، عف اللسان ، حلو العبارة ، صافي الطويّة ، لا يتكلم إلاّ عن بيّنة ، ولا يعرض لما لا شأن له به . وعرفته أيضا باحثا مدققا ، وأستاذا فاضلا ، أحب تلاميذه وأحبوه . يؤثر الدرس والبحث على كل ما عداهما ، أولع بهما ، ووقف عليهما حياتاه ، طابت نفسه لقاعة الدرس ، فأعطى فيها أجزل العطاء ، علم وشرح في أكمل عبارة وأوضح بيان . وأطمأن قلبه لصومعة البحث ، فقضى فيها الساعات تلو الساعات ، ووجد فيها سعادة لا تعادلها سعادة . واستطاع أن يغذي المكتبة العربية بغذاء وافر . ويعينني أن أقف قليلا عند جميل صليبا الباحث والفيلسوف .:

ولا سبيل إلى بحث أو فلسفة حقّة إلا في جو من حرية الفكر والقول ، وفي عصور القهر والغلبة تختفي الفكرة الحرة ، وتتضاءل وراء صيغ معقدة وعبارات غامضة . ومنذ القرن الرابع عشر الميلادي طغت على العالم العربي ظلمة قائمة ، ضاق فيها الفكر والأفق ، فكثُر المحرم ، وقل المباح ، وأجدبت العقول ، وأغلق كثير من معاهد العلم الكبرى ، وما بقي منها ظل يتحرك في نطاق ضيق . وكانت الدراسات الفلسفية أول المحرمات ، حاربها من حاربها وأنكرها من أنكرها . واتهم دارسوها بالإلحاد والزندقة . وإذا كانت العلوم قد قسمت في العهود الأخيرة إلى منقول ومعقول ، فإن الأخيرة منها ما كانت تصدق إلاّ على علوم البيان والبلاغة والبديع ، والمنطق ، وآداب البحث والمناظرة ، على أنهم قالوا : من تمنطق فقد تزندق . وفي القرن التاسع عشر ، هب نسيم الحرية ، وبدأنا نعود إلى أنفسنا ، نفكر في استقلال ، وننظر في أفكار غيرنا . ولا شك في أن الحملة الفرنسية كانت القبس الذي انبعث منه أول شعاع للبحث والتجديد . وتلتها حركات استقلالية ردت إلى العرب ثقتهم بأنفسهم ، ودفعتهم إلى التسليح بسلاح العلم الحر الصريح . وصاحبها وعى حتى يقظ يطالب بالنهوض والتقدم ، ويسعى إلى إحياء مجد الماضي ومتابعة سير الحاضر . وعزز ذلك كله دعوة إلى التحرر الفكري حمل رايتها نفر من المصلحين على رأسهم جمال الدين الأفغاني ( ١٩٢٠ ) . وتلاهم تلاميذ وأتباع لهم مخلصون كان لهم شأن في الحركة الفكرية في القرن العشرين ، ويمكننا أن نذكر من بينهم لطفي السيد ، ومصطفى المراغي ، وكرد علي ، ومصطفى عبد الرازق ، وطه حسين ، وأحمد أمين .

\*\*\*

في هذا الجو نشأ جميل صليبا ، وتربى تربية عربية صافية ، تزود بزاود وفير من علوم اللغة وآدابها ، ونهل من حياض الثقافة العربية على اختلاف ألوانها . ولح فيه كرد على آيات النجاة والحد في التعلم والتحصيل ، فأوفده في بعثة إلى باريس . وهناك جود لغته الفرنسية ، واستكمل

درسها وأتجه لمحاكمة نحو الفلسفة الإسلامية. وكأنما أحس بأن حركة الاستشراق أخذت في الأفول، وأن المستعربين إذا كانوا قد خدموا التراث الإسلامي في القرن الماضي ، وأوائل هذا القرن فإن على العرب أن يضطلعوا بالعبء معهم ، وأن يسهموا في هذا المضمار . وراقه الفكر الفلسفي الإسلامي ، فتخصص فيه ، وتعمق في درسه ، ووقف عليه خمسين سنة الأخيرة من حياته . قضاهما باحثا ومعلما ، مؤلفا ومترجما ، محققا وناشرا . وخطا بالبحث الفلسفي خطوات فسيحة ، لا في سوريا ولبنان وحدهما ، بل في العالم العربي جميعه . وأسمعوا إليه يقول : لما بدأنا تعلم الفلسفة في العقد الثالث من القرن العشرين لم يكن بين أيدينا في اللغة العربية إلا عدد قليل من الكتب : مثل كتاب أصول الفلسفة لأمين واصف ، ومبادئ الفلسفة لأحمد أمين ، وتاريخ الفلسفة لمحمد بدر ، ولكننا حين أخذنا نعلم الفلسفة في المعاهد الثانوية والجامعات ، ازداد عدد المؤلفات والمقالات الفلسفية حتى غمرت المطابع والصحف الأسبوعية والمجلات الشهرية . وقد أسهم جميل صليبا في هذا المضمار إسهاما كبيرا .

وسبق له أن تقدم في عام ١٩٢٦ إلى جامعة باريس ببحث باللغة الفرنسية للحصول على درجة الدكتوراه ، وكان موضوعه : «دراسة في ميتافيزيقا ابن سينا» والعنوان وحده كاف في الدلالة على دقة البحث وعمقه ، والبحوث الميتافيزيقية كانت ولا تزال من أعرق الدراسات الفلسفية . وهو على كل حال معالجة جادة لأول مرة لحانب من جوانب فلسفة ابن سينا ، ألم فيها بموضوعه إلماما مستوعبا . وجاء دون نزاع باكورة من بواكير المعاصرة في دراسة الفكر الفلسفي الإسلامي باللغة الفرنسية . ولم يسبقه إلا رسالة أخرى باللغة نفسها قدمها طه حسين عام ١٩١٧ للحصول على الدكتوراه أيضا من جامعة باريس ، وكان موضوعها : «دراسة نقدية وتحليلية لفلسفة ابن خلدون الاجتماعية» ، ولا تزال رسالة جميل صليبا مرجعا يشار إليه في موضوعه .

ثم توالى درسه وبحثه ، فلم يقم مهرجان فلسفي ، ولم تجيء ذكرى لفيلسوف عربي إلا وكان لجميل صليبا فيها قول وإسهام . ففي عام ١٩٥٢ أقيم ببغداد مهرجان للذكرى الألفية لابن سينا ، وكان لفقيدنا فيه بحث قيم حول «نظرية الخير عند ابن سينا» . وفي عام ١٩٦٢ نظمت هيئة الدراسات العربية في الجامعة الأمريكية ببيروت ندوة حول : «الفكر الفلسفي في مائة سنة» . فأمد هاجم لجميل صليبا ببحث موضوعه : «الإنتاج الفلسفي : الفلسفة عموما وفلسفة العلوم» وفيه نقد وتحليل وتصوير واضح للتيارات الفلسفية في العالم العربي أهان المدة المحدث عنها . وله بحوث أخرى في الصحف والمجلات لا يتسع الزمن للحديث عنها .

ولم يقف جميل صليبا عند البحث والتأليف ، بل غنى أيضا بالترجمة والتحقيق ، فترجم كتاب المقال لديكارت ، على غرار ما صنع معاصر له بالقاهرة هو المرحوم محمود الحصري ، ونشر مع زميله الدكتور كامل عياد أطل الله بقاءه كتاب المنقذ من الضلال للغزالي : وأخرج لنا تلك التحفة النادرة المفردة إلى إخوان الصفاء في جزأين ، وهي الرسالة الجامعة :

وإذا كان باحثنا قد غنى خاصة بالدراسات المتخصصة فإنه لم يفته أن ييسر الأمر على أبناء المدارس الثانوية ، فأخرج لهم عام ١٩٧٠ كتاب الفلسفة العربية ، وهو من آخر مؤلفاته ، وقد لاءم بينه وبين المنهج اللبناني ، وفيه نفع لطلاب الفلسفة بوجه عام . روى فيه ما وسعه ، وسلك فيه مسلكا واضحا ، يعرف بالمفكر أو الفيلسوف أولا ، ثم يعرض آراءه في بسط وتفصيل ويحرص على أن يقدم غارات من عباراته وأقواله . وهذا للكتاب ولا شك من أغزر الكتب المدرسية وأنفعها .

وشغل فقيدنا منذ زمن بالمصطلح الفلسفي ، لأنه لمس «أن المصطلحات الفلسفية المترجمة عن اللغات الأجنبية لا تخلو من اللبس والغموض ، وكل مؤلف يختار من الإصطلاحات ما يرضيه ، حتى إنك لتجد للمعنى الواحد عند بعض المؤلفين ألفاظا مختلفة ، أو نجد للفظ الواحد عدة معان وقد أخذ نفسه بمواجهة هذا النقص ، وقدم في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق سلسلة متصلة من الدراسات حول المصطلح الفلسفي في ماضيه وحاضره . وشاء أخيرا عام ١٩٧١ أن يجمع ذلك في معجم فلسفي ضخم يقع في جزأين وفي نحو ١٥٠٠ صفحة ، ويشتمل على ما يزيد على ١٠٠٠ مصطلح ، جمع في كل واحد منها بين العربية والفرنسية والإنجليزية ، وشرحها شرحا مقبولا في جملته . وهو أميل إلى الدراسات الموسوعية منه إلى قوائم المصطلحات المختصرة .

\* \* \*

ذلكم هو جميل صليبا الباحث والفيلسوف ، درس وعلم ، بحث وأنتج في مرحلة كان فيه البحث الفلسفي في بدايته . فغذاه بغذاء كامل : دعا إلى نشر النصوص القديمة ، لأنها الأساس الذي يبنى عليه كل درس أو بحث . وقال بترجمة الأمهات عن الثقافات الأخرى ، وإذا كنا قد عنيينا بالنشر والتحقيق في الثلاثين سنة الماضية فلما لم نعن العناية الكافية بالترجمة . وأخذ جميل صليبا نفسه بالبحث والتأليف ، وسلك فيه مسلكا واضحا يربط الحديد بالقديم ، ويرد الأشياء إلى أصولها ، ويدل بأحكام لا غلو فيها ولا تفريط . ومنح المصطلح الفلسفي عناية كبيرة ، وجياة كل دراسة في أن تسلم لغتها من الخلط واللبس . واستحق بهذا كله أن يكون رائدا من رواد الفكر الفلسفي العربي المعاصر .

## ٢٠ - أنيس المقدسي المجمعى (مارس ١٩٧٧)

سيداتي ، سادتي :

لقد فقدنا شيخاً من شيوخ الأدب واللغة ، ورائداً من الرواد الأول هو الأستاذ أنيس المقدسي .  
والموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد

فقدناه قبيل مؤتمرننا ببضعة أيام ، وقد كان حريصاً دائماً على أن يشترك معنا فيه بنفسه ،  
أو بما يقدمه من بحث ودرس . حظينا بزمالته منذ عام ١٩٦١ ، وطوال خمس عشرة دورة  
من دوراتنا المتلاحقة لم يتخلف إلا عن دورة واحدة . هي الدورة الأخيرة التي حالت أحداث  
لبنان الأليمة دونه والاشتراك فيها . ففي أربعة عشر مؤتمراً أسهم بأربعة عشر بحثاً ، فيها عمق ودقة  
ورأى وتوجيه . والمقدسي باحث طويل النفس ، يصدر عن خبرة واسعة وزاد وفير ، فيفصل  
القول فيما يعرض له ويحلله ، ويؤيده بشواهد وأسانيد ، يستمسل بالماضي ويعنى بالحاضر  
ويواخي بينهما ، ويمهد بهما للمستقبل . وكان على شيخوخته وكبر سنه أميل إلى الابتكار والتجديد ،  
وتكاد تنقسم بحوثه الأربعة عشر قسمة متعادلة بين الأدب واللغة :

ومن بحوثه الأدبية الموجهة محاولته ربط التاريخ بالأدب ، وهي محاولة ما أجدرنا أن نفيد منها  
وأن نتوسع فيها . وقد تخير لها مثلاً رائعاً هو « رسائل ابن الأثير » التي عاش معها زمناً طويلاً  
وقد شاء بحق أن يستخلص منها قدراً من تاريخ الدولة الأيوبية السياسي والاجتماعي . وابن الأثير  
وثيق الصلة بالأيوبيين ، ومن أعرف الناس بأسرارهم ودخائلهم .

وللمقدسي دراسة أدبية أخرى وصفية وتحليلية عن الشعر الغنائي ، وبواعثه في الشرق والغرب  
فيما بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين . والشعر الغنائي من أوسع أبواب الشعر المعاصر . وجدير  
بأن نقف عنده وأن ندرسه وزناً وقافية ، هدفاً وموضوعاً .

وفي آخر حديث له معنا يعرض في إسهاب « للشعر الحر » ، وهو من مستحدثات الأدب  
المعاصر ، وقد أدلى فيه بآراء إن دلت على شيء فإنما تدل على أن ابن التسعين يبدو أفسح  
صدراً ، وأقل تزمناً من ابن العشرين .

وأما بحوثه اللغوية فيعالج في بعضها المولد والدخيل في لغتنا المحلية ، وفي معاجمتنا الحديثة ،  
ويبرهن على أن اللغات يأخذ بعضها عن بعض ، وقد أعطت العربية بقدر ما أخذت . وفي بحث  
آخر مسهب يسجل المقدسي ما أخذته الإنجليزية عن العربية قديماً وحديثاً . ومتى تبنت لغة لفظاً أجنبياً  
أصبح ملكاً لها ، وتصرفت فيه تصرفها في ألفاظها الأصلية .

وفي بحث طريف يعرض فقيدنا لأثر الزمن في اللغة . وهو يرى أن اللغة ، وإن كانت ملكة إنسانية ، لا تخضع للإنسان وحده ، بل تؤثر فيها عوامل شتى ، أخصها الزمن ، تسير بسيره وتتطور بتطوره ، وقد فرقنا بين أدب جاهلي ، وأدب إسلامي ، وآخر عباسي . ولا يقف تطور اللغة عند كسب ألفاظ وتعبيرات لم تكن معروفة ، بل الألفاظ نفسها تأخذ دلالات جديدة . ونقلنا عن ابن قتيبة ، يقدم المقدسي نماذج من ذلك ، كلفظ « الطرب » الذي كان يدل أصلاً على نخفة تصيب الإنسان لشدة الفرح أو لشدة الحزن ، ثم قصر على الفرح ، وكلفظ « المأتم » الذي كان يدل على اجتماع النساء في الخير والشر ، ثم أريد به المصيبة والوفاة لا غير . ولا شك في أن المعاجم التاريخية تكشف عن تطور المدلولات على مر الزمن . ويرى المقدسي أن من الظالم أن ترمى العربية بالجمود . وهي بالعكس حية ومتجددة ، متجددة في ألفاظها وأساليبها ، متجددة في معانيها ومدلولاتها .

والمقدسي ، وقد عاش معنا خمس عشرة سنة ، وقف على جهود مجمعنا وأسهم فيها — ويرى أنها تدور حول بابين : الوضع والإفتاء ، فأخذ المجمع على عاتقه وضع معجم كبير ، يجمع بين دفتيه ما حوته أمهات المعاجم القديمة ، مضافاً إليها ما تولد على توالي الأجيال من ألفاظ اقتضتها تطور الزمن وتقدم العلوم وأساليب الحضارة في العالم العربي ، وهذا عمل طويل النفس وإلى جانبه معاجم فرعية لسد حاجات أهل العصر من أدباء وباحثين ، نذكر من بينها : « معجم الفاظ القرآن » ، و « المعجم الوسيط » .

وأما الإفتاء في مسائل اللغة ومشاكلها ، فهو عند المقدسي أهم وأعون على تجديد حياة اللغة والسير بها إلى الأمان . وفي رأيه أن مهمة الإفتاء هذه لم تفت أعضاء المجمع في كل عهد من عهوده ، فهم يعنون بمشاكل اللغة وقواعدها ، ويهتمون بما يتطلبه التقدم من تعديل بعض وجوهها ، أو إكمال نقصها .

هذه بعض جوانب أنيس المقدسي المجمعى ، والحديث فيها طويل ، جزى الله فقيدنا خير الجزاء عما قدم لأمته ولغته :

## ٢١ - كامل حسين الأديب (أبريل ١٩٧٧)

رحم الله كامل حسين بين الخالدين الأبرار ، ورحمه الله بين الزملاء الأخيار ورحمه بين الأصدقاء الأوفياء . ولقد عرفته منذ نصف قرن أو يزيد ، وعرفته أديبا قبل أن أعرفه عالما وطيبا وهذه هي الناحية التي أود أن أقف عندها قليلا ، عرفته من خلال صحيفة أحدثت ما أحدثت من حركة في حياتنا الأدبية والفكرية وأعطى بها « السياسة الأسبوعية » وكان يسهم فيها مع قادة النهضة الأدبية المعاصرة حينذاك ، أمثال الدكتور هيكل وطه حسين . واختار لنفسه اسما مستعارا هو « ابن سينا » . وسألت عن « ابن سينا » القرن العشرين ، فقيل لي إنه طبيب شاب حصل على بكالوريوس الطب ولما يجاوز الثانية والعشرين . وما إن أمضى سنتي الامتياز بطب القاهرة حتى أوفد في بعثة إلى إنجلترا ، ومن هناك كان يرسل « السياسة الأسبوعية » وينشر فيها بواكير إنتاجه الأدبي . ولم تقف مقالاته عند الطب والصحة العامة ، بل امتدت إلى « اللغة » و « البحوث الأدبية » ، ولوسمى نفسه « ابن المقفع » ، أو « عبد الحميد » ما عز عليه :

وجمعتني وإياه مجالس لطفي السيد ، وكما كانت ملائى بالأدب والحكمة ، بالعلم والفلسفة ، بالتوجيه والإصلاح : وتمر بنا أمور لها شأنها ، وقل أن نفكر في تسجيلها مع أنها من ذخائر الماضي وعدد المستقبل : وما أشبه مجالس لطفي السيد بمجالس « الإمتاع والمؤانسة » وإن لم تجد بين المعاصرين من يعنى بها ، كما صنع أبو حيان التوحيدي . وكان صوت كامل حسين في هذا المجلس مسموعا ، وكلامه عذبا - وتعليقه واضحا ، ونقده سمحا وكلنا يعرف منزله بين العلماء والأطباء ، ومع هذا كان حديثه في تلك المجالس يدور غالبا حول الأدب واللغة ، والإصلاح والتجديد ولا زال أذكر مجلسا منها عقد بقاعة لطفي السيد في نادي محمد علي - نادي التحرير اليوم - على أثر ظهور قصة أديبنا الخالدة : « قرية ظالمة » وكان بين من شهدوا هذا المجلس عبد الحميد بدوي ، وهبي الدين بركات وما كان أشبهه بحفل تكريم منه بمحاكمة أدبية ، وإن لم يخل من تندر رقيق ونخشة وتوجس من أن تثير القصة بعض رجال الدين وقد سبق للحاضرين جميعا أن قرعوا ، وقدروها قدرها ، وكانهم كانوا يتوقعون ما ستحظى به من إعجاب وتقدير لدى كبار الكتاب والمثقفين :

وتوثقت صلاتي به يوم أن اختير عضوا بمجمع اللغة العربية عام ١٩٥٢ وسعدت باستقباله وقلت فيه حين ذلك : قل أن نجد من يقبل على الثقافة إقباله ، ويحب القراءة حبه ، فلا تكاد تذهب إلى محاضرة عامة في علم أو أدب أو فلسفة ، إلا وتراه في مقدمة المستمعين : ولا يكاد يظهر كتاب قيم في العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية إلا ويسارع إلى قراءته وكم ساءلت نفسي : « كيف يوفق صاحبنا بين هذا وبين أعبائه المتعددة ، في درسه ، وفي عيادته الخاصة ، وفي مهله على مرضاه في منازلهم أو في المستشفيات ؟ »

ولم تقف قراءة كامل حسين عند الحديث والمعاصر ، بل أبى إلا أن يجمع بين الماضي والحاضر . ودون أن أعرض لإلمامه الواسع بالثقافات العالمية الكبرى ، أحب أن أشير إلى تمكنه من الثقافة العربية ، عرف أصولها ، وأحاط بشتى جوانبها ، درسها في عمق وسعة ، وكون فيها رأيه الخاص ، ولا أظن أن من بين أقرانه من عنى بقراءة « المغنى » و « التصريح » في النحو ، أو من فقه كثر في « القاموس » و « اللسان » من كتب اللغة .

أما الأدب فله فيه درس وبحث ، ونقد وتعليق ، وحكم ورأى ، وقد وقف طويلاً عند المتنبي وأبي العلاء ، وكشف في مجمع الخالدين عن حسه اللغوي وذوقه الأدبي .

والواقع أن كامل حسين يؤمن إيماناً جازماً بأن العربية لغة حية ، كفيلة بأن تؤدي رسالة العلم والحضارة اليوم كما أدتها بالأمس . وحياة كل لغة بحياة أهلها ، فهم الذين يستطيعون أن يغذوها وينموها ، أن يلائموا بينها وبين حاجات العصر ومقتضياته . هي أداة أساسية من أدوات التفاهم والتبادل ، يملكها أصحابها ومن العبث أن تملكهم أو أن تتحكم فيهم ، وهي ملكية عامة شائعة بين الجميع ولا يقبل اليوم بحال أن تقصر على الخاصة أو طبقة بعينها . وانظروا — أمنيته الحارة التي استقبل بها عام ١٩٤٢ في « دعاء الكروان » ، إذ يقول : « آمل أن أرى يوماً هذه اللغة الشعرية تنحدر دون ابتذال ودون أن تفقد من رونقها شيئاً ، إلى أن تصبح أداة فعالة لمجرد رواية حادثة وشرح موقف معين » .

يلمس أدينا الصراع بين العربية والعامة ، ويراه دوراً من أدوار التطور في حياة اللغة وعلينا أن نواجهه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتيسير العربية على الناس كتابة ، وقراءة وتعليماً . وبهذا تحيا وتنشر ، ويقبل عليها النشء ، وإلا عز عليه أمرها ، واستبدالها وسائل تعبير أخرى . ويسهم كامل حسين في هذا التيسير إسهاماً جاداً ، فيعرض للإملاء ورسم الحروف مقترحاً طريقة سهلة لكتابة الهمزة ، وأخرى لرسم الكلمات الأجنبية .

ولفت نظره ما في بعض قواعد النحو من غموض أو تعقيد ، واستوقفه بوجه خاص جنس العدد ، وما يستلزمه من تذكير أو تأنيث للفظ العدد نفسه . ورأى أن يبسر ذلك بإبقاء اسم العدد على حاله دائماً ، مع الفصل بينه وبين المعدود بحرف « من » فيقال دون تفرقة خمسة من الرجال وخمسة من النساء . ويذهب بوجه عام إلى أن في النحو توسعاً وفلسفة ، إن لاعمت الخاصة فإنها لا تلائم العامة ، ولا بد أن نبسر تعليمه على الناشئين .

وهذا أمر فكرت فيه وزارة المعارف قديماً (وزارة التربية والتعليم اليوم) فكرت فيه على يد مصلح آخر هو المرحوم بهي الدين بركات ، واقترحت نحواً مدرسياً مبسراً ، وتركت للمتخصصين أن يدرسوا فلسفة النحو ما وسعهم ، وعرض هذا الاقتراح على مجمع اللغة العربية ، وأقره

في تعديل يسير . ولم يفت أديبنا أن يدلي بدلوه في التيسير ، واقترح ما سماه « النحو المعقول » وبسط قواعده بالقدر الذي ارتضاه :

وكتب اللغة في رأيه تحتاج إلى تعديل وتنقيح ، فتكتب بروح العصر وفي ضوء التقدم العلمي الحديث ، وتستبعد منها الماحكات اللفظية ، والتعليقات السطحية ، ونحن باختصار في حاجة ماسة إلى معجم حديث مصنف ، حديث في اختيار ألفاظه ، حديث في تحديد معانيه لا يذكر فيه اختلاف اللهجات ، ولا استعمال الأضداد للفظ الواحد ، ولا يقبل فيه إلا صيغة واحدة للكلمة ، وإلا مصدر واحد للفعل ، وإلا جمع واحد للاسم ، وتشرح فيه الألفاظ شرحاً دقيقاً 'واضحاً' ، يتمشي مع ما انتهى إليه العلم الحديث :

\* \* \*

يقدر كامل حسين العربية قدرها ، ويعتز بها ، ويريد لها أن تستعيد مجدها وأن تصبح لغة العلم والفن ، وأن تؤدي رسالتها على أكمل وجه ، وأن تأخذ مكانتها بين اللغات العالمية الكبرى . ينقد بعض جوانبها ، ولكنه نقد بناء يرمى إلى الإصلاح والتجديد ، وليس ثمة لغة لا تأخذ عليها : وحسه الأدبي لا يقل عن حسه اللغوي ، درس الأدب العربي درساً عميقاً ، وحاول أن يطبق عليه المنهج المقارن ، فيقارن أدباء العربية بعضهم ببعض ، ويقارنهم ببعض الأدباء العالمين . وفي المقارنة تشويق وفتح لأبواب مغلقة .

ولعله لا يسلم بنظرية التحليل النفسي سيكولوجياً ، ولكنه لا يرفض أن يطبقها في دراساته الأدبية ، فهو يرى مثلاً أن ما في شعر المتنبي من غموض وتعقيد أحياناً إنما يرجع إلى ما صادفه من خيبة وفشل ، ذلك لأن هذا الشاعر الكبير الذي شغل الدنيا وملأ الأسماع لم يحقق شيئاً من أهدافه السياسية والاجتماعية ، فشاء أن يتخيل في شعره مشاكل وصعوبات ويحاول تذليلها ، فينجح هنا بعد أن فشل هناك . ونقائض الفرزدق ، وقوله الفاحش ، وهجاؤه المقلد حتى لنفسه وأهله ربما كان وليد ضعف وقصور في الشخصية :

وبعكس هذا سما في رأيه أدب أبي العلاء بسمو شخصيته ، وهو عنده أقوى رجال الأدب العربي شخصية ، وأعمقهم تفكيراً ، وأصدقهم عاطفة ، وأحدثهم ذكاء . حقاً إن نثره وشعره لم يخلوا من مأخذ ، ففي سجعهم ضعف وتكلف أحياناً وفي شعره تشبيهات غامضة ، وفي معانيه تكرار ، وفي تعبيراته إسراف في بيان ثروته اللغوية ، ومع ذلك يعد إنتاجه من الأدب الرفيع ، لصدقه وقوة تعبيره ، وأدبه في الواقع هو كل حياته ، عاش فيه وله وعن طريق اللغة عرف الحياة كلها ، ولا غرابة إذن أن تغطي هذه اللغة على نثره وشعره :

\* \* \*

وكامل حسين أديب موضوعي ، يعنى بالحقائق والمعاني ، يجمعها ويتخير أولئها ، يهذبها وينسقها بحيث تبدو جليلة واضحة . وقد مكنته اطلاعه الواسع من أن يعرض منها ألوانا شتى في الأدب والتاريخ ، في العلم والفلسفة . وهو ممن يؤمنون بوحدة المعرفة وارتباط جوانبها ، وكثيراً ما تقود الدراسات الطبيعية إلى ضرب من الميتافيزيقا .

ويترجم لبعض الشخصيات المعاصرة ، فيقف عند أبرز المعالم وأوضح الصفات ، فلنلقى السيد في رأيه أرسطى صادق في أرسطيته ، ولاغرابة فوجوه الشبه بين الرجلين كثيرة : « كلاهما معلم ، وكلاهما شديد العناية بالكليات عناية فائقة ، وكلاهما مرهف الحس من ناحية المنطق البحت ، يدرك الخطأ في التفكير بطبيعته الصافية . والدكتور على إبراهيم بناء « شيد كثيراً ، وكأنما عاهد نفسه على ألا يترك شيئاً مما تفخر به البلاد الحديثة إلا أنشأ له شبيهاً في مصر وكان يرى أن ينشئ أولاً وأن يترك للتطور الطبيعي أن يتمم ما أنشأ ، وقد عيب عليه ذلك ولكنه لم يكن يؤمن بالطفرة وكان يرى أن الأمور يجب أن تبدأ صغيرة ، وأن علينا أن نبدأ ، وعلى الزمن أن يستكمل النقص »

وكامل حسين ناثر ، ولم أر له إلا قصيدة واحدة تحت عنوان : « لقمان المريض » وهي من شعر الشباب ، وأرجح أنها لم ترقه ، وترك الشعر جانباً ، ونثره نثر رقة وحضارة ، سهل واضح ، فلا يرتضى اللفظ الغامض ولا التعبير المعقد . أسلوب مطرد لعلو فيه ولا انخفاض ، حلو عذب يستمد علوبته من رقة صاحبه ودماثة خلقه ، يقرب الأفكار البعيدة ، ويسر البرهنة الدقيقة بمقت الصناعة اللفظية والجمل الطنانة ، ويكره السجع والتكرار ، كان معجباً بالفكر المستقيم ، ويعده أكبر نعمة وأكبر لذة في الحياة . والفكر المستقيم يؤدي عادة إلى تعبير مستقيم :

رحم الله كامل حسين رحمة واسعة ، وجزاه خير الجزاء :

## ٢٢ — إبراهيم أنيس المجمعى (٢ نوفمبر ١٩٧٧)

نلتقى اليوم لتقضى لحظات مع ذكرى عزيزة علينا جميعا ، ولقد كان أنيس رحمه الله أنيسا في لقائه ، أنيسا في مجلسه ، أنيسا في حديثه ، يلقانا ببسمته الخفيفة المعبرة ، ثم يجلس لينصت ويسمع أولا ، ولا يتحدث إلا إن دعا داعى الحديث ، ودواعيه لديه دائما ذات مغزى ودلالة لم يبتل قط بشهوة الكلام ، وإذا ما تكلم فلأنما يتحدث عن بيئة : يحرص على الأصالة ما وسعه ، ويمقت التكرار والإعادة ، ويصدر عن فوق سليم وحسن صادق :

عشنا معه في هذه الدار ست عشرة سنة أو يزيد ، وصلته بها أقدم من ذلك بكثير ، فقد اختير خيرا بلجنتى اللهجات والأصول عام ٤٨ ، وغذى المجمع "ببحوث لغوية" خصبة قبل أن يصبح عضوا فيه ، ثم استمر يغذيه بغذاء مدمج إلى آخر لحظة من حياته ، وأشهد أنه كان مؤمنا الإيمان كله برسالة المجتمع ، وحريصا الحرص كله على أدائها : كان يؤمن بالتطور في غير ما "طفرة" ، وبالتجديد والإصلاح في غير ما غموض ولا تعقيد :

وقد أعطى المجمع ما وسعه ، بحث فيه ودرس ما أمكنه ، أعطى في لساننا المختلفة من لهجات وأصول ومن لسان علمية وألفاظ وأساليب ، أوفى لسان المعجمات اللغوية المتعددة ، من الكبير إلى الوسيط ، ثم إلى الوجيز ، وأعطى بسخاء في مجلة المجمع التى اضطلع بالاشراف عليها منذ عام ٦٧ ، واستطاع أن يخرج منها في حياته خمسة عشر جزءا ، وتحت الطبع جزآن آخران يحملان اسمه . فكساها بكساء جديد ، وأمدها دون انقطاع بأفكار رائدة وتوجيهات سليمة ، وقد التقيت معه أخيرا على مائدة « المعجم الوجيز » ، وما كان أعزها عليه وأحبها إلى نفسه : ولنا لندرج أن يخرج هذا المعجم قريبا إلى النور وفاء لذكره ، وتخليدا لجهوده وجهود من أسهموا معه :

أما عطاؤه في مجلس المجمع ومؤتمره فمجال القول فيه ذو سعة ، ولا يقل عن ذلك عطاؤه العلم الفسيح في عالم التأليف والبحث ، في عالم الأدب واللغة ، إن في مصر أو خارجها :

رحم الله فقيدنا رحمة واسعة ، وجزاه خير الجزاء عما قدم للغته وأمتة :

## ٢٣ — انا وعثمان أمين (أكتوبر ١٩٧٨)

يفقد المرء نفسه شيئاً فشيئاً حين يفقد الإخوان الأعزاء والزملاء الأوفياء ، ولقد كان عثمان أمين منى في مقدمته هؤلاء . عرفته شاباً ، وصاحبته كهلاً وشيخاً — عرفته في باريس بين رجيل من مبعوثي كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وفي باريس مجال فسيح للجد واللهو : وأشهد أن فقيدنا رحمه الله كان جادا دائماً . أتاحت له موارد البحث والدرس فهل منها ماوسعه ، قرأ في الأدب والفن ، كما قرأ في العلم والفلسفة ، وتابع كبار الأساتذة ، وتعلم لشيونهم ، وجود لغته الفرنسية إلى جانب لغته الإنجليزية ، وضم إليها حظاً غير قليل من اليونانية واللاتينية . وتوفر له في مصر قبل سفره زاد كبير من العربية أدبا وعلماء وفلسفة ، ولم يصرفه تعمقه في دراسة الفكر الغربي . قديمه ومتوسطه وحديثه ومعاصره عن أن يتابع النظر في الفكر الإسلامي . ويكفي أن أشير إلى أنه استطاع أثناء بعثته أن يحتق كتاباً من أهم كتب المعلم الثاني ، وهو كتاب « إحصاء العلوم » لأبي نصر الفارابي ، وجاءت طبعته الأولى وليدة هذه الجهود . وفي حرصه على التجويد ألحق بها الطبعة الثانية والثالثة .

وزاملته في مصر منذ عودته من أوروبا ، فالتقينا على مائدة التدريس في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، واشتركنا في لجنة الفلسفة والعلوم الاجتماعية بمجمعنا هذا ، اشترك معنا خيراً ثم عضواً وزميلاً والمعجم الفلسفي الذي يخرج المجمع الآن مدين له بقسط كبير من تمحيصه وتحقيقه . واشتركنا أيضاً في لجنة الفلسفة والعلوم الاجتماعية بالمجلس الأعلى للآداب والفنون وجمعت بيننا ندوات ومؤتمرات متلاحقة . ولا أذكر أننا اختلفنا قط في الحكم والتقدير أو تباعدنا في التوجيه ورسم السياسة . وقد رميت يوماً بممالأته والتعصب له ويعلم الله أني لم أرشحه لأمر ، ولم أختره لموقف إلا وهو به جد جدير .

واليوم وقد رحل عنا وخلف ما خلف من فراغ فإن الواقع يقتضي أن نسجل أنه يعد بحق من بناء الفكر الفلسفي المصري المعاصر . كون رجلاً مرموقاً من الباحثين والدارسين وزود المكتبة العربية بزاد وفير سيبقى على الدهر . ولم يفته أن يكتب ويؤلف باللغتين الفرنسية والإنجليزية تغمده الله برحمته ، وجزاه خير الجزاء عما قدم للغته وثقافته .

## ٢٤ — على الخفيف (نوفمبر ١٩٧٨)

أودع اليوم على الخفيف الأستاذ ، فقد تتلمذت له منذ نصف قرن أو يزيد : تتلمذت له في معهد لم يقدر مع الأستاذ حق قدره ، ولم يترك سائراً في طريقه بل تحزب ضده المتحزبون ، وتآلب الخصوم والمعارضون ، وقضوا عليه ولما ينض على نشأته عشرون عاماً — وأعني به مدرسة القضاء الشرعي التي أريد بها أن تجمع بين القديم والحديث ، وأن تلتئم بين الماضي والحاضر تجمع في محر تام وتقدير صحيح ، وتلائم في اختيار سليم وتوفيق حكيم — فلا تأخذ بالقديم لمجرد أنه قديم ، وفيه ولاشك الزائف والباطل والخرافة والأسطورة — ولا تسير وراء الحديد لبريقه ولمعانه ، وفيه قطعا ما لا وزن له ولا قيمة — وقد سارت مدرسة القضاء الشرعي في هذا الطريق سيراً حثيثاً ، وخرجت جيلاً من العلماء والمفكرين الذين كنا نود أن يغدو بهم العالم العربي والإسلامي دون انقطاع .

في هذه المدرسة تتلمذت للمرحوم الخفيف في درس لأنسائه تتلمذت له في علم الفرائض ، ونعمت في درسه بالفقيه المتمكن والرياضي الدقيق : "وقدر لي أن أشارك بعد زمن في مناقشة مشروع قانون المواريث بمجلس الشيوخ ، وكان هذا الدرس خير عون لي : في هذه المدرسة تتلمذت للمرحوم وصداقته ، وهكذا كان شأن مدرسة القضاء فقد كان يراد بها أن تجمع بين الأساتذة والطلاب والأصدقاء ، وأي صداقة أقوى وأمتن من تلك التي تتوثق بين رجال العلم والمعرفة طوال تسع سنين ؟

ورحم الله عاطف بركات الأب الأول لهذه المدرسة ، وقد خطط لها وأحكم التخطيط ، ومن تخطيطه أن تنشأ لها مدينة خاصة في ضاحية قن ضواحي القاهرة لا يقيم فيها إلا طلابها وأساتذتها ، وتوفر فيها وسائل البحث والدرس ومتطلبات العيش والحياة .

وأودع أيضاً على الخفيف الزميل ، فقد نعمنا بزمالته في هذه الدار زمناً ، ويوم أن دخلها عددناه غناً كبيراً وسنداً عظيماً : حرص ما وسعه على أن يشترك في بعض لحائنا ، وأن يتابع جلسات مجلسنا ، ولم يتخلف قط إلا لعلنا قاهر — أعطى لحائنا في سماء ، وله علمه الفياض وذوقه السليم ، وحكمه الدقيق ، وأثار مجلسنا بآرائه الصائبة وتوجيهاته السديدة . لم يعرف الإسراف قط ، لافي القول ولا في العمل : وقد عني بالمصطلح الفقهي ، وعقد له لجنة فرعية خاصة ، وأقر فيه ما أقر ، ووفاء لذكراه أمل أن نخرج ما أقره إلى النور ، لاسيما وهو تراث يخشى عليه الضياع :

وأودع أخيراً على الخفيف الفقيه والمشرع ، تمكن من الفقه الإسلامي تمكناً لا يحاربه فيه كثير من معاصريه : حذقه في بصر وبصيرة ، ومارسه علماً وعملاً ، وضم إليه قدراً غير قليل من علوم القانون — فتوفرت له أسباب الاجتهاد والفتوى ، وكان يؤمن بأن التشريع إنما وجد ليسد حاجة ، ويعين

على تنظيم المجتمع وتدهير شئونه — وليس في تعاليم الإسلام ما يعارض النهوض الصحيح والتقدم الملميم  
ومن الخزي أن نعيش حالة على من سبقونا ، أن نحرم أنفسنا من حق التفكير والتعديل والتصحيح —  
وأذكر أني تحدثت إليه في شأن الحركة الدائعة التي ترمي إلى إحلال الفقه محل القوانين الوضعية ،  
وكان يرى أنها حركة قليلة الجدوى وصعبة التنفيذ وفي رأيه أنه إن كان ولا بد فلننظر في القوانين  
الوضعية الحالية وبخاصة القوانين المدنية ، فإن كان فيها ما يعارض مبادئ الإسلام الثابتة رفضناه  
أو عدلناه ، أما أن نهدم في غير بناء جهل ضائع لاطائل نحتة — ومن أشد ما آسف له أن مجمع البحوث  
الإسلامية ، وفيه المرحوم على الخفيف وأمثاله — كان في وسعه أن يواجه مشاكل الساعة ، وأن  
يحلها حلاً إسلامياً عصبياً ، فيخدم الإسلام والمسلمين ، ولكنه لم يواجه ذلك مواجهة صادقة .

رحم الله الأستاذ على الخفيف، وشمله برضوانه .

---

## الفهرس

### صفحة

|                                                     |     |
|-----------------------------------------------------|-----|
| (١) وفاء وتقدير                                     | ٣   |
| (ب) الباب الأول : المحامع اللغوية                   | ٧   |
| ١ - المحامع فى خدمة اللغة                           | ٩   |
| ٢ - الأكاديمية الفرنسية                             | ١٣  |
| ٣ - مجمع دمشق                                       | ١٧  |
| ٤ - مجمع القاهرة                                    | ٢٢  |
| ٥ - مجمع بغداد                                      | ٣٦  |
| ٦ - مجمع عمان                                       | ٣٩  |
| ٧ - اتحاد المحامع العربية                           | ٤١  |
| (ج) الباب الثانى : الاستقبال                        | ٤٥  |
| ١ - العشرة الطيبة (ديسمبر ١٩٤٦)                     | ٤٨  |
| ٢ - محمد كامل حسين (مايو ١٩٥٢)                      | ٥٢  |
| ٣ - محمد الفاسى (يناير ١٩٥٩)                        | ٥٧  |
| ٤ - عشرة أعضاء مصريين (أبريل ١٩٦١)                  | ٦٢  |
| ٥ - أحد عشر عضوا عربيا (مارس ١٩٦٢)                  | ٦٦  |
| ٦ - عبد الرزاق محيى الدين (يناير ١٩٦٨)              | ٧٢  |
| ٧ - محمد الحبيب ابن الخوجة (فبراير ١٩٧٢)            | ٧٩  |
| (د) الباب الثالث : الوداع                           | ٨٧  |
| ١ - منصور فهمى (مايو ١٩٥٩)                          | ٩٠  |
| ٢ - لويس ماسينيون (ديسمبر ١٩٦٢)                     | ٩٧  |
| ٣ - أحمد لطفى السيد (أبريل ١٩٦٣)                    | ١٠٦ |
| ٤ - لطفى السيد أستاذ الجليل (الذكرى السنوية الأولى) | ١١١ |

صفحة

- ٥ - محمد البشير الإبراهيمي (أكتوبر ١٩٦٥) ... ١١٣
- ٦ - العقاد في مجمع اللغة العربية (أبريل ١٩٦٤) ... ١١٩
- ٧ - العقاد المؤمن (الذكرى السنوية الأولى) ... ١٢٦
- ٨ - الشيباني في مجمع الخالدين (فبراير ١٩٦٦) ... ١٢٨
- ٩ - مع أمين الخولي (مايو ١٩٦٦) ... ١٣٢
- ١٠ - علي عبد الرازق (نوفمبر ١٩٦٦) ... ١٣٤
- ١١ - حسن حسني عبد الوهاب (يناير ١٩٦٩) ... ١٤١
- ١٢ - مصطفى جواد اللغوي (فبراير ١٩٧٠) ... ١٤٦
- ١٣ - محمد الفاضل ابن عاشور (فبراير ١٩٧١) ... ١٥٠
- ١٤ - طه حسين مكافحا (ديسمبر ١٩٧٣) ... ١٥٧
- ١٥ - طه حسين المجمعى (حفلة الجامعة العربية) ... ١٦٢
- ١٦ - مع طه حسين (مجلة الهلال) ... ١٦٥
- ١٧ - طه حسين ومشكلة النحوق (الذكرى السنوية الرابعة) ... ١٦٨
- ١٨ - زكى المهندس (نوفمبر ١٩٧٦) ... ١٧٢
- ١٩ - جميل صليبا ( ) (١٩٧٦) ... ١٧٦
- ٢٠ - أنيس المقدسى المجمعى (مارس ١٩٧٧) ... ١٧٩
- ٢١ - كامل حسين (أبريل ١٩٧٧) ... ١٨١
- ٢٢ - إبراهيم أنيس المجمعى (نوفمبر ١٩٧٧) ... ١٨٥
- ٢٣ - أنا وعثمان أمين (أكتوبر ١٩٧٨) ... ١٨٦
- ٢٤ - علي الخفيف (نوفمبر ١٩٧٨) ... ١٨٧

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة  
مهندس / وجاء الهادي محمد عناره

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨١/٢٩٥٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٣٠١٠-١٤٨٠٥١٢٣٤٨





Bibliotheca Alexandrina



0396750